فرانز فانون

بشرة سوداء
أقنعة بيضاء



anep

الفارابي

بشرة سوداء

أقنعة بيضاء

Frantz Fanon

Peau noire
masques blancs

Éditions du Seuil
1952

فرانز فانون

بشرة سوداء أقنعة بيضاء

تعريب: خليل أحمد خليل

ANEP — دار الفارابي

الكتاب: بشرة سوداء أقنعة بيضاء
المؤلف: فرانز فانون
التعريب: خليل أحمد خليل
الغلاف: فارس غصوب
الناشر: * منشورات آنيب ANEP
05 شارع خزناجي ـ الأبيار ـ الجزائر
الهاتف: 76 09 92 21 213
الفاكس: 77 09 92 21 213
e-mail: editionanep@yahoo.fr
* دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: 301461(01) ـ فاكس: 307775(01)
ص.ب: 3181/ 11 ـ الرمز البريدي: 2130 1107
e-mail: farabi@inco.com.lb
الطبعة الأولى 2004
ISBN: 9953-71-020-1 ـ لبنان
ISBN: 9947-21-143-6 ـ الجزائر
Dépôt - légal: 1872-2004

ISBN: 2-02-00601-4

Ouvrage publié avec le concours du Ministère français chargé de la culture - Centre National du Livre.

تباع النسخة الكترونياً على موقع:
www.arabicebook.com

المحتويات

مدخل ____ 9
الفصل الأول: الأسودُ واللغة ____ 19
الفصل الثاني: المرأةُ الملوَّنة والأبيض ____ 45
الفصل الثالث: الإنسانُ المُلوَّن والبيضاء ____ 69
الفصل الرابع: حول عقدة تبعية المُستعمَر المزعومة ____ 89
الفصل الخامس: تجربةُ الأسود المعيوشة ____ 117
الفصل السادس: الزنجي وعلم النَّفْس المرضي ____ 153
الفصل السابع: الزنجيّ والاعتراف به ____ 223
على سبيل الختام ____ 237

مدخل

أتكلّم على ملايين الناس اللذين جرى تعليمهم الخوفَ بدراية، تعليمهم عقدة النقص، الاضطراب، الرّكوع، اليأس والذّلة، (إيميه سيزير، خطاب في الاستعمار).

لن يحدث الانفجارُ اليوم، فالوقتُ متقدِّم جداً... أو متأخر جداً.
فأنا لا أصلُ البتّة مسلّحاً بحقائق حاسمة.
وعيي لا تخترقه ومضاتٌ جوهرية.
لكنني، بكل صفاء، أرى أنّ من المفيد أنْ تُقال بعض الأمور.
هذه الأمور سأقولها، ولنْ أصرخها. لأنّ الصرخة غادرت حياتي منذ أمدٍ بعيد.
وهو أمد بعيد، بعيد...
لماذا أكتب هذا الكتاب؟ لم يطلبه مني أحد.
خصوصاً أولئك اللذين يخاطبهم.
والحال؟ الحال هو أني أردُّ بكل هدوء بأنّ هناك كثيراً من الحمقى على هذه الأرض. وبما أنّي أقول ذلك، فلا بد لي من إثباته.

نحو إنسانية جديدة...

فهم الناس...

إخواننا الملوّنون...

أنا أؤمن بك، أيها الإنسان...

المفهوم العرقي الشائع...

الفهم والمحبّة...

من كل الجهات تهاجمني وتحاول الاستيلاء عليّ عشرات ومئات الصفحات. ومع ذلك قد يكفي سطر واحد، قد يكفي الرّد بجواب واحد، وتتجرّد مسألة السود من جدّيتها.

ماذا يريد الإنسانُ؟

ماذا يريد الإنسانُ الأسود؟

كان يجب عليّ أنْ أعاني شعور إخواني الملوّنين، لأقول إن الأسود ليس إنساناً.

ثمة منطقة عادمة، منطقة عاقرة وقاحلة بنحو خارق، مُنحدر أجرد تماماً، يمكنُ أن ينشأ منه انبثاقٌ أصيل. في أغلب الأحوال، لا ينعمُ الأسودُ بتحقيق هذا الهبوط إلى مناطق الجحيم الحقيقية.

ليس الإنسانُ فقط إمكانيّة استئناف، إمكانية نفي. وإذا كان صحيحاً أنَّ الوعي (الضمير) هو نشاط إعلائي، فلا بد لنا من أنْ نعرف أيضاً أن هذا الإعلاء مسكون بمسألة الحبّ والفهم. فالإنسان هو كلمة نعم رنانة بفعل نغماتها الكونيّة، وهو إذْ يُنتزع ويُشتّت ويخيَّر ويُحكم عليه بأنْ يرى الحقائق التي وضعها تنحلُّ الواحدةُ تلو الأخرى، فينبغي أن يتوقف عند إسقاط تضاد على العالم.

الأسودُ هو إنسانٌ غامض؛ أي أنه بفضل سلسلة من الاضطرابات العاطفيّة، توطّن في صميم عالم يتوجب إخراجُه منه تماماً.

إن المسألة من الأهمية بمكان، بحيث إننا لا ننزع إلى ما هو أقلّ من تحرير الإنسان الملوّن من ذاته. ولسوف نسير ببطءٍ شديد جداً، لأن هناكَ معسكرين: الأبيض والأسود.

بقوّة، سنستجوبُ الميتافيزيقيّتين وسنرى أنّهما، غالباً، هدامتين جداً.

لن نشفقَ البتّة على الحكّام المستعمرين القدامى، على المبشّرين السابقين. بنظرنا، الذي يعبد الزنوجَ «مريض» مثل الذي يمقتهم.

بالعكس، يكون الأسود الذي يريد تبييضَ عرقه تَعِساً مثل ذاك الذي يبشّر بكرهِ الأبيض.

في المطلق، ليس الأسود محبوباً أكثرَ من التشيكي، والمقصود في الحقيقة هو التخلي عن الإنسان.

منذ ثلاثة أعوام، كان يُفترض بهذا الكتاب أنْ يكون قد كُتِب... لكنَّ الحقائقَ، آنذاك، كانت تؤرقنا. واليوم، يمكنُ قولها من دون انفعال. فهذه الحقائق لا تحتاج إلى قذفها في وجه النّاس. إنها لا تريد إثارة الحماس. فنحن حذِرون من الحماس.

كلما رأيناه يلوح في مكانٍ ما، كان ينبئ بالنار، بالجوع، بالبؤس... وكذلك باحتقار الإنسان.

فالحماسُ هو سلاح الضعفاء بامتياز.

أولئك الذين يحمّون الحديد لكي يضربوا عليه مباشرة، يعملون تبعاً للقول: اضرب الحديد وهو حامٍ. أما نحن فنتمنّى أن نحمّي جثة الإنسان ونرحل. ربما نصل إلى هذه النتيجة: الإنسان الذي يغذّي هذه النّار بفعل اشتعاله الداخلي.

الإنسان المتحرِّر من منطلق ما تشكله ممانعةُ الآخر، والحافر في لحمه ليجدَ لنفسه معنى.

وحدهم بعض الذين سيقرأوننا، سيدركون المصاعب التي صادفتنا ونحن نضع هذا الكتاب.

ففي مرحلة استوطن فيها الشكُّ الارتيابي داخلَ العالم، حيث لم يعد ممكناً تمييز المعنى من اللامعنى، حسب أقوال عصابة من القذرين، يغدو شاقاً الهبوط إلى مستوى لم تُستعمل فيه بعد مقولاتُ المعنى واللامعنى.

يريد الأسودُ أن يكون أبيضَ. ويستميت الأبيض لتأكيد وضعه البشري.

سنرى في سياق هذا الكتاب تبلور محاولة لفهم علاقة الأبيض بالأسود.

فالأبيض منغلق في بياضه.

والأسود منحبس في سواده.

سنحاول تحديد اتجاهات هذه النرجسية المزدوجة وما تحيل إليها من حوافز.

في بداية تأملاتنا، كان قد بدا لنا أن من غير المناسب الإبانة عن النتائج التي ستقرأ.

وحده، هاجسُ وضع حدّ لحلقة مفرغة هو الذي قاد جهودَنا.

ثمة واقع هو: أنَّ بعض البيض يعتبرون أنفسهم متفوّقين على السود.

وثمة أمر واقع أيضاً هو: أن السود يريدون أن يظهروا للبيض، مهما كلَّف الأمر، غنى فكرهم وتساوي قدرتهم الروحية.

كيف الخروج من ذلك؟

قبل قليل استعملنا لفظة نرجسية. في الواقع، إننا نرى أن تأويلاً نفسانياً للمسألة السوداء يستطيع وحده الكشف عن التشوّهات

العاطفية، المسؤولة عن البناء المُعقدي. فنحن نعمل على تفسخ عضوي كلّي لهذا العالم الموبوء. ونعتبر أن على كل فرد أنْ ينزع إلى الالتزام بالكونية الملازمة للوضع البشري. وإننا حين نقترح ذلك، إنما نفكّر دونما تميز برجال مثل غوينو أو بنساءٍ مثل مايوت كابيا. لكنْ، للتوصل إلى هذا الإدراك، لا بد أن نتخلص من سلسلة عيوب، هي من بقايا المرحلة الطفليّة.

كان نيتشه يقول: إن تعاسة الإنسان تكمن في أنّه كان طفلاً. مع ذلك، لا يمكننا أن ننسى، كما يقول شارل أوديبه، إنَّ مصير العُصابي يبقى رهنَ يديه.

ومهما يكن هذا الاستنتاج قاسياً، بالنسبة إلينا، فإننا مكرهون عليه: بالنسبة إلى الأسود، لا يوجد سوى مصير واحد. وهو مصير أبيض.

قبل البدء بالمحاكمة، نرغب في قول بعض الأمور: التحليل الذي نقوم به هو تحليل بسيكولوجي. مع ذلك، يبقى واضحاً بنظرنا، أنَّ التحرير الحقيقي للأسود يستوجب استيعاءً للوقائع الاقتصادية والاجتماعية بالغ الصعوبة. فإذا كان ثمّة عقدة نقص، فهي حصيلة مسارين:

- اقتصادي، أولاً؛
- وتالياً، بالاستبطان، أو بكلام أفضل، نسب هذه الدونية إلى لون البشرة.

كرد فعل على النزعة الجبلّية في نهاية القرن التاسع عشر، طالب فرويد بالتحليل النفساني، بأن يؤخذ العامل الفردي في الاعتبار. واستبدل أطروحة تكوينية سلالية (Phylogénétique) بالنظرة التطورية الفردية (Ontogénétique). وسنرى أن انسلاب الأسود ليس مسألة فردية. فإلى جانب تطوره السلالي وككائن فرد (Ontogénie)، هناك

تكوّنه الاجتماعي. بمعنىً ما، للرّد على أمنية لكونت ودامي[1]، لنقلْ إنَّ المقصود هنا هو تشخيص اجتماعي.

فما هو التشخيص؟

خلافاً للمسارات الحيوية ـ الكيميائية، لا ينجو المجتمع من التأثير الإنساني. فالإنسانُ هو الذي يتحقّق المجتمعُ من خلاله. والتشخيص يكون بين أيدي هؤلاء الذين يريدون حقاً زعزعة جذور المبنى المنخورة.

لا بد للأسود من خوض الصراع على الصعيدين: نظراً لترابطهما التاريخي، يكون كل تحرير أحادي الجانب ناقصاً، وقد يكون الضلال الأكبر في الاعتقاد بترابطهما الميكانيكي. ناهيك بأنَّ الوقائعَ تناقضُ ميلاً منهجياً كهذا. سوف نبيِّن ذلك.

للمرّة الأولى، تستلزمُ فهم الحقيقة فهماً شاملاً. فلا بد من تقديم حلّ، على الصعيد الموضوعي كما على الصعيد الذاتي.

ولا داعي للإقدام، متخذين مظهر الاعتذار عن الخطأ، على الإعلان أنّ المسألة تتعلق بإنقاذ النفس.

فلن يكون هناك تحرير صحيح إلّا بقدر ما تستعيد الأشياء، بأقصى ما لها من معنى مادي، مكانتها.

من المستحب عادة إدراج مقدمة لكتاب في علم النفس تتناول الجانب المنهجي (ميتودولوجية). سوف نخالف من جانبنا العرفَ. فنترك المنهجيّات لعلماء النبات والرياضيات. هناك نقطة تختفي عندها المنهجيّات.

نتمنّى أن نتموضع فيها. سنحاول اكتشاف المواقف المختلفة التي يقفها الزنجي في مواجهة الحضارة البيضاء.

---

(1) M. Le conte et A. Damey, *Essai critique des nosographies psychiatriques* actuelles.

«متوحّش الغابة» ليس شأننا هنا. إذ إن بعض العناصر لا تزال بلا وزن بالنسبة إليه.

ونظراً لاستحضار العرقين الأبيض والأسود، نرى أن هناك تناولاً جماعياً لعقدة نفسية ـ وجودية. وإننا حين نحلّلها، إنما نرمي إلى تحطيمها.

إن الكثيرين من الزنوج لن يتعرفوا على أنفسهم في الأسطر التالية. وكذلك، الكثيرون من البيض.

لكنّ كوني أشعر بالغربة عن عالم الفصامي أو عالم العاجز الجنسي، لا يُطاول شيئاً من واقعهما.

فالمواقف التي أرغب في توصيفها، هي مواقف حقيقيّة. ولقد صادفتها في عددٍ لا يُحصى من المرّات.

لدى الطلبة، لدى العمّال، لدى القوادين في بيغال أو مرسيليا، كنت قد لاحظت التركية العدوانية والسلبية نفسها.

هذا الكتاب هو دراسة عيادية، سريرية. وأعتقد أنّ الذين سيتعرفون فيه على أنفسهم، سيخطون خطوةً إلى الأمام. فأنا أرغب حقاً في أن أقود أخي، الأسود أو الأبيض، إلى أن يمزق بقوّة العباءة البالية التي نسجتها عصور عدم الفهم والتفاهم.

تتحدد هندسة العمل الراهن في الإطار الزماني. فكل مسألة إنسانية تُوجب إيلاؤها الاعتبار، انطلاقاً من الزمن. والمثال الدائم في ذلك هو أن يُستخدم الحاضر في بناء المستقبل.

وهذا المستقبل ليس مستقبل الكون، بل هو حصراً مستقبل عصري، بلدي، وجودي. وفي أيّ حال، ليس عليّ الانشغال بتحضير العالم الذي سيأتي من بعدي. فأنا أنتمي بلا اختزال إلى عصري.

وعليّ أنْ أعيش لأجله. فالمستقبل ينبغي أن يكون بناءً متواصلاً يقوم به الإنسان الموجود. وهذا البناء يرتبط بالحاضر، على قدْر ما أطرح هذا الأخير كشيء يجب تخطّيه.

تنكبُّ الفصولُ الثلاثةُ الأولى على الزنجي الحديث. فأنا أتناول الأسود الراهن، وأحاول تعيين مواقفه في العالم الأبيض. وسوف أخصّص الفصلين الأخيرين لمحاولة تقديم تفسير من خلال علم النفس المرضي والفلسفة لفعل الوجود لدى الزنجي.

ويمتاز التحليل بأنه استرجاعي بنحو خاص.

فالفصلان الرابع والخامس يقعان علىٰ مستوى مختلف جوهرياً.

في الفصل الرابع، أنتقد عملاً[1] خطيراً، في نظري. فالكاتب، مانوني (Mannoni)، يعي من جانبه غموض موقفه والالتباس فيه. وربما كان في ذلك مزية من مزيّات شهادته. فقد حاول الإحاطة بوضع ما. ومن حقنا الإعلان عن عدم رضانا. ومن واجبنا أن نبيّن للكاتب أين نفترقُ عنه.

أما الفصل الخامس، الذي عنونته «تجربة الأسود المعيوشة»، فهو هام على غير صعيد. فهو يبيّن الزنجي في مواجهة عرقه. وسوف نرى أنّه لا يوجد شيء مشترك بين زنجي هذا الفصل وذلك الذي يسعى إلى مضاجعة البيضاء. قد نجد لدى هذا الأخير رغبةً في أن يكون أبيض. في كل حال، تعطشاً للانتقام. ـ هنا، بالعكس، نحن أمام مشهد الجهود اليائسة لزنجي ينكب بحماسة على اكتشاف معنى الهويّة السوداء. فالحضارةُ البيضاء والثقافة الأوروبية فرضتا على

(1) O. Mannoni, *Psychologie de la colonisation;* Paris, Ed. du Seuil, 1950.

الأسود انحرافاً وجودياً. سنبيّن في موضع آخر أن ما يسمّى غالباً باسم النفس السوداء، هي من إنشاء الأبيض.

فالأسود المتطوّر، أسير أسطورة الزنجيّ، الفطرية، الكونية، يشعر في لحظةٍ معيّنة أنَّ عرقه لم يعد يفهمه.

أو أنه لم يعد يفهم عرقَه.

عندئذٍ يبتهج بذلك، وحين يشرح هذا الاختلاف، هذا اللاتفاهم، هذا التنافر، يجد في ذلك كله معنى إنسانيته الحقيقية. أو يرغب، على الأندر، في أن يكون فعل وجوده لشعبه. فيغور في الثقب الأسود الكبير، والغضبُ على شفتيه، والحيرة في قلبه. سنرى أن هذا الاستعداد، هذا الموقف اللامتناهي الجمال، يشطبُ الحالة الراهنة والمستقبل، باسم ماضٍ صوفيّ.

بما أنني من أصل أنتيلي، فإن مشاهداتي واستنتاجاتي لا تصلح إلّا لبلاد الأنتيل، ـ أقله، فيما يتعلّق بالأسود في بلده. وقد يلزم تكريس دراسة لتفسير التباينات القائمة بين الأنتيليّين والأفارقة. قد أقوم بها ذات يوم. وقد تغدو نافلةً أيضاً، وهذا ما لا أستطيع إلّا الابتهاج به.

الفصل الأول

الأسودُ واللغة

إننا نعلّق أهمية أساسية على ظاهرة اللغة. لذا، نرى أن من الضروري إجراء هذه الدراسة التي يُفترض بها أنْ تتمكن من تزويدنا بعنصر من عناصر فهم الإنسان الملوّن في بُعد ما يظهر عليه للآخر. إذ من المتّفق عليه أنّ الكلام فعل وجود مطلق في نظر الآخر.

للأسود بُعدان. أولهما مع نظيره، وثانيهما مع الأبيض. فالأسود يتصرّف تصرّفاً مختلفاً، مع أبيض ومع أسود آخر. لا ريب في أنّ هذا الانشطار العضوي (التعضية) هو النتيجة المباشرة للمغامرة الاستعمارية... فأن يتغذى شريانه الرئيس من قلب نظريات مختلفة أراد واضعوها أن يتخذّوا من الأسود مثالاً للتطور البطيء من القرد إلى الإنسان، لهو أمر لا يفكر أحد في نقضه. فهذه بيّناتٌ موضوعية، تعبّر عن الواقع.

لكنْ، بعدما تتم الإحاطة بهذا الوضع، بعدما يتم فهمُه، يحسب أن المهمّة قد أُنجزت... عندئذٍ، كيف لا يُعاد سماع ذاك الصوت يقول مستخلصاً، بعد استرجاع سريع لمراحل التاريخ، أنه: الصوت، الذي يتدحرج على سلالم التاريخ: «لم يعد المطلوب معرفة العالم، بل تحويله».

إنّ المطلوب في حياتنا اليومية هو هذا الأمر بالذات على شدّته.

فالكلام معناه أنكم تستعملون تصريفاً معيّناً، تمتلكون مورفولوجيا هذا اللسان أو ذاك؛ لكنّه يعني بنحوٍ خاص التزام ثقافة ما، تحمّل عبء حضارة ما.

بما أنّ الوضع ليس في اتجاه وحيد، فلا بد للبحث من التأثر بذلك. فنحن ليسمح لنا ببعض النقاط التي مهما بدت غير مقبولة في البداية، إلا أنها ستجد في الوقائع معيار صحتها.

إن المسألة التي نتناولها في هذا الفصل هي التالية: سيكون الأسود الأنتيلي أكثر بياضاً، أي سيقترب أكثر من الإنسان الحقيقي، بقدر ما سيمتلك اللغة الفرنسية. نحن لا نجهلُ أنّ في ذلك واحداً من استعدادات الإنسان في مواجهة الوجود. فكل إنسان يمتلك اللغة، يحوز في المقابل على العالم المُعبَّر عنه والمُتضمَّن في هذه اللغة. يتضح إلى أين نريد الوصول: هناك في حيازة اللغة مقدرة خارقة. كان بول فاليري يُدرك ذلك، إذْ كان يجعلُ اللغةَ «الإله التائه في اللحم»[1].

في عملٍ قيدَ الإعداد[2]، نأخذ على عاتقنا درس هذه الظاهرة.

حالياً، نودُّ أن نبيّن لماذا كان على الأسود الأنتيلي، كائناً مَنْ يكون، أن يتموضع دائماً في مواجهة اللغة. فوق ذلك، سنوسع دائرة توصيفنا، وما وراء الأنتيلي، نحن نستهدف كل إنسان مستعمَر.

نستهدف كل شعب مُستعمَر ـ أي كل شعب نشأت في صميمه عقدةُ الدونية، بسبب دفن الأصالة الثقافية المحليّة ـ يتموضع بإزاء لغة الأمة المتحضّرة، أي الثقافة (ثقافة بلد المستعمِر). فالمستعمَر سيكون منفلتاً من دغله على قدر ما يعتنق قيم المتروبول الثقافية. وسيكون أبيضَ على قدر ما يرفض سواده، دغله. في الجيش الكولونيالي،

---

(1) Charmes, La Pythie.

(2) Le langage et l'agressivité.

وبالأخص في ألوية القنّاصة السنغاليّين، كان الضبّاط المحليون مترجمين، في المقام الأول. فهم يقومون بنقل أوامر السيد إلى أبناء جلدتهم، ويتمتّعون هم أيضاً ببعض التكريم.

هناك المدينة، وهناك الريف. هناك العاصمة، وهناك المناطق. ظاهرياً، المسألة هي نفسها. لنأخذْ شخصاً من ليون في باريس؛ سوف يتباهى بهدوء مدينته، بالجمال المثير لضفاف الرون، بروعة أشجار الدُّلب، وبأشياء أخرى يتغنى بها الناسُ الذين ليس لديهم ما يقومون به. ولو التقيتموه لدى عودته من باريس، وبالأخص إذا كنتم لا تعرفون العاصمة، عندها لن يتوانى عن سبغ المدائح: باريس ـ مدينة ـ النُّور، السين، الحانات الشعبية، تعرف على باريس قبل أن تموت...

يتكرّر المسارُ في حالة المارتينيكي. باديء الأمر في جزيرته: باس ـ بوانت (Basse-Pointe)، ماريغو (Marigot)، غرومورن (Gros-Morne)، وفي المواجهة، فور دفرانس (Fort-de-France) المذهل. ومن ثُمّ، خارج جزيرته، وهذا هو الأمر الأهم. فالأسود الذي يعرف المتروبول هو نصف إلَه. أروي حول هذا الموضوع حادثة أدهشت مواطنيّ. بعد إقامة طويلة نسبياً في المتروبول، يعود الكثيرون من الأنتيليين منها سعياً وراء سِوقة لأنفسهم. يتبنّى المواطن المحليّ، «البيتاكو»، ذاك الذي لا يعرف شيئاً من الدنيا، أبلغَ أشكال الازدواج في التعاطي معهم. فالأسود الذي عاشَ بعض الوقت في فرنسا، يعود منها وهو متحوّل جذرياً. ولكي نعبّر عن فكرتنا، بمصطلحات من علم الوراثة، نقول إنّ نمطه المظهري يتعرّض لتحول نهائي، مطلق[1]. فقبل سفره حتى، نشعر من خلال مشيته شبه اللطيفة، أنّ

(1) نرمي من وراء ذلك إلى القول إن السُّود الذين يعودون إلى ذويهم، يعطون الانطباع بأنهم أكملوا دورةً، وأضافوا إلى ذاتهم شيئاً كان ينقصهم. حرفياً، يعودون مُفعمين بذواتهم.

قوى جديدة قد انفلتت من عقالها. وعندما يلتقي صديقاً أو رفيقاً، لا يعود يُعرب عن نفسه بالحركة العضدية، الذراعية الواسعة: «عتيدنا» ينحني باحتشام. فالصوتُ، الأبحُّ عادةً، يتناهى إلى أسماعنا حركة داخلية تنسجها أصوات مخنوقة. لأنَّ الأسود يُدرك أن هناك، في فرنسا، تسود فكرةٌ عنه ستُمسِك به في الهافر أو في مرسيليا: «أنا مارتينيكي، إنها المرة الأولى التي أزور فيها فرنسا»(*): وهو يعلم أنَّ ما يسمّيه الشعراء «هديلاً إلهياً» (نقصِد الكريول(**))، ليس سوى لسان وَسيط بين الفرنسية الرديئة في المستعمرات والفرنسية الحقة. إن البورجوازية في الأنتيل لا تستعمل الكريول إلّا في علاقاتها مع الخدم. أما في المدرسة، فيتعلّم الفتى المارتينيكي كيف يحتقر العاميَّة. يُحكى عن نزعة كريولية. وتمنع بعض العائلات استعمال الكريول، وتنعت الأمهاتُ أولادهنّ بأنهم أولاد أزقّة «tibandes» عندما يستعملونها.

«أمّي ترغبُ في ولد مثاليّ
فإذا لم تعرف درسك في التاريخ
لن تذهب إلى حفلة الأحد مع
ملابس الأحد.
هذا الولد سيكون عاراً على اسمنا
هذا الولد سيكون «بالله عليك»
إخرس لقد قلت إن عليك أن تتكلم
الفرنسية

(*) «Je suis Matiniquais, c'est la première fois que je viens en Fance».
(**) الكريول (Créole): لغة المستعمرات، لغة مزيج.

فرنسية فرنسا
فرنسية الفرنسي
الفرنسية الفرنسية»[1]

أجل، لا بد لي من مراقبة فصاحتي، لأنه سيحكم عليَّ من خلالها تقريباً... سيقال عني، بازدراءٍ شديد: لا يعرف حتى أن يتكلم الفرنسية.

في أي مجموعة شبّان أنتيليين، ان الذي يحسن التعبير بالفرنسية، ويمتلك ناصية اللغة، يخشونه للغاية؛ يجب الحذر منه، فهو شبه أبيض. في فرنسا، يُقال: يحكي مثل كتاب. في المارتينيك: يحكي مثل أبيض.

حين يدخل الأسود إلى فرنسا، سيردُّ على أسطورة المارتينيكي الذي يأكل حرف الـ R. سيستدرك ذلك، وسيدخل حقاً في صراع مع نفسه. سينكبُّ ليس فقط على لدغ حروف الـ R. بل على غنها. فهو حين يتأثر بأقل ردود فعل عند الآخرين، وهو يسمع نفسه يحكي، محاذراً لسانه، العضو الكسول، الكسول بكل أسف، سوف ينحبس في غرفته ويقرأ ساعاتٍ وساعات ـ محاولاً اللفظ مثلهم.

مؤخراً، كان رفيق يروي لنا هذه الخبْرية. حين وصل مارتينيكي إلى الهافر، دخل إلى مقهى. وصاح بثقةٍ تامة: «Garrrçon! Un vé de biè». هناك نشهد تسمّماً حقيقياً. فهو مهووس بعدم التماهي مع صورة الزنجي ـ آكل حروف الـ R، فتزود منها بالزاد الوفير، لكنّه لم يعرف كيف يوزع مجهودَه.

هناك ظاهرة نفسية قوامها الاعتقاد بانفتاح على العالم على قدْر تحطّم الحدود. فالأسود، السجين في جزيرته، الضائع في جوّ بلا

---

(1) Léon-G. Damas, *Hoquet* (Pigments).

أدنى منفذ، يشعر بأن نداء أوروبا هذا هو بمثابة متنفس له. لأن سيزير ـ ينبغي قول ذلك ـ كان شهماً في كتابه: دفتر عودة إلى مسقط الرأس. كانت هذه المدينة، فور دفرانس، مسطحة، محبطة حقاً. هناك، معرضة لهذه الشمس، «هذه المدينة المسطحة، الممتدة، المترنحة بحسها العفوي، الجامدة، اللاهثة تحت وزرها الهندسي على شكل صلبان مكرّرة دائماً وأبداً، عاصية على قدرها، بكماء، تقف في وجهها العوائق في كل نوع، عاجزة عن النمو متغذية من نسغ هذه الأرض، مربكة منقوصة القدرة والمجال منقطعة عن الحيوان والنبات»(1).

ليس شاعرياً أبداً الوصف الذي يقدّمه سيزير عنها. وحينذاك نفهم أنّ الأسود، لدى إعلان دخوله إلى فرنسا (مثلما يُقال عن فلان إنه «جاء إلى العالم») إنما يصمّم ويقرّر أن يتغيّر. على كل حال، ليس هناك عملية تحديد لمواضيع، إذ إنّه يغيّر بنيته، بمعزل عن كل سيرورة فكرية. يوجد في الولايات المتحدة مركز يديره پيرس وويليمسون؛ إنه مركز پكام (Peckam). بيّن الكتّاب أنه يوجد لدى الناس المتزوجين تعديل بيو ـ كيميائي، ويبدو أنهم لحظوا وجود بعض الهرمونات لدى زوج امرأة حامل. قد يكون مفيداً أيضاً، وهناك إمكان للقيام بذلك البحث عن تغيرات الأمزجة لدى السُّود عند وصولهم إلى فرنسا. أو بكل بساطة، الدراسة عن طريق الروائز (الاختبارات) للتعديلات الطارئة على نفسيتهم قبل سفرهم، وبعد شهر من إقامتهم في فرنسا.

هناك مأساة في ما أتّفق على تسميته علوم الإنسان. هل ينبغي أن نطرح كمسلمة حقيقة إنسانية نمطية وأن نصف كيفيّاتها النفسانية، غير

(1) P. 30.

آخذين في الاعتبار سوى النواقص، أم أنه لا ينبغي أن نحاول، بلا هوادة، فهم الإنسان فهماً ملموساً وجديداً دائماً؟

عندما نقرأ أن الإنسان اعتباراً من التاسعة والعشرين سنة لا يعود قادراً على الحبّ، وأن عليه أن ينتظر سن التاسعة والأربعين حتى تظهر عاطفيّته مجدَّداً، نشعر بأن الأرض تميد تحتنا. ولن نخرج من هذه الدّوامة إلّا بالشرط الصريح وهو أنْ نثير المسألة إثارة حقيقية، لأن كل هذه الاكتشافات، كل هذه الأبحاث لا تستهدف سوى أمرٍ واحد: جعل الإنسان يتقبّل أنّه لا شيء، إطلاقاً لا شيء ـ وأن عليه التخلص من هذه النرجسية التي تجعله يتخيّل أنّه مختلف عن «الحيوانات» الأخرى.

إن وراء ذلك استسلاماً للإنسان، لا أكثر ولا أقل.

آخذاً كل شيء بعين الاعتبار، أتمسّك بنرجسيتي ملء الاثنين وأرفض إهانةَ هؤلاء الذين يريدون أن يجعلوا الإنسان آلة (ميكانيك). فإذا كان السجال لا يمكن استهلاله على الصعيد الفلسفي، أي صعيد المطلب الأساسي للحقيقة الإنسانية، فإني أوافق على البدء به على صعيد التحليل النفسي، أي على صعيد «المختلّين»، بمعنى قولهم إن محرّكاً يشكو من خلل.

فالأسود الذي يدخل إلى فرنسا يتغيّر، لأن المتروبول يمثّل بنظره المستقر والملاذ؛ إنه يتغيّر ليس فقط لأنَّ من هذه الأرض جاء مونتسكيو، روسو وڤولتير، بل لأن من هناك جاء الأطباء ورؤساء الخدمة، وأيضاً صغار المتسلّطين الذين لا يُحصون ـ من العريف الأول «15 سنة خدمة» إلى الدركي المتحدّر من پانيسيير. هناك نوع من العدوى عن بعد، فذلك الذي يسافر لمدة أسبوع في اتجاه المتروبول يخلق حوله دائرة سحرية حيث تمثّل الكلماتُ: باريس،

مارسيليا، لاسوربون، بيغال، مفاتيح العقد. يرحل يزول فقدان كينونته، على قدر ما تتوضّح له ملامح صورة الباخرة. إنه يقرأ قوته، تحوّله المفاجىء، في عيون أولئك الذين يرافقونه. «وداعاً المدارس وداعاً المنديل....».

والآن بعدما قُدناه إلى المرفأ، لنتركه يندفع، فلسوف نجده مجدّداً. حالاً، فلنمضِ إلى لقاء واحدٍ ممن عادوا. «العائد» يؤكّد نفسه، منذ اتصاله الأوّل؛ فهو لا يردُّ إلّا بالفرنسية وغالباً لا يعود يفهم لغته الكريول. حول هذا الموضوع، يقدم لنا الفولكلور أمثلة. بعد عدّة أشهر في فرنسا، عاد فلاح إلى أهله. وعندما رأى آلة حراثية، سأل أباه، وهو مزارع عتيق لا يفوته شيء: «كيف تُسمّى هذه الأداة؟»، وكان ردّ أبيه الوحيد أنْ رماها، وعندما زال فقدان الذاكرة. إنه علاج فريد من نوعه.

هاكم إذن عائداً من السفر. لم يعد يسمع العامية، وهو يتحدّث عن الأوبرا، التي ربما لم يرّها إلّا من بعيد؛ لكنّه يعتمد بنوع خاص موقفاً ناقداً تجاه مواطنيه. فلدى حدوث أقل حدث، يتصرّف تصرفاً مُغايراً. فهو الذي يعرف. إنّه يكشف عن نفسه بلغته. ويكون المشهد ذا دلالة في محلة السافانا، حيث يجتمع شبّانُ فور دفرانس: على الفور يُعطى الكلام للعائد. ـ منذ الخروج من الليسيه والمدارس، يجتمعون في السافانا. يبدو أن هناك شعراً خاصاً بهذه السافانا. تصوّروا مجالاً من متي متر طولاً، على عرض أربعين متراً، تُحيط به أشجار التّمر الهندي المنخورة، وتعلوه نُصب الموتى التذكارية، الوطن المعترف بجميل أبنائه، وفي الأسفل السنترال ـ أوتيل؛ مجال مُعبّد ببلاطاتٍ متنافرة، بحصىً تفركُ تحت الأقدام، وفيه ينحبسُ، صعوداً وهبوطاً، ثلاث أو أربع مئة شاب، جالسين جنباً إلى جنب، يتجامعون، لا إنهم يودّعون بعضهم بعضاً.

ـ كيف الحال؟

ـ عال. وأنت؟

ـ عال.

وتجري الأمورُ هكذا منذ 50 سنة. نعم، هذه المدينة محبطة بصورة مزرية. وكذلك هذه الحياة.

إنهم يتلاقون ويتحدّثون. ولئن كان العائدُ يحصل على الكلام سريعاً، فذلك لأنهم ينتظرونه. أولاً من حيث الشكل: يجري التقاط أقل غلطة، تجريدها وإبرازها، وتنتشر في أقل من 48 ساعة بكل أرجاء فور دفرانس. لا يُغفر لذلك الذي يُعلن تفرّقاً إذا أخلَّ بالواجب. كأنْ يقول مثلاً: «لم يُتح لي أن أرى في فرنسا خيّالةً»، فقوله هذا سيكون سبباً لضياعه. فلا يبقى أمامه سوى بديل واحد: التخلّص من باريسيّته أو الموت فوق عمود التشهير. لأن شيئاً لن ينسى أبداً؛ فإذا كان متزوجاً، ستعلم امرأته أنها تقترن بحكاية، وسيكون على أولاده أن يجابهوا نكتةً وأن يتغلّبوا عليها.

من أين يأتي هذا التغيّر في الشخصيّة؟ من أين يأتي هذا النمط الوجودي الجديد؟ كان دامريت وپيشون يقولان إن كل اصطلاح تعبيري هو طريقة في التفكير. وواقع أن يعتمد الأسود العائد حديثاً لغة مختلفة، عن لغة الجماعة التي شهدت ولادته، يظهر اختلالاً وتفاوتاً. كتب البروفسور وسترمان في كتابه «الأفريقي اليوم» *(The African to-day)*، أن هناك شعوراً بالدونية لدى السود، يشعر به المتطورون بنحو خاص، ويعملون باستمرار للسيطرة عليه. ويضيف: إن الطريقة المستعملة لهذه الغاية هي ساذجة غالباً: «ارتداء ملابس أوروبية أو أسمال من آخر موضة، وتبني أشياء يستعملها الأوروبي، كأشكال تحضّره الخارجية، وإغناء اللغة المحلية بعبارات أوروبية،

واستعمال جُمَل متكلفة لدى التحدّث أو الكتابة بلسان أوروبي، ويجري العمل بذلك كله في محاولةٍ للتوصّل إلى شعور بالمساواة مع الأوروبي ونمط حياته».

بالاستناد إلى أعمال أخرى وإلى مشاهداتنا الشخصيّة، نريد أنْ نبيّن لماذا يتموضع الأسود، بطريقة مميّزة، في مواجهة اللغة الاوروبية. فنذكّر مجدَّداً بان الخلاصات التي سنؤول إليها صالحة بالنسبة إلى جزر الأنتيل الفرنسية؛ غير أننا لا نجهل أنّ هذه السلوكات ذاتها موجودة داخل كل عرق كان قد جرى استعمارُه.

لقد عرفنا، وللأسف ما زلنا نعرف، رفاقاً متحدّرين من الداهومي أو الكونغو يقولون إنهم من الأنتيل، كما عرفنا وما زلنا نعرف أنتيليّين يخجلون عندما يُشبه بأنهم سنغاليّون. ذلك لأنّ الأنتيلي أكثر تطوراً، من الأسود الأفريقي: بمعنى أنه أقرب من الأبيض؛ وهذا الاختلاف موجود ليس في الشارع والجادات وحسب، بل أيضاً في الإدارات، وفي الجيش. فكل أنتيلي قام بخدمته العسكرية في فرقة قنّاصة يشهد هذا الوضع المقلق: من جهة، الأوروبيون، سواء من المستعمرات القديمة أم الأصيلون، ومن جهة ثانية، القنّاصة. يذكرنا بذات يوم، حيث طرح، في خضم عملية قتالية، مسألة تدمير مربض أسلحة رشاشة. على مدى ثلاث مرات قام السنغاليون لهذه المهمة، وجرى استبعادهم في المرّات الثلاث. عندها سأل أحدهم: لماذا لم يكن يرسل (Toubabs)، أي البيض، بدلاً منهم؟ في تلك اللحظات يصل المرء إلى عدم معرفة نفسه، أهو تُوباب أم من السكان المحليين؟ مع ذلك، لا يشعر الكثيرون من الأنتيليين بأن هذا الوضع مقلق، بل على العكس يشعرون بأنه طبيعي تماماً. ربما لا ينقصنا سوى هذا، تشبيهنا

بالزنوج! الأوروبيون الأصليون يحتقرون القنّاصة، والأنتيلي يهيمنُ على كل هذه الزنوجة هيمنة كاملة. ومن جهة ثانية، أذكر حادثة مضحكة، على الأقل، في نهايتها القصوى: مؤخراً، تحادثت مع مارتينيكي أخبرني، وهو مُغْضَب، أنَّ بعض الغوادولوبيين كانوا يعتبرون أنفسهم منّا. لكنّه أضاف سرعان ما تبيّن الضلال، إذ هم أشدُّ توحّشاً منا؛ معنى ذلك: أنهم أشدّ بعداً من الأبيض. يُقال إن الأسود يحبُّ المماحكات؛ وعندما ألفظ، من جهتي، كلمة مماحكات (Palabres)، أرى مجموعة أولاد مبتهجين وهم يوجّهون إلى العالم نداءات مبهمة، أصواتاً جشّة؛ أولاداً يسرحون ويمرحون، على قدر ما يمكن اعتبار اللعب تدريباً على الحياة. الأسود يحب المماحكات، المناقشات المملّة، وليس طويلاً الدّرب الذي يقود إلى هذه العبارة الجديدة: ليس الأسود سوى طفل. هنا، تحلو لعبةُ المحلّلين النفسانيّين، وسرعان ما يطلق لفظ المشافهة (Oralité).

لكن علينا أن نمضي قدماً؛ فالمسألة اللغوية مهمّة جداً حتى نأمل، أن نطرحها، هنا، طرحاً كاملاً. فقد علمتنا دراساتُ بياجيه المرموقة، أنْ نميّز مراحل في ظهورها؛ كما بيّنت لنا دراساتُ جلب وغولدشتاين أن وظيفة اللغة متوزعة في أقسام، في درجات. ما يهمّنا هنا هو الإنسان الأسود في مواجهة اللسان الفرنسي. فنحن نودّ أن نفهم لماذا يحبُّ الأنتيلي أن يجيد الفرنسية.

يقول جان بول سارتر في تقديمه لديوان الشعر الزنجي والمالغاشي، إن الشاعر الأسود سينقلب على اللغة الفرنسية؛ لكنّ هذا لا يصحّ على الشعراء الأنتيليين. ونحن في هذا الأمر، من رأي السيد ميشيل ليريس الذي كان يمكنه، قبل زمن قصير، أن يكتب عن لغة الكريول:

«لا تزال لغة الكريول لغة شعبية حالياً، يعرفها الجميعُ نسبياً؛ لكن لا يتكلمها سوى الأميين وحدهم الذين يستبعدون الفرنسية. من الآن فصاعداً، تبدو الكريول واعدةً بالانتقال، عاجلاً أو آجلاً، إلى مصاف الآثار عندما سينتشر التعليم (مهما كان تقدّمه بطيئاً، مُعاقاً بالعدد الضئيل في كل مكان للمنشآت المدرسية وبالنقص في مادة القراءة العامة، وبمستوى الحياة المادية المنخفض غالباً) انتشاراً عاماً كافياً في أوساط الفئات المحرومة من السكان». ـ ويضيف الكاتب، «بالنسبة إلى الشعراء الذين أتحدّث عنهم هنا، ليس المقصود أبداً أن يتحوّلوا أنفسهم "أنتيليين" ـ على صعيد غرابة الشعر العامي الفرنسي ـ باستعمال لغة مُستعارة، وفوق ذلك، مُفتَقِدة إلى الإشعاع الخارجي، مهما تعاظمت مزاياها الذاتية، الداخلية، بل المقصود أن يؤكدوا وحدة شخصيتهم في مواجهة بيضٍ محشوّين بأسوأ الأحكام العرقية المسبقة، والذين يتوضّح أكثر فأكثر أنَّ عجرفتهم بلا مسوِّغ»[1].

لئن كان هناك جيلبر غراتيان واحد، لكي يكتب بالعامية (Patois)، يتوجّب الاعتراف بأن الأمر نادر. فنلضفتْ إلى ذلك أنّ القيمة الشاعرية لهذه الإبداعات موضع شك كبير. وبالعكس، هناك أعمال حقيقية مترجمة عن الأولوف (Ouolof) أو الفلانية (Peuhl)، ونحن نتابع باهتمام كبير الدراسات اللسانيّة للشيخ أنتا ديوب.

ليس هناك شيء مماثل في الأنتيل. فاللغة المحكية رسمياً هي الفرنسية؛ ويحرص المعلّمون حرصاً شديداً على عدم استعمال الأطفال للكريول. ونحن نسدل ستار الصمت على الأسباب

---

(1) *Temps Modernes*, février 1950, «Martinique - Guadeloupe - Haïti», p. I. 347.

المذكورة. إذن، يمكن للمسألة أن تكون ظاهرياً ما يلي: في الأنتيل، كما في البريتاني، هناك لغة محلية وهناك اللسان الفرنسي. لكنّ هذا خطأ، لأن البريتانيين (الفرنسيين) لا يرون أنهم أدنى من الفرنسيين. فالبريتانيّون لم يتحضّروا على أيدي الأبيض.

إننا نأبى تعداد العناصر، خشية عدم التمكّن من حصر البؤرة؛ والحال، من المهم القول للأسود إن الموقف القطعي لم ينقذ أحداً، أبداً؛ وإذا كان صحيحاً أنَّ عليَّ التحرّر من ذلك الذي يخنقني، لأني لا أستطيع التنفّس حقاً، فمن المتَّفق عليه أنه على الصعيد الفيزيولوجي: يغدو من المؤذي أن تُلقّح الصعوبة الآلية للتنفّس بعنصرٍ بسيكولوجي: استحالة التوسع أو التفتح.

ما معنى هذا؟ هذا يعني بكل بساطة: عندما يصرّح أنتيلي، مجاز في الفلسفة، أنه لم يتقدم إلى شهادة التبريز، متذرّعاً بلونه، فإني أقول إن الفلسفة لم تنقذ أبداً أحداً. وعندما يتحمّس شخص آخر لكي يبرهن لي على أن السُّود أذكياء مثل البيض، فإني أقول: والذّكاء أيضاً لم ينقذ أبداً، وهذا صحيح، إذ لئن كانت تعلن مساواة الناس باسم الذكاء، والفلسفة، فباسمها أيضاً تعلن إبادتهم.

قبل أن نكمل، يبدو لنا من الضروري قول بعض الأمور. فأنا أتكلم هنا، من جهة، على سُود مستلبين (مُضَلَّلين) ومن جهة ثانية، على بيض لا يقلّون عنهم استلاباً (فهم مضلِّلون وضالّون). ولئن وجد سارتر واحداً أو ڤردييه (Verdier)، الكاردينال، كي يُقال إن فضيحة المسألة السوداء لم تَدُمْ إلّا طويلاً، طويلاً، فإننا لا نستطيع سوى القول بسويَّة موقفهم. ونحن أيضاً قادرون على الإكثار من المصادر

والشواهد، وعلى التبيان بالفعل أن «الحكم المسبق على اللون» هذه حماقة، إهانة ينبغي إبادتها.

هكذا يستهلُّ سارتر كتابه (Orphée noir): «ماذا كنتم تأملون إذاً عندما انتزعتم الكُمامة التي كانت تسدُّ هذه الأفواه السُّود؟ أن تنشد قصائد المديح بكم؟ هذه الرؤوس التي أحناها آباؤها بالقوة حتى الأرض، هل كنتم تظنون أنكم ستقرأون الإعجاب في عيونها، عندما سترتفع مجدّداً؟»[1]. لا أدري، لكني أقول إن ذلك الذي سيبحث في عينيَّ عن شيء آخر سوى التساؤل الأبدي، قد يكون ضالاً؛ فلا عرفان وكره. وإن أطلقت صرخة كبرى، فلن تكون البتّة صرخة زنجية. كلا، ففي المنظار المُعتمد هنا، لا توجد مسألة سود. أو على الأقل، إذا كان هناك مسألة، فلن يهتمَّ البيض بها إلّا مصادفةً. إنه تاريخ يجري في الظلام، ولا بد للشمس التي أنتجعُها من أن تضيء أدنى الخبايا.

الدكتور هـ. ل. غوردون، الطبيب في مشفى ماتاري للأمراض النفسية في نيروبي، كتب مقالاً في الـ (Presse Médicale) للشرق الأفريقي: «تُقدِّم المراقبة الدقيقةُ جداً لمئة دماغ لمواطنين أصليين طبيعيين، للعين المجرَّدة، غياب أدمغة جديدة، مميَّزة، كما نعلم، بخلايا في مرحلة تطورها الأخيرة، ويضيف: تمثّل هذه الدونية كمياً 14,8%» (ورد عند سير آلان بورنز)[2].

قيل إن الزنجي كان يصلُ القردَ بالإنسان، الإنسان الأبيض بالطبع؛ ولا يستنتج السير آلان بورنز إلّا في الصفحة 120: «إذاً، لا نستطيع

---

(1) J. - P. Sartre, *Préface à L'anthologie de la poésie nègre et malgache.*

(2) Sir Alan Burns, *Le préjugé de race et de couleur*, p. 112.

أن نعتبر أنها ثابتة علمياً النظرية القائلة إن الإنسان الأسود قد يكون أدنى من الإنسان الأبيض أو أنه آتٍ من آرومة مختلفة». نضيف: قد يكون سهلاً علينا أن نبرهن على استحالة مقترحات مثل: «مع الكتابة، سيمتدُّ فصل الأعراق البيضاء والسوداء، في السماء كما على الأرض، وسوف يجد السكان المحليون اللذين سيُستقبلون في ملكوت السماء، أنفسهم مُنقادين، بشكل منفصل، إلى بعض من منازل الأب هذه، التي يذكرها العهدُ الجديد». أو أيضاً: «نحن الشعب المختار، أنظرْ إلى لون جلودنا، هناك آخرون جلودهم سود أو صُفر، بسبب خطاياهم».

نعم، كما نرى الأمر، ونحن ندعو إلى الإنسانية، إلى الشعور بالكرامة، إلى المحبة، إلى الإحسان، لن يكون من السهل علينا أن نبيّن أو أن نبرهن على أن الأسود مساوٍ للأبيض. لكنَّ هدفنا مختلف تماماً: فما نريده هو أن نساعد الأسود على التحرّر من الترسانة العِقَدية التي نمت في قلب الوضع الكولونيالي. السيد آخيل (Achille)، الأستاذ في ليسيه البارك في ليون، ذكر في إحدى محاضراته مغامرةً شخصيّة. هذه المغامرة مشهورة عالمياً. إذ يندر أنْ يكون هناك سودٌ مقيمون في فرنسا، ولم يعيشوها. بما أنّه كاثوليكي، قام بحجّة طلابيّة. لاحظ أحد الرهبان وجود هذا البرونزي في طابوره، فقال له: «أنتَ يا من غادرت السافانا الكبرى، لماذا جئت معنا؟»(*) ردَّ المُنادى عليه بلياقةٍ شديدة، ومن انزعج من القصة لم يكن الشاب الآتي من السافانا. ضحكوا من هذا اللبْس وتابع الحجُّ

(*) «Toi quitté grande Savance pourquoi et venir avec nous?» غير موجودة على الأصل.

مسيرته. لكننا لو توقّفنا عنده لرأينا أن كون الراهب تحدث بلغة فرنسية رديئة، يستدعي عدّة ملاحظات:

1. «السُّود، أنا أعرفهم؛ يجب أن يُخاطبوا بدماثة، وأنْ يُحكى لهم عن بلدهم؛ فالمسألة هي أن تُجيد التحدّث إليهم. أنظروا بالأحرى...». نحن لا نُبالغ: ذاك أنّ أبيضَ يُخاطبُ زنجيّاً، إنما يتصرَّفُ تماماً مثلما يتصرَّف راشدٌ مع ولد، وعندها تسير الأمور بالغنج والهمس والملاطفة والمداعبة. هذا الذي شاهدناه ليس أبيض بل مئات من البِيْض؛ ومشاهداتنا لم تتناول هذه الفئة أو تلك، بل تدور حولَ تقويمٍ موقفَ موضوعي أساساً، إذْ رغبنا أن ندرس هذه الظاهرة لدى الأطبّاء وعملاء الشرطة والمقاولين في الورش. وقد يُقال لنا، مُتناسين بذلك هدفنا، إنَّ في إمكاننا أنْ نصبَّ اهتمامنا على مجالٍ آخر، وإن هناك بِيْضاً لا يدخلون في نطاق توصيفنا.

على هؤلاء المعترضين سنردُّ بأننا نرسم هنا مسار المضلَّلين والمضلِّلين، المُسْتَلبين، وأنّه إذا وُجِد بِيْضٌ يتصرَّفون تصرّفاً سليماً إزاءَ رجل أسود، فإن هذه الحالة بالذات هي التي لا ينبغي علينا التوقّف عندها. ليس لأن كبدَ مريضي تعملُ بشكل جيد، سوف أقول: الكليتان سليمتان، بما أنَّ الكبدَ سليمة، فسوف أتركها على سويَّتها، لأنها طبيعية، وسوف أنكبُّ على الكليتين؛ بالمناسبة، الكليتان هما المريضتان، الأمر الذي يعني أنَّ إلى جانب الناس الطبيعيين الذين يتصرّفون بشكل سليم وفقاً لسيكولوجيا إنسانية، هناك أناس يتصرّفون تصرّفاً مَرَضيّاً وفقاً لسيكولوجيا غير إنسانية. ويحدث أنَّ وجود هذا النوع من البشر قد حدَّد عدداً معيّناً من الوقائع التي نريد الإسهام هنا في تصفيتها.

إن التحدُّث مع الزنوج على هذا النحو، يعني اللهاب إليهم، يعني جعلهم مرتاحين، والرغبة في تفهّمهم، وفي طمأنتهم...

هذا الأمر يعرفه أطباءُ قاعات الاستشارات. لقد تعاقب عشرون مريضاً أوروبيّاً: «اجلسوا، سيدي... لماذا جئتم؟... ممّ تشكون؟...» ـ ثم يصل زنجي أو عربي: «اجلس، يا شاطر... ما بكَ؟ أين الألم؟» ـ عندما لا يُقال: «ماذا أنتَ أصابك؟...»[ø].

2. مخاطبة زنجي بلغة فرنسية رديئة، يُهينه، لأنّه هو الذي يتحدَّث بلغة رديئة. مع ذلك، سيُقال لنا ليس هناك نيّة، تصميم على الإهانة. نسلّم بذلك؛ لكن، بالضبط، هذا الانعدام للتصميم، هذا الجذر، هذه اللامبالاة، هذه السهولة في تثبيته وتحديده، في حبسه وتوحيشه، في تصويره من خارج الحضارة، هي المغيظة.

لو كان ذلك الذي يخاطب إنساناً ملوّناً أو عربياً بلغة رديئة، لا يرى في هذا السلوك عيباً، إثماً، فذلك لأنّه يخاطبه بروية.

شخصيّاً، يحدثُ لنا، ونحن نسأل بعض المرضى، أنْ نشعر في أي لحظة نتزلق...

أمام هذه الفلاّحة العجوز البالغة 73 سنة، المريضة ذهنياً، المصابة بعته كامل، أشعر فجأةً بانهيار الهوائيات (الأنتينات) التي ألتقط بها وأُلتقط. بالنسبة إلي، إن مجرد اعتمادي لغة مناسبة للعته، للهذيان العقلي؛ و«تكبابي» على هذه العجوز المسكينة ذات السنوات الثلاث والسبعين؛ ومجرد أنْ أمضي إليها، بحثاً عن تشخيص، وهي علامة تراجع في علاقاتي الإنسانيّة.

(ø) «Quoi toi yen a» وهنا يلفت الكاتب إلى اللغة الفرنسية الرديئة المستعملة فضلاً عن صيغة المخاطبة التي تخلو من الاحترام.

سيُقال: هذا رجل مثاليّ... لكنْ لا، الآخرون هم قذرون. من جهتي، أخاطبُ دائماً الناس البسطاء بفرنسيّة سليمة، وكنتُ دائماً مفهوماً منهم. فهم يجيبونني حسبما يستطيعون؛ لكني أرفض كل فهم أبويّ.

– بونجور مونزامي(*)! أين الوجع؟ هيه! قل لي؟ البطن؟ القلب(*)؟

... باللهجة الوضعية التي يتقنها جيّداً العاملون في قاعات الاستشارات.

نكون في راحة ضمير عندما يأتي الجوابُ على المنوال نفسه. «أرأيتم، ليست نكتاً مختلقة. إنهم هكذا».

في الحالة المعاكسة، ينبغي استنهاض عزائمنا، والتصرف كإنسان. فينهار المبنى كلّه. أسود يقول لكم: «سيّدي أنا لست أبداً إنسانكم الطيّب...»، إنما يقول جديداً في العالم.

لكن يجب المضي إلى القاع. أنت في مقهى، في روّان أوستراسبورغ؛ يلمحكم لسوء الحظ، عجوزٌ ثمِل. يجلس إلى طاولتك بسرعة: «أنتَ أفريقي؟ داكار، روفيسك، مواخير، نساء، مقهى، مانغا، موز...». تنهض وترحل؛ فيجري وداعك بسيل من الشتائم: «زنجي قذر، أنت غير مهمّ إلى هذا الحد في دغلِكَ!».

لقد وصف السيد مانّوني ما يسمّيه عقدة بروسبيرو. سنعود إلى

(*) Bonjour man zami! Où ya mal? Hé? Dis voir un peu? le ventre? le cœur?.

نورد هذه الصيغة كما هي بفرنسية رديئة لأنها غير معكوسة في الترجمة العربية.

اكتشافاته، التي ستسمح لنا بفهم بسيكولوجيا الكولونيالية. لكنّنا نستطيع القول منذ الآن:

التحدُّث بلغة فرنسية رديئة، يعني التعبير عن هذه الفكرة: «أنتَ، إبقَ حيثُ أنتَ».

إلتقيت ألمانياً أو روسيّاً لا يُحسن التحدّث بالفرنسيّة. بإشاراتٍ وحركات، حاولت تزويده بالمعلومة التي يطلبها، لكني لم أنسَ، وأنا أفعلُ ذلك، أنَّ له لساناً خاصاً به، وبلداً، وأنَّه ربما كان محامياً أو مهندساً في ثقافته. وفي كل حال، هو أجنبي، غريب عن جماعتي، ويُفترض بمعايير سلوكه أنْ تكونَ مختلفة.

لا شيء كهذا، في حالة الأسود. فهو ليست لهُ ثقافة ولا حضارة، ولا هذا «الماضي التاريخي الطويل».

ربما نكتشفُ هنا أصل جهود السُود المعاصرين: البرهان للعالم الأبيض على وجود حضارة زنجيّة، مهما كلّف الأمر.

فعلى الزنجيّ، شاءَ ذلك أم أبى، أن يؤدي دور الخدم الذي حدده له. أنظروا الرسوم الموضوعة للأطفال، على فم كل الزنوج عبارة «نعم سيّدي: Oui Missié» الطقسيّة. في السينما، التاريخ أكثر غرابة. فمعظم الأفلام الأميركية المُدبلجة في فرنسا، تُعاود إنتاج الزنوج النمطيين: «Y a bon banania». في أحد هذه الأفلام الحديثة، قروش من فولاذ، نرى زنجيّاً، مبحراً في غوّاصة، متحدِّثاً بلهجة كلاسيكية جداً. مع ذلك، كان زنجيّاً حقاً، يسير في الخلف، يرتعب من الخوف لدى أدنى حركة غضب يبديها السيّد القائد! وفي النهاية يُقتل في المغامرة. مع ذلك أنا مقتنع أنَّ النسخة الأصلية لم تكنْ تنطوي على هذه الطريقة التعبيريّة. وحتى إذا وُجدت، فإني لا أرى لماذا تجري في فرنسا الديموقراطية، حيث 60 مليوناً من المواطنين

ملوّنون، دبلجةُ حتى حماقات ما وراء الأطلسي. ذاك لأنَّ على الزنجي أنْ يظهرَ بطريقةٍ معينة، ومنذ شخصية الأسود في فيلم بلا شفقة - «أنا عامل جيّد، لا أكذب أبداً، لا أسرقُ أبداً» - حتى شخصية حاس في فيلم مبارزة تحت الشمس، نجد هذه النمطية المُقَولبة.

نعم، يُطلب من الأسود أن يكون زنجياً طيباً؛ ويعد هذا الطرح، تأتي البقية لوحدها. فجعله يتكلم بلغة رديئة، يعني ربطه بصورته، طليه بدبغه، حبسه، كضحية أبدية لجوهر، لظهور لم يكنْ مسؤولاً عنه. وبالطبع، كما أن يهودياً ينفق المال بلا حساب يكون مشبوهاً. فإنَّ الأسود الذي يذكره مونتسكيو، يجب أن يُراقب. أرجو أنْ يُفهم قولنا: مُراقب، بمقدار ما يبدأ معه شيء ما. والحق أنّي لا أدّعي أنَّ الطالبَ الأسود يشتبه به رفاقه أو أساتذته. لكن، خارج الأوساط الجامعية، يوجد جيش من الحمقى: المهم ليس تهذيبهم وتربيتهم، بل جعل الأسود غير مُستعبد لأنماطهم البدائية.

إننا نوافق على أنَّ هؤلاء الحمقى هم نتاج بنية اقتصادية - بسيكولوجية: لكنّ هذا الأمر لا ينقلنا إلى ما هو أفضل.

فعندما يتحدَّث زنجي عن ماركس، يكون رد الفعل الأول هو التالي: «لقد ربّيناكم وها أنتم الآن تنقلبون على المحسنين إليكم. يا لكم من جاحدين! بالطبع لا يمكننا أن نتوقّع شيئاً منكم». وفوق ذلك، هناك هذه الحجة الدامغة على لسان المزارع الأبيض في أفريقيا: عدونا هو المدرّس.

إن ما نؤكّده هو أن الأوروبي لديه فكرة محدَّدة عن الأسود، وليس ثمّة ما يثير الغضب أكثر من سماعه يقول: «منذ متى أنتم في فرنسا؟ إنكم تتكلّمون الفرنسية جيّداً».

يمكنُ الرّد عليّ بأن هذا يعود إلى كون الكثيرين من السّود يعبّرون عن أنفسهم بلغة رديئة. لكنّ هذا تبسيط شديد. تكونون في القطار، فتسألون:

ـ عفواً، سيّدي، هل تتفضّلون بدلّي على العربة ـ المطعم، إذا سمحتم.

ـ نعم، مونزامي، عليك أن تسير في الممر على طول، واحد، إثنان، ثلاثة، وتصل[*].

كلا، فالتحدّث بلغة فرنسية رديئة يعني حبس الأسود، يعني إدامة وضع صراعي، حيث الأبيض، ينقلُ للأسود أجساماً غريبة سامّة جداً. فلا شيء أكثر إثارةً من أسود يعبِّر عن نفسه بشكل صحيح، لأنه يستوعب حقاً العالم الأبيض. يحدث أن نتحادث مع طلاب من أصل أجنبي. إنهم يتكلّمون الفرنسية بشكل سيِّئ: كروزو الصغير، الملقب بروسبيرو، يكون حينئذٍ على راحته. إنه يشرح، يخبر، يعلّق، يأخذ محاضراتهم. مع الأسود، يكونُ الانذهاشُ في ذروته؛ فهو قد صار يواكب العصر. معه، لم تعد اللعبة ممكنة، إنه صورة طبق الأصل للأبيض. يجب الانحناء أمامه[1].

(*) هنا أيضاً نورد الفقرة من الحوار بصيغة الفرنسية الرديئة التي لا تعكسها الترجمة العربية: Oui, mon zami, toi yen a prendre couloir, tout droit, un, deux, troix, c'est là. (الناشر).

(1) «عرفت زنوجاً في كلية الطب... بكلمة كانوا مُخجلين؛ سحنة جلدهم يُفترض بها أن تسمح لهم بأن يتيحوا لنا الفرصة لكي نكون رحيمين، حليمين أو أصدقاء علميّاً. لكنّهم خالفوا هذا الواجب، هذا المطلب الصادر عن حسن نيّتنا. فكل حناننا الدّامع، كل ترسّلنا الأريب بقي على فرعاننا. لم يكن لدينا زنوج حتى

بعد كل ما سبق قوله، ندرك أن ردّة فعل الأسود الأولى هي أنْ يقول لا لأولئك الذين يحاولون تحديده. وندرك أنَّ أول فعل للأسود يكون ردّ فعل؛ وما دام الأسود يُقيَّم بالرجوع إلى درجة تمثّله واستيعابه، فإننا نفهم أيضاً ألّا يتكلم العائدُ إلّا بالفرنسيَّة، ذاك أنه يميلُ إلى التشديد على القطيعة التي وقعت من الآن فصاعداً. إنّه يحقق نمطاً إنسانياً جديداً يفرضه على رفاقه، على أقاربه. ويحدِّث أمَّه العجوز التي لم تعد تفهم، عن قمصانه، عن الأكواخ المتناثرة، المهملة، وعن التخشية... وكل هذا مدوزن حسب النغمة المناسبة.

هناك وصوليّون في كل بلدان العالم: «أولئك الذين ما عادوا يحسّون»، وهناك في المقابل «هؤلاء الذين يحتفظون بمفهوم أصلهم». أما الأنتيلي العائد من المتربول فيتحدَّث بالعامية إذا أراد أن يدلّل على أنَّ شيئاً لم يتغيَّر. يجري الإحساس بذلك عند رصيف الميناء حيث ينتظره الأقارب والأصدقاء. ينتظرونه، لا لأنّه وصل وحسب، بل بالمعنى القائل: أنتظره عند المنعطف. تلزمهم دقيقةٌ واحدة للقيام بالتشخيص. فإذا قال العائدُ لرفاقه: «أنا سعيد جداً بأن أجد نفسي بينكم مجدَّداً. يا إلّهي كم هو الطقس حار في هذا البلد، لن أستطيع البقاء فيه طويلاً»، يكون التحذير قد ظهر: إن الذي وصل هو أوروبي.

▪ نلاطفهم، ولم يكن ثمة ما يجعلنا نكرمهم؛ وكانوا، على وجه التقريب، يزنون وزننا اللذاني بميزان الأعمال الصغيرة والزعبرات اليومية الهزيلة».
Michel Salomon, «D'un juif à des nègres», *Présence Africaine*, n° 5, p. 776.

في نسق أخص، عندما يتلاقى طلبة أنتيليّون في باريس، يكون أمامهم احتمالان:

ـ إما مساندة العالم الأبيض، أي العالم الحقيقي، وعندها تُستعمل الفرنسية، فتظلّ أمامهم بعض المسائل الواجب تصوّرها، والنزوع في استنتاجاتهم إلى درجة معينة من الشموليّة؛

ـ وإما رفض أوروبا، «Yo»[1] والانضمام عبر لغتهم العامية، مستقرين بارتياح كبير في ما سندعوه المحيط الحيوي (Umwelt) المارتينيكي؛ ونرمي من وراء ذلك إلى القول ـ وهذا موجَّه بنحو خاص إلى إخواننا الأنتيليّين ـ إنه عندما يسعى أحد من رفاقنا، في باريس أو في أي مدينة كليّات أخرى، إلى النظر بجدية في مسألة ما، يُتّهم بأنه يجعل نفسه مهمّاً، فتكون أفضل وسيلة لتجريده من سلاحه، جعله يتّجه نحو العالم الأنتيلي وهو يرفع لواء العاميّة، هنا يجب أنْ نجد أحد الأسباب التي بموجبها تنهارُ صداقاتٌ كثيرة بعد فترة من الحياة الأوروبيّة.

بما أن قصدنا هو تحرير السُّود، فإننا نريد أنْ يشعروا بأنه كلما طرأ سوء فهم فيما بينهم بمواجهة الأبيض، يكون هناك غياب للإدراك العقلي.

تعلّم رجل سنغالي العامية (الكريول) حتى يظهر في مظهر الأنتيلي: أقولُ إنّ في ذلك انسلاباً وتغريباً.

فالأنتيليّون الذين يعرفونه ضاعفوا من سخرياتهم: أقولُ إن وراء ذلك غياباً للإدراك العقلي.

---

(1) طريقة للإشارة إلى الآخرين بوصفهم نوعاً، وبالأخص للدلّ على الأوروبيين.

وكما نرى، لم نكن مخطئين حين فكّرنا أنَّ دراسة اللغة لدى الأنتيلي كان يمكنها أن تكشف لنا بعض سمات عالمه. هذا ما قلناه في البداية: هناك علاقة تساندية بين اللغة والمجتمع.

إن التكلم بلسانٍ يعني الاضطلاع بعالم وثقافة. وإنَّ الأنتيلي الذي يرغبُ في أن يكون أبيضَ، سيكون كذلك على قدر ما يتبنّى أداته الثقافية، [illegible] أذكرُ [illegible] كنت في ليون، منذ أكثر من سنة، بعد محاضرةٍ كنت قد أقمتُ فيها مقارنةً بين الشّعر الأسود والشّعر الأوروبي، أذكر هذا الرفيق المتروبولي وهو يقول لي بحرارة: «في الصميم، أنتَ أبيض». إن كوني قد درستُ بلغةِ الأبيض مسألة مهمة كهذه، إنما منحني حقَّ المواطنة.

تاريخيّاً، ينبغي أن نفهم أنَّ الأسود يرغب في أن يتكلم الفرنسيَّة، لأنها هي المفتاح الكفيل بفتح الأبواب التي كانت مغلقة في وجهه قبل خمسين عاماً. إننا نكتشف لدى الأنتيليين الداخلين في نطاق توصيفنا بحثاً عن لطائف اللغة ونوادرها، ـ بوصفها وسائل لكي يبرهنوا لأنفسهم قدرتهم على الملاءمة مع الثقافة[1]. فقد قيل: للخطباء الأنتيليين قوّة تعبيرية قد تجعل الأوروبيين ينذهلون. أذكر حادثة لها دلالتها: سنة 1945، في أثناء الحملات الانتخابية، كان إيميه سيزار، المرشح للنيابة، يتحدث في مدرسة فور ـ دفرانس للصبيان، أمام جمع غفير. في منتصف المحاضرة، أصيبت امرأة

---

(1) أنظر مثلاً العدد الهائل تقريباً للنوادر التي ولدت من انتخاب هذا المرشح للنيابة. هناك قمامة صحفية، تدعى *(Canard déchaîné)* لم تنقطع عن الكتابة بتوقيع .M ...B، حول العاميّات الكريولية المقرفة. في الواقع، إنه السلاح الحاسم في الأنتيل: لا يُجيد التعبير بالفرنسية.

بالإغماء. في اليوم التالي، روى رفيقٌ الحادثة معلّقاً على النحو التالي: «كانت الفرنسية حارّة جداً لدرجة أن المرأة وقعت طريحة الفراش»[*][1] إنها قوّة اللغة!

هناك أحداث أخرى تستحقُّ أن تسترعي انتباهنا: مثلاً السيد شارل ـ اندريه جوليان حين قدّم إيميه سيزير: «شاعر أسود مُبرِّز من الجامعة...»، أو أيضاً، بكل بساطة، إنه «شاعر أسود كبير».

في هذه العبارات الجاهزة، والتي تبدو مليئةً لسانحة حسّ سليم ـ لأن إيميه سيزير هو في نهاية المطاف أسود وشاعر ـ، هناك رقّةٌ تختبئ، هناك عقدة لا تغيب. أنا أجهل من هو جان بولان (Paulhan)، فكلّ ما أعرفه عنه أنه كتبَ أعمالاً في غاية الأهمية؛ وأجهل ماذا يمكن أن يكون عمرُ كايوا، إذ إنني لم أعرف سوى تجلّياتٍ حياته التي يلوِّن السماءَ بها، من وقتٍ إلى آخر. فلا داعي لاتهامنا البتة بفرط الحساسية العاطفية؛ فما نريد قوله هو أنه لا داعي حتى يقول السيد برتون عن سيزير: «وهذا أسود يستعمل اللغة الفرنسية كما لم يعد يوجد اليوم أبيض لاستعمالها»[2].

وحتى عندما يعبّر السيد بريتون عن الحقيقة، لا أرى أين تكمنُ المفارقةُ، وفيمَ يكمنُ الأمر الواجب التأكيد عليه، لأن السيد إيميه سيزير هو في نهاية المطاف مارتينيكي وحائز على شهادة التبريز من الجامعة.

(*) «Français a té tellement chaud que femme là tombé malcadi».
وورود الصيغة هنا أيضاً فرنسية رديئة لم تعكسها الترجمة. (الناشر)

(1) الفرنسية (أناقة الشكل) كانت حارّة لدرجة أن المرأة أصيبت بالإغماء.

(2) Introduction au *Cahier d'un retour au pays natal*, p. 14.

مرّة أخرى نسترجع السيد ميشيل ليريس: «لئن كان لدى الكتّاب الأنتيليين عزمٌ على القطيعة مع الأشكال الأدبية المرتبطة بالتعليم الرسمي، فإن هذا العزم، المتوجّه نحو مستقبلٍ فسيح أكثر، لا يمكنه أن يرتدي رداءً فولكلورياً. كونهم راغبين أدبياً، قبل أي شيءٍ آخر، في صياغة الرسالة الخاصة بهم شخصياً، وفي أن يكون بعضهم، على الأقل، رُسُلَ عرقٍ حقيقي، ذي إمكانيات مجهولة، فإنهم يمقتون التكلّف الذي قد تمثله في نظرهم هذه الرسالة، ما دام تكوينهم الفكري قد جرى من خلال الفرنسية على نحو شبه حصري، وصار اللجوء إلى لغة محكيّة غير قادر على تمكينهم من استعمالها إلّا بوصفها شيئاً تعلّموه»[1].

لكن، سيردُ السُودُ عليّ، إنّه لشرفٌ لنا أن يكتب أبيض مثل برتون أموراً كهذه.

فلنتابع...

---

(1) ميشيل ليريس، م. س.

الفصل الثاني

المرأةُ الملوّنة والأبيض

الإنسان حركة نحو العالم ونحو نظيره. حركة عدائية، تولّد الاستعبادَ أو الغزو؛ حركة محبة، ووهب الذات، المآل الأخير لما اتّفق على تسميته التوجّه الأخلاقي. يبدو أن كل وعي قادر على إظهار هذين العنصرين، معاً أو مداولةً. على صعيد الطاقة، الكائنُ المحبوبُ سيعاضدُني في الاضطلاع برجولتي، بينما هاجسُ نيلِ إعجاب الآخر أو حبّه، سينسج على مدى رؤيتي للعالم بنية فوقية مُقوِّمة.

في إدراك ظواهر هذا النظام، يبدو عمل المحلِّل والفنومنولوجي عملاً شاقاً جداً. ولكن إذ كان قد وجد شخص مثل سارتر للقيام بتوصيف الحبّ ـ الفشل، إذْ لم يكن كتابه الوجود والعدم سوى تحليل للنيّة السيئة وعدم الأصالة، فيبقى أنَّ الحبّ الحقيقي، الواقعي، ـ أنْ تتمنّى للآخرين ما تلتمس لنفسك، عندما تنطوي هذه المصادرة على القيم الدائمة للواقع الإنساني، ـ يستلزم تعبئة مراجع نفسيّة متحرِّرة جوهرياً من النزاعات اللاواعية.

بعيداً، بعيداً جداً، تخفَّت الآثارُ الأخيرة لصراع كبير يُخاضُ ضد الآخر. واليوم، نؤمن في إمكانية الحبّ، لهذا نسعى جاهدين لكي نرصد نواقصه وانحرافاته.

ما نقصده في هذا الفصل المخصَّص لعلاقات المرأة الملوَّنة والأوروبي، هو تحديد المدى الذي سيبقى فيه الحبُّ الأصيل، ممتنعاً، ما لم نطرد هذا الشعور بالدونية أو هذا الحماس الأدليري، هذا التعويض الفائق، التي تبدو كلها مؤشراتٍ على الإشكالية السوداء (Weltanschauung).

لأننا في نهاية الأمر، عندما نقرأ في أنا مارتينيكيَّة: «تمنّيت الزواج، لكنْ مع أبيض. إنما امرأة ملوَّنة ليست محترمة أبداً، في نظر رجل أبيض. حتى وإن أحبها. كنتُ أعرف ذلك»[1]، من حقنا أنْ نقلق. فهذا المقطع، الذي يصلح بمعنىً ما كخلاصة لتضليل هائل، إنما يحثنا على التأمل. ذات يوم، امرأة تُدعى مايوت كابيسيا، خضعت لمؤثرٍ لا ندرك تماماً أسبابه، كتبت مئتي صفحة ــ حياتها ــ حيث تتكاثرُ، مزاجياً، أكثرُ العبارات والمقولات عبثيَّة. إنما الاستقبال الحماسي الذي خُصِّص لهذا الكتاب في بعض الأوساط يجعل من واجبنا أنْ نحلّله. ليس هناك أي التباس عندنا: فكتاب أنا مارتينيكية هو كتاب رخيص، يمتدحُ سلوكاً مريضاً.

تحبُّ مايوت أبيض تتقبّل منه كل شيء. فهو السيِّد. وهي لا تدّعي شيئاً، لا تطالب بشيء، اللهم إلّا القليل من البياض في حياتها. ولما أثارت على نفسها سؤال الاستعلام عما إذا كان جميلاً أو بشعاً، ستقول العاشقة: «كل ما أعرفه، هو أنه كان ذا عينين زرقاوين، وذا شعر أشقر، وبشرة شاحبة، وأني كنت أحبه»، ــ من السهل أن نرى، حين نضع الألفاظ في مكانها، أننا نحصل تقريباً

(1) Mayotte Capécia (Corrêa éd., p. 202).

على ما يلي: «كنت أحبّه لأنه كان ذا عينين زرقاوين وشعر أشقر وبشرة شاحبة». ونحن الأنتيليين نعرف الأمر حقَّ المعرفة: الزنجي يخاف من العيون الزّرق، كما يُقال هناك.

لم نكنْ نخادع أنفسنا قطعاً عندما قلنا في مقدمتنا إن الدونية جرى الشعور بها، تاريخياً، كدونية اقتصادية.

«في بعض الأماسي، واأسفاه! كان عليه أنْ يتركني، للقيام بواجباته العادية. كان يذهب إلى ديديبه، الحي الفخم في فور ـ دفرانس حيث يعيش «البكوات المارتينيكيّون»، الذين ربما لا ينتمون إلى عرقٍ صافٍ جداً، لكنهم كانوا غالباً أثرياء جداً (من المسلّم به أن المرء يكون أبيض عندما تتعدى ثروته عدداً من الملايين)، و «بكوات فرنسا»، وهم في معظمهم من الموظفين أو الضبّاط.

«بين رفاق أندريه، الذين كانوا مثله محجوزين بسبب الحرب في الأنتيل، تمكن بعضهم من اجتلاب نسائهم. كنت أدرك أنّ أندريه لا يستطيع البقاء دائماً على حدة. وكنت قد قبلت أيضاً بعدم الانضمام إلى هذه الحلقة، لأني كنتُ امرأة ملوّنة؛ لكنّي ما كنت قادرةً على منع نفسي من الغيرة. عبثاً كان يحاول أن يشرح لي أن حياته الحميمة كانت شيئاً خاصاً به وحده، وأن حياته الاجتماعية والعسكرية شيء آخر لم يكن مقرراً فيها، فكنت ألحّ كثيراً حتى يأخذني ذات يوم إلى ديديبه. قضينا السهرة في واحدة من هذه الدارات (الڤيلات) الصغيرة التي كنت معجبةً بها منذ طفولتي، مع ضابطين وامرأتيهما. كانت هاتان المرأتان تنظران إليّ بشفقةٍ كنت لا أستطيع تحمّلها. كنتُ أشعرُ أنني مفرطة في زخرفة ملابسي، وأنني لم أكن ألبسُ مثلما ينبغي، وأنني لم أكن مشرِّفة لأندريه، ربما وبكل

بساطة بسبب لون جلدي؛ أخيراً، قضيتُ أمسية بشعة لدرجة أنني قرّرت ألّا أطلب أبداً من أندريه، أن أرافقه»[1].

تتجه رغبات الحسناء إلى ديديه، جادة الأثرياء المارتينيكيين. وهي التي تقول ذلك: يكون المرءُ أبيضَ انطلاقاً من عددٍ ما من الملايين. فمنذ أمدٍ طويل، بَهَرتْ ڤيلات الحيّ عيني الكاتبة. على كل حال، إننا نشعر أن مايوت كابيسيا تتعمد خداعنا: تقول لنا إنها عرفت فور ـ دفرانس في وقتٍ متأخر جداً، نحو الثامنة عشرة؛ مع ذلك، كانت ڤيلات ديديه قد فتنت طفولتَها. في هذه الحادثة مغالطة يمكنُ أن نفهمها إذا حدّدنا موقع الحدث. فمن المألوف، عملياً، في المارتينيك، أن يحلم المرء بشكلٍ من الخلاص الذي يقضي بأن نبيّض أنفسنا سحرياً. ڤيلّا في ديديه، اندراجها في المجتمع الأرفع (رابية ديديه تُشرِف على المدينة) وها هو يقينُ هيغل الذاتي قد تحقّق. ومن طرفٍ آخر، نرى تماماً المكانة التي يمكن أن يحتلها في توصيف هذا السلوك، ديالكتيك الوجود والمُلك[2]. مع ذلك، ليست هذه هي حالة مايوت بعد. هناك «رفض» لها. وتبدأ الأشياء دورتَها... ذلك لأنها امرأة ملوّنة، لا تسامح معها في هذه الحلقات. واعتباراً من تصنّعها، سيُصاغ الحقد. سنرى لماذا الحب ممنوع على مايوت كابيسيا في كل البلدان. لأنّ الآخر لا ينبغي له أن يسمح لي بتحقيق هوامات تعود إلى عهد الطفولة: بل على العكس، من واجبه أن يساعدني على تخطّيها. إننا نكتشف في طفولة

---

(1) م ن ص 150.

(2) *Être et Avoir*, Gabriel Marcel (Aubier).

مايوت كابيسيا عدداً معيناً من السمات التي تبيّن خط توجّه الكاتبة. وفي كل مرة تكون هناك حركة، اهتزاز، سيكون ذلك على الدوام بالترابط المباشر مع هذا الهدف. وعليه، يبدو في نظرها أنَّ الأبيض والأسود يمثّلان قطبَيْ عالم، قطبين في صراع دائم: إنّه تصوّر مانوي، حقيقي، للعالم؛ لقد طُرحت الكلمة، لا بد من تذكّر ذلك ـ أبيض أو أسود، تلك هي المسألة.

أنا أبيض، يعني أني أملكُ الجمالَ والفضيلة، اللذين لم يكونا يوماً أسودين. أنا من لون النهار...

أنا أسود، أحقق انصهاراً كاملاً مع العالم، وفهماً وديّاً للأرض، وخسارة ذاتي في قلب الكون، والأبيض، مهما كان ذكياً، لن يتمكّن من فهم آرمسترونغ وأغاني الكونغو. وإني وإن كنت أسودَ، فإن ذلك لم يحدث لي بعد لعنة، بل لأني، بعدما عرّضت جلدي، تمكّنتُ من التقاط، التدفّقات الكونيّة. أنا حقاً قطرةُ شمس تحت الأرض...

ويمضي المرء في مجابهة مع سواده أو مع بياضه، في خضم الدراما النرجسيّة، وكلٌّ منا منحبس في خصوصيّته، مع بعض الإشراقات، بين الحين والآخر، وهذا صحيح؛ الإشراقات المهدَّدة في موردها.

بادىء الأمر، هكذا طُرحت المسألة على مايوت ـ في سن الخامسة وفي الصفحة الثالثة من كتابها؛ «كانت قد أخرجت محبرتها من درجها وصبّتها على رأسه». هكذا كانت طريقتها في تحويل البيض إلى سُود. لكنّها سرعانَ ما أدركت عبثيّة جهودها؛ ومن ثمّ، كانت هناك لولوز وأمها، اللتان قالتا لها إنَّ الحياة كانت صعبة بالنسبة إلى امرأة ملوَّنة. وبما أنها لم تعد قادرة على تسويد، ولا

على تزنيج العالم، فسوف تحاول إذن تبييضَه في جسمها وفي فكرها - بادىء الأمر، ستعمل غسّالة: «كنتُ أتقاضى ثمناً باهظاً، أبهظ من أي مكان آخر؛ ولكنني كنت أشتغل أحسن، وبما أن أهل فور دفرانس يحبُّون الغسيل النظيف، فكانوا يأتونَ إليّ. في نهاية الأمر، كانوا فخورين بغسل ثيابهم عند مايوت»[1].

نأسف لأن مايوت كابيسا لم تطلعنا على أحلامها البتّة. فذلك من شأنه تسهيل الاتصال بلاشعورها. بدلاً من أن تكتشف أنها سوداء على الإطلاق، ستجعل هذه الواقعة عارضة. عرفت أن جدّتها كانت بيضاء: «كنتُ فخورة بتلك. بالطبع لَم أكن الوَحيدة التي تملك دماً أبيض؛ لكنّ جدّة بيضاء كانت أقلّ تفاهة من جد أبيض»[2]. كانت إذن

(1) *Je suis Martiniquaise*, p. 131.

(2) بما أن الأبيض هو السيّد، وبكل بساطة الذكر، فإنه يستطيع أن يسمح للنفسه أن ينام مع كثير من النساء. هذا صحيح في كل البلدان، وأكثر، في المستعمرات، لكنّ بيضاء تتقبل أسود، فهذا أمرٌ سرعان ما يرتدي رداءً رومانسياً. هناك وهب وليس اغتصاباً. عليه، في المستعمرات، عدد الخلاسيين كبير جداً، من دون أن يكون هناك زواج أو تساكن بين البيض والسوداوات، ذلك لأنَّ البيض يناموn مع خادماتهم السوداوات. - إلا أن هذا لا يجيز هذا المقطع عند مانوني: «هكذا، قد يدفعنا قسمٌ من نزعاتنا دفعاً طبيعياً إلى أغرب الأنماط. فهذا ليس فقط سراباً أدبياً. هذا لم يكنْ أدبياً، ولا ريب أنَّ السرابَ كان ضئيلاً عندما كان جنودُ غالياني يختارون لأنفسهم صاحباتٍ عابراتٍ نسبياً، من بين شابات راماتوا. عملياً، هذه الاتصالات الأولى لم تكنْ تشكّل أية صعوبة. ومردّ ذلك جزئياً إلى كون حياة المالغاشيين الجنسية، صحيّة وخالية تقريباً من الظواهر المعقدية. لكنّ هنا يدلُّ أيضاً على أنّ النزاعات العرقية تتكون شيئاً فشيئاً، ولا تُولد فطرياً» (*Psychologie de la colonisation*, p.110). لا تبالغوا في شيء، فعندما ينام جندي من قوات غازية مع شابة مالغاشيّة، لا شك لي في أنّه لا يكنّ من جانبه أي احترام للغيرية. فالنزاعات العرقية لم تأتِ لاحقاً، بل تعايشت. وكون المستوطنين الجزائريين ينامون مع

أمي خلاسية؟ كان عليّ أن أشك بذلك عند رؤية بشرتها الشاحبة. كنتُ أراها أجمل من أي وقتٍ مضى، وألطف وأميز. لو كانت قد تزوجت أبيضَ، لربّما كنت بيضاء تماماً؟... ولربما كانت الحياة أقلّ صعوبة بالنسبة إليّ؟... كنتُ أحلم بهذه الجدّة التي لم أعرفها والتي ماتت لأنها كانت قد أحبّت رجلاً مارتينيكياً ملوّناً... كيف يمكن لكنديّةٍ أن تحبّ مارتينيكيّاً؟ أنا التي كنتُ أفكر دوماً بالسيد الكاهن، قرّرت أني لا أستطيع أن أحبّ سوى أبيض، أشقر مع عينين زرقاوين، فرنسي»[1].

لقد تبلّغنا الرسالة، والتبييض هو ما تسعى إليه مايوت. لأنّ المطلوب، في آخر المطاف، هو تبييض العرق؛ وهذا تعرفه وتقوله وتردده كلُّ المارتينيكيّات. تبييض العرق، إنقاذ العرق؛ لكن ليس بالمعنى الذي يمكن افتراضه: ليس صوناً لـ «أصالة الجزء من العالم الذي ولدوا وكبروا فيه»، بل لضمان بياضه. وكلما أردنا تحليل بعض السلوكات، عجزنا عن تجنّب ظهور مظاهر مُقرفة. فعددُ العبارات والأمثال والسطور التوجيهية الصغيرة التي تحكم اختيار عاشقها، كبيرٌ جداً في الأنتيل. والمطلوب هو عدم الغرق مجدّداً في الزنوجة المفرطة، فكل أنتيليّة ستبذل قصارى جهدها، في مداعباتها أو

▪ خادمتهم الصغيرة، البالغة 14 سنة، لا يدلُّ إطلاقاً على غياب نزاعات عرقية في الجزائر. كلا، فالمسألة أكثر تعقيداً. ـ ومايوت كابيسيا على حق؛ من المشرّف أن تكون بنت امرأة بيضاء. هذا يبيّن أنها ليست بنت «من الدرجة الثانية» een bas famille». (يخصّص هذا التعبير لكل أولاد بكوات المارتينيك من أمهات زنجيات؛ ومن المعلوم أنهم كثيرو العدد: اشتهر أو بيري، مثلاً، بأنه كان لديه حوالى 50 منهن).

(1) م ن، ص 59.

علاقاتها، لاختيار الأقل سواداً. أحياناً تكونُ مضطرة، لمغفرة علاقة سيئة، للاستعانة بذرائع كالذريعة التالية: «فلان أسود؛ لكن البؤس أكثر سواداً منه». نعرف كثيرات من المواطنات، الطالبات في فرنسا، اللواتي يعترفن لنا بكل طيبة، طيبة بيضاء تماماً، أنهنَّ لا يستطعن الزواج من أسود (لقد نجوتُ منه، فهل أعودُ إليه طوعياً؟ آه! كلا، شكراً) يضفنَ إلى ذلك: ليس هذا لأننا نرفضُ الاعتراف بأية قيمة للسُّود، لكن، كما تعلمون، من الأفضل أن يكونَ المرءُ أبيض. مؤخراً، كنا نتحاور مع واحدةٍ منهنَّ. بعد جهدٍ جهيد، رمت في وجهنا قولها: «على كل حال، إذا كان سيزير يطالبُ كثيراً بلونه الأسود، فذلك لأنه يشعر حقاً بلعنةٍ. هل يطالب البيض بلونهم؟ وفي كلٍّ منا ثمة إمكانية، بِكْثَة بيضاء، يرغبُ البعض في إنكارها أو أنهم يقبلونها، بكل بساطة. من جهتي، مهما كلّف الأمر، لن أقبل بالزواج من زنجي». إن مواقفَ كهذه ليست نادرة، ونحن قلقون، لأنَّ هذه الشابة المارتينيكيّة ستُجازُ بعد سنوات قليلة، وستذهبُ للتعليم في مؤسسةٍ ما في الأنتيل. ومن اليسير أن نتوقّع ما سيحدث.

هناك عمل هائل ينتظر الأنتيلي الذي قام، بادىء الأمر، بغربلة موضوعية للمفاهيم الشائعة المتداولة عنده. وعندما بدأنا هذا الكتابَ، بعد الانتهاء من دراستنا الطبيّة، أخذنا على كاهلنا أنْ ندافع عنه كأطروحة. ثم تطلّبَ الديالكتيكُ منّا أخذ مواقف مضاعفة. فعلى الرغم من ضرورة انكبابنا، بنحوٍ ما، على تناول الانسلاب النفساني للأسود، لم يكن في مستطاعنا السكوت عن بعض العناصر، مهما كانت بسيكولوجية، التي من شأنها توليد مؤثرات وعواقب ذات صلة بعلومٍ أخرى.

لا بد لكل تجربة، خصوصاً إذا بدتْ عقيمةً، أن تندرج في تركيب الواقع، وبذلك، لا بد لها من احتلال مكانةٍ في إعادة بناء هذا الواقع. أي أنَّ العائلة الأوروبية، البطريركية، مع عيوبه، مع فاشليها ومع رذائلها، وبالارتباط الوثيق مع المجتمع الذي نعرفه، تنتج حوالى ثلاثة أعشار من العُصابيِّين. يتعلق الامر، بالاستناد إلى المعطيات التحليلية النفسانية، السوسيولوجية والسياسية، ببناء بيئة قرابية جديدة، جديرة بالتخفيف، إن لم تكن جديرة بالقضاء على جانب النفايات، بالمعنى اللااجتماعي للكلمة.

بتعبير آخر، المطلوبُ هو أن نعرف إنْ كانت الشخصيّة المنوالية (basic personality) هي ثابت أم متحوّل.

إن كلَّ هذه النساء الملونات ذوات الشعر الأشعث، الباحثات عن الأبيض، ينتظرن. ومن المؤكد أنهنّ، ذات يوم، سيفاجأن بعدم الرغبة في العودة، وسوف يحلمن «بليلةٍ رائعة، بعاشق رائع، أبيض». هنّ أيضاً قد يرين يوماً «أنَّ البيضَ لا يتزوّجون امرأة سوداء». لكنهّنّ قبلن التعرّض لهذه المجازفة، فما يلزمهن هو البياض بأي ثمن. لأي سبب؟ لا شيء أسهل من ذلك، اليكم حكاية تملأ الرأس:

«ذات يوم، رأى القديسُ بطرس وصول ثلاثة رجال إلى باب الفردوس: أبيض، مولَّد (خلاسيّ) وزنجي.

ـ ماذا تطلب؟ سألَ الأبيض.

ـ المال.

ـ وأنت؟ قال للمولَّد.

ـ المجد.

«ولما استدار نحو الأسود، صرّح له الأسود، بابتسامة[1] عريضة:
ـ جئتُ لأحمل أمتعة هؤلاء السّادة».

حديثاً، تكلّم إتيامبل على إحدى خيبات أمله: «خجلي، وأنا مراهق، عندما نهضت صديقة، وكانت تعرفني، وهي مغتاظة من سماعي وأنا أقول لها في مناسبة، الكلمة المناسبة والوحيدة: «أنتِ يا زنجيّة ـ أنا؟ زنجيّة؟ ألا ترى أني أكاد أكونُ بيضاء؟ أنا أكره الزنوج. مُقرفون هم الزنوج. إنهم وسخون، كسولون، لا تحدّثني أبداً عن زنوج»[2].

---

(1) ابتسامة الأسود، الضّرِيّ، تبدو أنها قد استرعت انتباه كتّاب كثيرين. هاكم ما يقوله عنها برنارد وولف: «إنّنا نستمتعُ في تصوير الأسود وهو يبتسم بملء فمه، حين يخاطبنا، فابتسامته، كما نراها ـ كما نبتكرها، ـ تعني دائماً وَهْباً، هبةً...
هبات بلا نهاية، على مدى الملصقات، شاشات السينما، سمات المواد الغذائية... فالأسود يعطي المدام «السّمات الكريولية الداكنة»، الصبغات الجديدة لنيلوناتها الرائعة، بفضل ت ليني، يعطيها قاروراتها «المُضحكة»، «المتعرّجة»، قارورات ماء الكولونيا (غولبرغ) والعطور، بهان الأحلية، غسيل أبيض كالثلج، سُرُر صغيرة واطئة، مريحة، نقل سريع للحقائب؛ جاز جيتربوغ، جيف، كوميديات، والحكايات العجيبة عن بربر رابيت *(Brer Rabbitt)* (الأخ أرنب) لتسلية الصغار جداً. الخدمة مع الابتسامة القائمة... «كتبَ عالم انتروبولوجي[أ]: إن السُّود استمرّوا على موقفهم المُجامل، نظراً لأنصى عقوبات الخوف والقوّة، وهذا الأمر معروف تماماً لدى البيض والسّود على حدٍ سواء. غير أنّ البيض يشترطونَ أن يتظاهرَ السُّود بأنهم باسمون، مُجاملون وودّيّون في علاقاتهم معهم...».

L'oncle Rémus et son lapin, Bernard Wolfe, *Les Temps Modernes*, n° 43, p. 888.

(أ) Geoffrey Gorer, *The American Spirit: A study in national character*.

(2) «Sur le *Martinique* de Michel Cournot», *Les Temps Modernes*, février 1950.

المطلوب هو أن نعرف إن كان في إمكان الأسود تخطّي شعوره بالنقص، وطرده من حياته للطابع التّروي الذي يقرّبه كثيراً من سلوك الكاره. هناك لدى الزنجي إفراط عاطفيّ. غضب من الإحساس بأنه صغير، وعجز عن كل تألّف إنساني، فهذه كلّها تضعه في عزلة لا تحتمل.

حين وصفت آنّا فرويد ظاهرة انقباض الأنا، كتبت: «تكمن هذه الظاهرة في دفاع هذا الأنا ضد المُثيرات الخارجية؛ فهذا الانقباض، بوصفه طريقة لتجنّب الانزعاج، لا يدخل في نطاق بسيكولوجيا المُصابات: إنّما يشكّل فقط مرحلة طبيعية في تطور الأنا. بالنسبة إلى أنا شاب مرن، كل خسارة يُمنى بها في مجال، يجري تعويضها أحياناً بنجاحاتٍ في مجالاتٍ أخرى. لكنْ عندما يتصلّب الأنا أو لا يعود يتحمّل الكرب، ويستسلم نزويّاً لرد فعل الهرب، يتعرّض تكوّنُ الأنا للعواقب الوخيمة، إنَّ الأنا إذ يتخلّى عن عدد كبير جداً من مواقعه، يغدو آحادي الجانب، يفقد الكثير من اهتماماته، ويرى أن نشاطاته تفقد من قيمتها»[1].

نفهم الآنَ لماذا لا يستطيع الأسود الاكتفاء بجزيرته. فبالنسبة إليه لا يوجد سوى باب خروج واحد، وهو يطلّ على العالم الأبيض. ومن هنا كان هذا الاهتمام الدائم بلفت اهتمام الأبيض، هذا الهمُّ بأن يكون قوياً كالأبيض، هذه الإرادة المصمّمة على اكتساب ممتلكات تجديد الكسوة، أي القسم الوجودي والامتلاكي الذي

(1) A. Freud, *Le moi et les mécanismes de défense*, traduit par Anne Berman, pp. 91-92.

يدخل في تكوين كل أنا. وكما قلنا منذ قليل، سيحاول الأسود من الداخل، الانضمام إلى المحراب الأبيض. فالموقفُ يُحيل إلى النيّة.

إن انقباض الأنا، كمسار دفاعي ناجح، مستحيل على الأسود. فهو بحاجة إلى مرجعيّة بيضاء.

في ذروة الوجد الصوفي، مع تَرتيل نشيد ساحر، تراءى لمايوت كابيسيا أنها ملاك، وأنها تطير «وردية تماماً وبيضاء». لكنْ هناك ذاك الفيلم، المراعي الخُضر، حيث الملائكة والله سُودٌ؛ لكن هذا صدم كاتبتنا بقوّة: «كيف نتصوَّر الله في ملامح زنجي؟ أنا لا أتخيَّل الفردوس على هذا النحو. لكنْ، في نهاية الأمر، لم يكن الأمر متعلّقاً إلّا بفيلم أميركي»[1].

كلا، في الحقيقة، إن الله الصالح والرحيم لا يمكن أن يكون أسود، إنه أبيض ذو خدود وردية جداً. إن اتجاه التحول هو من الأسود إلى الأبيض. فلان أبيض كما هو غني كما هو جميل كما هو ذكي.

غير أنَّ أندريه رحل الى سماواتٍ أخرى حاملاً الرسالة البيضاء إلى مايوتات أخرى: جينات صغيرة طيبة، ذات عيون زرق، تتراكض في ممرّات الصبنيّات، لكنّه كأبيض طيّب، ترك تعليمات. لقد تكلّم عن طفلهما: «ستربّينه، ستحدّثينه عني، ستقولين له: لقد كان إنساناً متفوّقاً. يجب أن تعمل لكي تكون جديراً به»[2].

والكرامة؟ لم يعد من واجبه أنْ يكتسبها، فقد صارت الآن

(1) *Je suis Martiniquaise*, p. 65.

(2) Ibid., p. 185.

منسوجة في متاهة عروقه، منغرسة في أظافره الوردية الصغيرة، الحاذقة جداً، البيضاء والناصعة.

والأب؟ هاكم ما يقوله اتيامبل عنه: «إنّه أنموذج نوعي؛ كان يحكي عن العائلة والعمل والوطن وعن بيتان الطيب وعن الرحمان، الأمر الذي كان يسمح له بأنْ يجعلها تحبل حسب الأصول. كان الأزعرُ الجميل الأبيض الجميل، الضابط الجميل يقول: لقد استخدمنا الله لأجل ذلك. بعدها فلا هجرها عملاً القواعد البيتانيّة والرحمانيّة نفسها».

قبل أن ننتهي من تلك التي سيّدها الأبيض «كأنّه ميت»، والتي تجرجر وراءها مواكب الموتى في كتاب حيث تنتشرُ أشياء ميتة بشكل محزن، نودّ أن نطلبَ من أفريقيا أنْ تبعث إلينا رسولاً[1].

---

(1) بعد كتاب أنا مارتينيكية، وضعت مايوت كابيسيا كتاباً آخر: الزنجيّة البيضاء. لكان عليها أنْ تدرك الأخطاء المرتكبة، ما دمنا نشهد محاولة إعادة تقويم للزنجي. لكنّ مايوت كابيسيا حسبت الأمور من دون لاوعيها. ومنذ أن تترك الرواية قليلاً من الحرية لشخصياتها، فإنّما تفعل ذلك دائماً لإرهاق الزنجي. ذاك أن كل الزنوج الذين تصفهم، هم بنوع ما أرغاد أو «Y'a bon Banania».
إلى ذلك، ونحن نستبشر بالمستقبل، يمكننا القول إنّ مايوت كابيسيا قد نأت نهائياً عن بلدها. ففي كتابيها هناك موقف مشترك متروك لبطلتها: الرحيل... فمن المؤكد أنّ بلد الزنوج هذا ملعون. وعليه، ثمة لعنة تطفو حول مايوت كابيسيا، لكنّها نابذة. لقد حرمت مايوت كابيسيا نفسها.
فلتتوقّف عن تضخيم المحاكمة، جراء حماقاتها الطفلة.
ولترحلي بسلام أيتها الروائية الملوّثة... لكن اعلمي أن في ما يتعدّى الخمسمئة من صفحاتك المُصفرّة، ستتمكّن دوماً من استكشاف الطريق النزيه المُفضي إلى القلب.
هذا، على الرغم منك.

لم تتركنا ننتظر، إنه عبدالله صاجي الذي، مع نيني[1]، يقدّم لنا وصفاً لما يمكن أن يكون عليه سلوكُ السُّود بمواجهة الأوروبيين. سبق أن قلنا إن هناك مصابين بخواف الزنوج. ومع ذلك ليس كرهُ الأسود هو الذي يحرّكهم؛ فهم لا يتجاسرون على ذلك، أو أنهم ما عادوا يتجاسرون. فالكرهُ ليس معطىً، بل يمكنُ اكتسابه في كل آن؛ يمكن للمرء أن يتزلق إلى ذلك، وهو يُغالبُ عقدَه اللذنيّة المعلنة إلى هذا الحدّ أو ذاك. الكرهُ يتطلبُ أنْ وجوداً فعلياً؛ وعلى الذي يكره أن يظهر هذا الكره بأفعال، بسلوكٍ مناسب؛ بمعنىً ما، عليه أن يتجسد الكره بنفسه: لهذا استبدل الأميركيّون التلنيش (الإعدام العسفي) بالتمييز. كلٌّ من جهته. وهكذا، لا نفاجأ من وجود حي أوروبي في أفريقيا السوداء (الفرنسية؟). إن كتاب مونييه: يقظة أفريقيا السوداء، كان قد استرعى انتباهنا من قبل؛ لكننا كنا ننتظر، بفارغ الصبر، صوتاً أفريقياً. بفضل مجلة آليون ديوب، تمكّنّا من تنسيق الحوافز البسيكولوجية التي تحرّك الملوّنين.

ثمة دهشة، بالمعنى الديني جداً للكلمة، في هذا المقطع: «السيد كامبيان هو الأبيض الوحيد في سان لويس الذي يتردّد على النادي السانلويسي[2]، وهو رجل ذو موقع اجتماعي معيّن، لأنه مهندس جسور وطرقات، ونائب مدير الأشغال العامة في السنغال. يُعتقد أنّه محبّ جداً للزنوج، أكثر محبّةً لهم من السيد رودّان، الأستاذ في

---

(1) *Présence Africaine*, 1-2-3.

(2) حلقة حيث تجتمع الشبيبة المحلية. في المقابل، هناك الحلقة المدنية، الأوروبية حصراً.

ليسيه فيديرب، الذي ألقى محاضرة في نادي سان لويس، حول مساواة الأعراق. إن طيبة هذا أو ذاك هي موضوع دائم لنقاشات حامية الوطيس. على كل حال، كان السيد كامبيان أكثر ارتياداً للحلقة، حيث تعرّف إلى مواطنين أصليين مستقيمين جداً ومُراعين له كثيراً؛ يحبُّونه ويتشرّفون بوجوده بينهم»[1].

إن الكاتب، وهو معلم في أفريقيا السوداء، مدينٌ للسيد رودّان بهذه المحاضرة حول مساواة الأعراق. وأننا نُسمّي هذا الموقف فضيحة. إننا نتفهم الشكاوى التي كان الشبان الأصليون قد قدّموها لمونييه، الذي كان قد التفاهم: «ما يلزمنا هنا هو أوروبيون مثلكم». نشعرُ في كل لحظة أن الالتقاء بتوباب[2] متفهّم يمثّل، في نظر الأسود، أملاً جديداً في التفاهم.

بعد تحليل عدّة مقاطع من رواية السيد عبدالله صاجي، سنحاول الإحاطة على الفور بردود فعل المرأة الملوّنة بإزاء الأوروبي. أولاً، هناك الزنجية والمولَّدة. ليس للأولى سوى إمكانية وهمّ واحد: التبييض. أما الثانية فلا ترغب في أن تبيِّض وحسب، بل تتجنّب الارتكاس. وعليه، هل هناك ما هو أقل منطقاً من مولَّدة تتزوّج أسودَ؟ لأن ما ينبغي فهمه، مرة إلى الأبد، هو أنَّ المطلوب إنقاذ العرق.

من هنا اضطراب نيني الشديد: ألم يتمادَ زنجيٌّ إلى حدّ طلب الزواج منها؟ ألم يلهب زنجي إلى حد الكتابة لها: «الحبُّ الذي

(1) «Nini», *Présence Africaine*, 2, p. 280.

(2) أوروبي.

أقدّمه لكِ خالص وقوّي، فهو لا يرتدي البتّة طابع حنانٍ فُجائي، مصطنع لأجل غمرِكِ بأكاذيب وأوهام... فأنا أتمنى أنْ أراكِ سعيدة، سعيدة تماماً في بيئة تتوافقُ حقاً مع مفاتنكِ التي أعتقد أني أُجيدُ تقديرها... إني أعتبرُ وجودكِ في بيتي، وتكرّسي لكِ جسداً وروحاً، بمثابة شرف كبير لي وسعادة عظيمة. فمن شأن لطائفكِ أن تسطع في منزلي وأن تنير الزوايا المظلمة... إلى ذلك، اراكِ متطورة جداً وفي غاية اللطافة، فلن ترفضي بفظاظة عروضَ حبٍّ صادق، لا همَّ له سوى إسعادكِ»[1].

ليس لهذه الجملة الأخيرة أنْ تدهشنا، عادة، يُفترض بالمولّدة أن ترفض، بلا رحمة، الزنجيّ الدّعيّ. لكنْ، بما أنها متطورة، فسوف تتجنّب رؤية لون الحبيب، حتى لا تعلّق أهميّة على غير وفائه وإخلاصه. حين وصف عبدالله صاجي، ماكتار، كتبَ: «مثالي ومناصر مقتنع لتطور بلا حدود؛ ما برح يؤمن بصدق الناس، بإخلاصهم، ويفترض بطيبة خاطر أن على الاستحقاق وحده أن ينتظر في كل شيء»[2].

فمن هو ماكتار؟ إنه حامل بكالوريا، محاسب في إدارات الأنهر، وهو يخاطب طابعة دكتيلو صغيرة، ساذجة؛ لكنها تمتلك القيمة الأقل تنازعاً: إنها بالكاد بيضاء. عندها، سيجري الاعتذار من الحرية التي يكتب بها رسالة: «الجرأة الكبرى، الأولى، ربّما، التي تجاسرَ زنجيٌّ على ارتكابها»[3].

(1) م ن، «Nini»، ص 206.
(2) Nini، م ن، ص 281 ـ 282.
(3) م ن، ص 281.

سيجري الاعتذار على الجرأة في اقتراح حبّ أسود على نفْس بيضاء. هنا، سنكتشفه لدى رينه ماران: هذا الخوف، هذا الخجل، هذا الإذعان من الأسود في علاقاته مع البيضاء، أو في كل حال، مع امرأة أكثر بياضاً منه. ومثلما توافق مايوت كابيسيا على كل شيء من السيد أندريه، يجعل ماكتار نفسَه عبداً لنيني المولَّدة. فهو مستعد لبيع نفسه. لكنْ ما ينتظر هذا الغبي هو رفض قاطع. فالمولّدة رأت أنَّ هذه الرسالة إهانة، تعدٍّ على شرفها كـ «فتاة بيضاء». فهذا الزنجي أبله، لص سيِّئ التربية، يحتاج إلى عِبرة. وسوف تلقّنه هذا الدرس؛ ستعلّمه أن يكون أكثر تواضعاً وأقل جسارة؛ ستفهمه أنَّ «الجلود البيض» ليست للفحّامين Bougnouls»[1].

والحال هذه، ستثير المولَّدة ضجيجاً حول إهانتها. يُحكى عن رفع القضية الى العدالة وعن جعل الأسود يمثل أمام محكمة الاستئناف. «ستكتبُ إلى رئيس مصلحة الأشغال العامة، إلى حاكم المستعمرة، لتلفتهم إلى مسلكية الأسود وتحصل على تسريحه كتعويض عن الأذى المعنوي الذي ألحقه بها»[2].

فلا بدَّ لمخالفة كهذه للأصول من أن تُعاقب بالخصي. وفي آخر المطاف، سيُطلب من الشرطة أن تعاقب ماكتار. لأنه «إذا عاود تصرفاته المَرَضيّة القذرة، سيجري تقويمه على يدي السيد درو، مفتّش الشرطة، الذي لقّبه أمثالُه بلقب الأبيض الشرس جداً»[3].

---

(1) م ن، ص 287.
(2) م ن، ص 288.
(3) م ن، ص 289.

لقد رأينا كيف تكون ردة فعل بنت ملوّنة على إعلان حبّ صادر عن واحدٍ من أبناء جلدتها. ولنتساءل الآن عما يحدث مع الأبيض. إننا نستنجد ثانية بصاجي. فالدراسة المطوّلة جداً التي يخصّصها للاستجابات التي يثيرها زواج أبيض ومولّدة، ستخدمنا كمسوّغ.

«منذ بعض الوقت سرت شائعة في كل مدينة سان لويس [illegible] بادئ الأمر، وشوشة صغيرة من أذن إلى أذن، بسطت أسارير العجائز (Signaras)، وحرّكت نظرتهن الباهتة؛ ثم فتح الشبّانُ عيوناً بيضاً كبيرة ودوّروا فماً كثيفاً، حين تناقلوا الخبرَ محدثين ضجيجاً بكلام يقول: أوه! ليس معقولاً... كيف عرفت الأمر؟ هل هذا ممكن... هذا مدهش... كم هو مسلٍّ... فالخبر الذي سرى في سان لويس منذ شهر، هو خبر مفرح، أروع من كل وعود العالم. إنه يتوّج حلمَ عظمةٍ ما، حلم تمايز، يجعل كل المولّدات، النبني، النانا، النينيت، يعشن خارج الظروف الطبيعية لبلدهن. فالحلم الأكبر الذي يراودهن هو أن يتزوّجن أبيض من أوروبا. يمكن القول إنَّ كل جهودهن تنصبّ على هذا الهدف، الذي يكاد لا يتحقّق أبداً. فحاجتهنّ إلى التشوير (الشوشرة) وحبهن للاستعراض المضحك، ومواقفهن المحسوبة، المسرحية، المُقرِفة، هي كلها نتائج هَوَسٍ واحد العظمة، إذ يلزمهن رجل أبيض، ناصع البياض، ولا يلزمهن سواه. إذ إنهن ينتظرن كلهن، على مدى حياتهن، هذه الثروة العظيمة التي ليست أكثر من مجرّد احتمال. وفي هذا الانتظار، تفاجئهن الشيخوخةُ وتُرجعهن إلى أرذلِ العمر حيث يتحوّلُ الحلمُ، أخيراً، إلى إذعان مستكبر...

«إنه خبر رائع جداً... السيد داريفي، الأوروبي الناصع البياض

ومعاون في الأجهزة المدنية، يطلب يد ديديه، المولَّدة ذات اللون النصفي. غير معقول»[1].

يوم صرَّح الأبيض بحبّه للمولَّدة، كان لا بد أن شيئاً خارقاً قد حدث. فقد حدث اعتراف بالجميل، اندماج في مجتمع كان يبدو مُغلقاً بشكل محكم. فناقص (moins-value) القيمة البسيكولوجية، هذا الإحساس بالنقص ونظيره، استحالة بلوغ الصفاء، كانت تتلاشى تماماً. فبين عشية وضحاها، كانت المولَّدة تنتقلُ من رتبة العبيد إلى مرتبة الأسياد...

لقد أعترِفَ بها في مسلكها التعويضي الفائض. فهي لم تَعُدْ تلك التي كانت ترغب في أن تغدو بيضاء، إذ صارت بيضاء. لقد دخلت في العالم الأبيض.

في كتاب بسحر أسود، كان بول موران يصفُ لنا ظاهرةً مماثلة؛ لكننا تعلّمنا لاحقاً أن نكون حَذِرين من بول موران. فمن وجهة النّظر البسيكولوجية، قد يكونُ مفيداً أن نثير المسألة التالية. للمولَّدة المتعلمة، خصوصاً الطالبة، سلوك ملتبس مرَّتين. إنها تقول: «أنا لا أحبُّ الزنجي، لأنّه متوحّش. ليس متوحّشاً، برياً، بمعنى آكل لحم البشر، بل لأنّه يفتقرُ إلى اللطافة والرِّقة». إنّها وجهة نظر تجريدية. وعندما يُعترض عليها بالقول إن السُّود قد يكونون أرقى منها على هذا الصعيد، تتذّد بيشاعتهم. إنها وجهة نظر التصنّع. أمام بيّنات جمالية سوداء حقيقيّة، تقول إنها لم تفهمها؛ عندئذ تجري المحاولة لكشف أصول هذه الجمالية لها: رفيف أجنحة الأنف، انقطاع النّفس، «إنها

(1) م ن، ص 489.

حرّة في اختيار زوجها». إنها في آخر المطاف دعوة إلى الذاتيّة. إذا كان، كما تقول آنّا فرويد، يجري قمع الأنا ببتره عن كل مسار دفاعيّ، «وإذا جُعلت واعيةً نشاطاته، فإننا نُعلن، وبذلك نجعل مساراته الدفاعية غيرَ فاعلة، إذْ نُضعِفه أكثر ونشجّع المسارَ المَرَضي»[1].

لكنْ، هنا، ليس للأنا أن يدافع عن نفسه، ما دامت مطالبُه متناظرة؛ ديديه تتزوّج أبيضَ. إلّا أن لكل ميدالية قفاها؛ فقد أهينت عائلات بأكملها. ولقد ألحقَ بثلاث أو أربع مُولَّدات، خُلاسيّات، فرسانٌ خلاسيّون، بينما كان لكل رفيقاتهن فرسانٌ بيض. «لقد نُظِر إلى هذا الأمر، تخصيصاً، كأنه إهانة موجَّهة إلى عائلتهن بأسرها؛ وهي إهانة كانت تستوجبُ، على كل حال، إصلاحاً»[2] لأنّ هذه العائلات كانتْ مُهانةً في أشدّ تطلعاتها شرعيّةً، فالبترُ الذي كانت تعانيه، كان ينصبُّ على حركة حياتها بالذات... على توتّر وجودها...

بالرجوع إلى رغبة عميقة، كُنَّ يُردن أنْ يتغيّرنَ، «يتطوّرن». وكان يُنكَر عليهن هذا الحق، وفي كل حال كان حقاً متنازعاً عليه.

ماذا نقولُ في نهاية هذه المواصفات؟

سواء أتعلّق الأمرُ بمايوت كابيسيا، المارتينيكية، أم بنيني السانلويسية، فإننا نستكشف المسارَ نفسَه. وهو مسار ثنائي الطرف، محاولة تحجّب ـ عن طريق الاستبطان ـ بقيمٍ ممنوعةٍ أصلاً. ذاك

(1) آنّا فرويد، م س، ص 58.

(2) نيني، ص 498.

لأن الزنجية تشعر بدونيّتها، تتوقُ إلى أن تجعل نفسها مقبولةً في العالم الأبيض. وفي هذه المحاولة، ستستعين بظاهرة سندعوها تهيّجاً عاطفياً (Éréthisme affectif) .

إن هذا العمل يختمُ سبع سنوات من التجارب والمشاهدات؛ ومهما كان المجال الذي تناولناه، فقد كان هناك أمرٌ واحدٌ قد لفتنا، وهو: أنّ الزنجي عبد لدونيّته، والأبيض عبد لتفوّقه، ويتصرّفان، كلاهما، وفقاً لخطّ توجّهٍ عُصابي. كما أننا توصّلنا إلى تصوُّر انسلابهما بالرجوع إلى المواصفات التحليلية النفسانية. فالزنجي يقترب، في سلوكه، ويتقارب مع نمطٍ عُصابي هُجاسيّ، أو، إذا فضّلتم، يتموضع في عُصابٍ وضعي كامل. توجد لدى الإنسان الملوّن محاولة هرب من فرديّته، محاولة إعدام لوجوده ـ هنا. وكلما يعترض إنسانٌ ملوّن، يكونُ ثمّة انسلاب. وكلما يوافق إنسان ملوّن، يكون هناك انسلاب (اغتراب). سنرى لاحقاً، في الفصل السادس، أن الزنجيّ المُتَدنى ينتقل من القلق المُهين إلى الاتّهام الذاتي، الذي يستشعره حتى اليأس. فغالباً ما يُعاود موقفُ الأسود من الأبيض، أو من نظيره في الخلق، إنتاج كوكبة هذيانية تكاد تكون متكاملة تمسُّ المجال المَرَضيّ.

سيُعترض علينا بالقول: لا يوجد شيء مرضي ـ نفسي لدى السُّود اللذين نتناولهم هنا. مع ذلك، نريد إيراد حادثتين لهما دلالة رفيعة. منذ عدّة سنوات، عرفنا أسودَ، طالباً في الطب. كان يشعر شعوراً لا يطاق بأنه لا يُقدّر حقَّ قدره، ليس على الصعيد الجامعي، كما كان يقول، بل على الصعيد الإنساني. كان لديه شعور لا يطاق بأنه لن يتوصل أبداً إلى أن يُعترف به من قبل البيض كزميل، ومن قبل

المرضى الأوروبيين كدكتور. في لحظات الحدْس الهذياني[1] تلك، كان يشمل في لحظات الذعان الخصبة[2]، ومن ثمّ، ذات يوم، تطوّع في الجيش كطبيب مساعد؛ وكان يضيف، لا أقبل، مقابل أي شيء في العالم، أنْ أذهب إلى المستعمرات أو أن ألتحق بوحدة كولونيالية. كان يريدُ أنْ يكون بيضٌ تحت أوامره. لقد كان قائداً؛ وبهذه الصفة، كان ينبغي أن يُخشى جانبُه أو أن يُحترم. هذا في الواقع هو ما كان ينشده، وما كان يبحث عنه: جعل البيض يقفون منه موقف السُّود. هكذا، كان ينتقم من الصُّورة التي لازمته في كل لحظات حياته: الزنجي المرتعب، المرتجف، المُهان أمام السيّد الأبيض.

لقد عرفنا رفيقاً، مفتّشاً جمركياً في مرفأ من مرافىء المتروبول، كان متشدّداً جداً إزاء زيارات السُّواح أو العابرين. «لأنه، كما قال لنا، إذا لم تكن فظّاً، اعتبروكَ أبله، وبما أني زنجي سترى جيداً أنّ التعبيرين يتطابقان...».

في معرفة الإنسان، كتب آدلر: «لكي نجردَ تصوّر إنسانٍ للعالم، من المناسب الشروع باستقصاءات كما لو كان يجري استخلاص خطٍّ انطلاقاً من شعور طفلي حتى الوضع الراهن للأمور. ففي كثير من الحالات، سنتمكن على هذا النحو من رسم فعلي للطريق التي سلكها سالكٌ ما حتى الآن. إنه المنحنى، خط التوجّه الذي ترتسم عليه، باختصار، حياةُ الفرد منذ طفولته... لأن ما يحرّك حقاً هو

(1) Dublineau, *L'intuition délirante.*
(2) Lacan.

على الدوام خطَّ توجّه الفرد، الخط الذي يتعرّض شكله الخارجي، لبعض التعديلات؛ لكنْ، مضمونُه الرئيس، طاقته وحتى معناه بالذات، تستمر منغرسة فيه ودون تغيّر منذ الطفولة، ليس من دون اقتران بمحيط الطفولة، الذي سينفصل لاحقاً عن البيئة الأوسع، الملازمة للمجتمع البشري»[1].

إننا نتوقع، ونكاد نلمح أنَّ بسيكولوجيا آدلر الطبائعيَّة ستساعدنا على فهم تصوّر الإنسان الملوّن للعالم. بما أن الأسود عبد سابق، سنستعين هنا أيضاً بهيغل؛ وفي الختام، لا بد أنْ يتمكّن فرويد من تدعيم دراستنا.

نيني، مايوت كابيسيا: سلوكان يدعواننا إلى التفكير.

أليس هناك احتمالات أخرى؟

لكنّها مسائل ملفّقة لن نواجهها، سنقول في موضع آخر إنَّ كل نقد للموجود ينطوي على حلّ، ما دمنا قادرين على تقديم حلّ إلى نظيرنا، أي إلى الحرية.

فما نؤكّده، هو أنَّ العيبَ يجب أنْ يُطرد مرَّةً واحدة، وإلى الأبد.

---

(1) A. Adler: *Connaissance de l'homme*, (Payot), pp. 57-58.

الفصل الثالث

الإنسانُ المُلوَّن والبيضاء

من الجزء الأكثر سواداً في نفسي، عبر المنطقة المشطَّبة، تتصاعد هذه الرغبة في أنْ أغدو فجأةً أبيضَ.

لا أريد أن يُعترف بي كأسود، بل كأبيض.

والحال ـ وهذا اعتراف لم يصفه هيغل ـ مَنْ يستطيع القيام بذلك سوى البيضاء؟ فهي إذْ تحبّني، إنما تبرهنُ لي على أنّي جدير بحبّ أبيض. يحبونني كأبيض.

أنا رجل أبيض.

حبُّها يفتح لي الممرَّ الشهير الذي يُفضي إلى الثّبات النفسي الكلّي...

إني أتزوّج الثقافة البيضاء، الجمال الأبيض، البياض الأبيض.

ففي هذه الأثداء البيض التي تداعبُها يدايَ المديدتان، أجعل الحضارة البيضاء والكرامة البيضاء، حضارتي وكرامتي.

منذ ثلاثين سنة، كان أسودُ من أجمل السُّودان، في ذروة المجامعة مع شقراء «حرّاقة»، صاح في لحظة الانتعاظ: «ليحيا شولشر!». عندما نعرف أن شولشر (Schoelcher) هو ذلك الذي جعل

الجمهورية الثالثة تتبنّى مرسوم إلغاء الرّق، سنفهم أنّ من الواجب التوقف والتركيز قليلاً على العلاقات الممكنة بين الأسود والبيضاء.

سيُعترض علينا بالقول إن هذه النكتة ليست صادقة؛ لكنْ كونها قد تمكّنت من التجسد ومن الاستمرار على مدى الأجيال، يشكّل مؤشراً: إنها لا تخدع. ذاك أنّ هذه النُكتة تحرِّكُ صراعاً علنياً أو كامناً، لكنّه صراع حقيقي. فاستمرارُه يؤشر على الانتماء إلى العالم الأسود. بتعبير آخر، عندما تستمر حكايةٌ داخل الفولكلور، فذلك لأنها تعبّر، بنحوٍ ما، عن منطقةٍ في «النّفْس المحليّة».

مع تحليل- أنا مرتينيكية وبيْني، رأينا كيف كانت الزنجيّة تتصرَّفُ إزاء الأبيض، مع رواية رينه ماران (René Maran) ـ وهي على ما يبدو سيرة الكاتب ـ لنحاولْ أنْ نفهم ما يجري في حال الأسْود.

إن المسألة مُثارة بشكل رائع، لأنّ جان ڤنيز (Veneuse) سيسمح لنا بتعميق أكبر لموقف الأسود واستعداده. فما المقصود؟ جان ڤنيز هو زنجي من أصل أنتيلي، يقيم في بوردو منذ أمدٍ بعيد؛ وهو تالياً أوروبي. لكنّه أسود؛ وهو تالياً زنجي، هذه هي المأساة. فهو لا يفهم عرقَه، ولا يفهمُه البيضُ. وهو يقول: «إن الأوروبي عموماً، والفرنسي خصوصاً، غير الراضيين عن تجاهل زنجيّ مستعمراتهما، يُنْكرون هذا الذي صنعوه على صورتهم»(1).

إن شخصيّة الكاتب لا تعطي نفسها بالسهولة التي نتمنّاها. فهو يتيم، داخلي في مدرسة ريفيّة، وهو محكوم عليه أثناء العطلاتِ بالبقاء في القسم الداخلي. لدى أدنى ذريعة، ينتشر رفاقه وأصدقاؤه عبر فرنسا، بينما يعتادُ الزنجيُّ الصغير على الجمود، بحيث ستكون

(1) *Un homme pareil aux autres;* p. 11 (Éd. Arc-en-ciel).

الكتبُ خيرَ أصدقائه. في الطرف الأقصى، سأقول إن هناك تجريماً ما، شعوراً ما بالذنب، عدائية من الصعب ضبطها، في اللائحة الطويلة، الطويلة جداً، عن «رفاق الدَّرب» التي يبلّغنا إياها الكاتبُ: أقول في الطرف الأقصى، لأن المطلوب بالضبط هو المضي إلى هناك.

عاجز عن الاندماج، عاجز عن المرور مرورَ الكرام، سيتحدَّث مع الموتى، أو أقلّه مع الغائبين، وحديثه، خلافاً لحياته، سيعبرُ الأجيالَ والمحيطات. مارك أوريل، جوانفيل، باسكال، بيريز غالدوس، رابندرانات طاغور... إن كان علينا أن نعطي دمغة كاملة لجان ڤنيز، فلا بد من وصفه بأنه انطوائي، وقد يقول آخرون إنه حسّاس؛ لكنّه متحسّس يحتفظ لنفسه بإمكانية الربح على صعيد الفكر والمعرفة. وهذه واقعة، إذْ إن رفاقه وأصدقاءه يقدّرونه كثيراً: «يا له من حالم لا يُقوَّم، فهو أنموذج، تعلمون ذلك عن صديقي القديم ڤنيز! فهو لا يخرج من كتبه إلّا لكي يملأ دفتر يوميّاته بالخرطشات»[1].

لكنّه حسّاسٌ يغني بالإسبانيّة ويترجم إلى الانكليزية في آن واحد. وهو خجول؛ لكنّه قَلِقٌ أيضاً: «وفيما كنتُ أبتعد، سمعت ديفراند تقول له: صبي طيِّب، ڤنيز هذا، حزين ورقيق عن طيبة خاطر؛ لكنه كَتُوم جداً. يمكنكم الوثوق به. سترون. إنه زنجي كما يُراد أنْ يكون مثله كثير من البيض»[2].

أجل، هو بالطبع قلِق. إنّه قَلِقٌ ملتصق بجسمه. فنحن نعرف، من جهة أخرى، أنَّ السيد رينه ماران يكنّ حباً لأندريه جيد، ونحن نعتقد

(1) R. Maran, *op. cit.*, p. 87.

(2) *Ibid*, pp. 18-19.

أننا وجدنا لـ رجل مثل الآخرين، نهاية تذكّرنا بنهاية الباب الضيّق. فهنا الرحيل، هذا الصوت العاطفي المُعذَّب، هذه النبرة للاستحالة المعنوية، تبدو أنها تسترجع صدى مغامرة جيروم وآليسا.

لكنْ، هناك واقعة أن فنيز أسود. فهو دبّ يحبُّ العزلة. إنّه مفكِّر. وعندما ترغب امرأة في مغازلته: «جئتِ باحثة عن الدّب فيَّ! كوني حذرة، سيدتي الصغيرة. من الجميل أن يكون المرءُ جَسوراً؛ لكنكِ سوف تتورّطين إذا واصلتِ إظهار نفسك على هذا النحو! زنجي. تبّاً، إذاً هذا لا يُحسب حسابه. من الانحطاط المضي مع أي فرد كان من هذا العرق»[1].

في المقام الأول، يريد أن يبيّن للآخرين أنّه إنسان، أنه رجل مثلهم، لكنْ لا ننخدعنْ بذلك البتّة، فجان فنيز هو الإنسان الواجب إقناعه. فالارتيابُ يقبع في صميم نفسه، المعقَّدة مثل نَفْس الأوروبيين. فلنعتذرْ على الكلمة: جان فنيز هو الإنسان الواجب التغلب عليه. سوف نكبُّ على هذا الأمر.

بعد ذكر ستاندال وظاهرة «التبلّر»، يلاحظ «أنّه يحبُّ أخلاقياً، معنوياً، آندريه، في مدام كولانج، ويحبها جسدياً مع كلاريس. هذا بلا معنى. لكن الحال هكذا، فأنا أحبُّ كلاريس، أحبُّ مدام كولانج، على الرغم من كوني لا أفكّر حقاً في هذه ولا تلك. فهما، بالنسبة إليّ، مجرّد مكيدة تسمح لي بأنْ أعطي البديلَ لنفسي. لقد درست آندريه فيهنّ وتعلّمت أنْ أعرفها عن ظهر قلب... لا أدري. لم أعد أدري. لا أريد أن أسعى لمعرفة أي شيء، أو بالأحرى لم أعد أعرف سوى شيء واحد، هو أنَّ الزنجي هو إنسانٌ

---

(1) *Ibid*, pp. 45-46.

مثل الآخرين، إنسان كالآخرين، وأن قلبه، الذي لا يبدو بسيطاً إلّا للجاهلين، هو أيضاً قلبٌ معقّد مثلما يمكن أنْ يكونَ قلبُ الأوروبيّين الأكثر تعقيداً»[1].

لأنَّ البساطة الزنجية هي أسطورة اصطنعها المراقبون السطحيّون. «أحبُّ كلاريس، أحبُّ مدام كولانج، وآندريه ماريل هي التي أُحبُّ. وحدها، لا أحد سواها»[2].

فمن هي آندريه ماريل؟ تعرفون، إنها بنت الشاعر لويس ماريل! لكن هاكم، هذا الزنجي، «الذي ارتقى بذكائه وعمله الدؤوب، إلى تفكير أوروبا وثقافتها»[3]، العاجز عن الهرب من عرقه.

آندريه ماريل بيضاء، وكل حل يبدو ممتنعاً. غير أن التردّد على بايو، جيد، موررياس وفولتير، بدا وكأنه قضى على ذلك كله، وبنيّةٍ حسنةٍ، جان ڤنيز «صَدّقَ هذه الثقافة وراح يحبُّ هذا العالَم الجديدَ المُكتشفَ والمُتاح لاستعماله. فأي خطأ كان خطأه! كان يكفيه أن يكبر وأن يمضي لخدمة وطنه الثاني، في بلد أجداده، حتى يتوصَّل إلى التساؤل عما إذا لم يكن جميعُ المحيطين به قد خانوه، فالشعبُ الأبيض لا يعترف به كواحدٍ منه، ويكاد الأسود يُنكره»[4].

حين يشعر جان ڤنيز بأنه عاجز عن الحياة من دون حبّ، سيحلم به. سيحلم به وهذه هي قصائده:

«عندما نحبّ لا ينبغي أنْ نقول شيئاً

(1) p. 83.
(2) *Ibid.*
(3) p. 36.
(4) p. 36.

حتى إنّ من الأفضل أن تتخلّى عنه».

آندريه ماريول كتبت له حبًها؛ لكنّ جان فينز كان يحتاج إلى إذن. يجب أنْ يقولَ ابيضُ له: خذْ أختي. فنيز أثار عدداً من الأسئلة الموجّهة إلى صديقه كولانج. إليكم، بالتمام تقريباً، جواب كولانج:

«أولد بوي،

تستشيرني مجدّداً حول حالتك، ساعربُ لكَ عن رأيي، ثانية، ونهائياً، لنشرعْ بالترتيب. إنَّ وضعك كما تشرحه لي، هو من أوضح الأوضاع. مع ذلك، إسمحْ لي بكنس المضمار أمامكَ. فهذا سيكون مفيداً لكَ.

أي عمر كان لك، إذاً، عندما غادرتَ بلدَكَ إلى فرنسا؟ ثلاث أو أربع سنوات، على ما أظن. ومنذ ذلك الحين لم ترّ أبداً جزيرتك الأصلية، ولا ترمي إلى رؤيتها مجدّداً. منذ ذلك الحين، عشتَ دائماً في بوردو. وفي بوردو، منذ أن صرت موظفاً كولونيالياً، تقضي القسمَ الأكبرَ من عطلاتكَ الإدارية. باختصار، أنتَ فعلاً من بلادنا. ربما لم تأخذ ذلك كثيراً في الحسبان. اعلمْ، في هذه الحالة، أنكَ فرنسيّ من بوردو. اغرسْ هذا في رأسك. فأنتَ لا تعرف شيئاً عن مواطنيك، الأنتيليين. حتى إنني أندهش من توصّلك إلى التفاهم معهم. فهؤلاء الآخرون اللذين أعرفهم لا يشبهونكَ بشيء.

عملياً، أنتَ مثلنا، أنتَ «نحن». أفكاركَ هي أفكارُنا. فأنت تتصرّف مثلما نتصرّف، كما يمكنُ أن نتصرّف. أنت تعتقد - ويعتقدون - أنك زنجي؟ خطأ! فأنتَ لا تحمل من ذلك سوى المظهر. بالنسبة إلى البقية، أنت تفكّر كأوروبي. من هنا، من الطبيعي أن تحبّ كما يحبّ الأوروبي، وبما أن الأوروبي لا يحبّ سوى الأوروبية، فأنتَ لا تستطيع أنْ تتزوج سوى امرأةٍ من البلد

الذي عشتَ فيها دواماً، بنت من البلد الطيب، فرنسا، بلدك الحقيقي، الوحيد. والحال، لتنتقل إلى موضوع رسالتك الأخيرة، فمن جهة، هناك مدعو، اسمه جان ڤنيز، أسمر جداً، ويحب آندريه ماريبل حتى العبادة. هذا لا يمنعك أن تسألني عمّا يجب فعله. يا لكَ من غبيّ لذيذ!...

«لدى عودتك إلى فرنسا، سارع إلى والد تلكَ التي تشغل نفسَك، واصرخْ به وأنتَ تضرب على القلب بقوة: «أحبّها. تحبّني، إننا متحابون. يجب أن تصبح امرأتي. وإلّا قتلتُ نفسي عند قدميكم[1]».

بعد التوسّل إليه، يوافق الأبيضُ، إذاً، على إعطائه أخته ـ لكن بشرط: لا شيء مشتركاً بينكَ وبين الزنوج الحقيقيّين. فأنت لست أسودَ. إنما «أنتَ أسمر سماراً مفرطاً».

هذه السيرورة يعرفها جيّداً الطلبة الملوّنون في فرنسا. يُرْفَض اعتبارهم بمثابة زنوج أصليّين. فالزنجي هو البرّي، بينما الطالبُ مُتطوّر. أنتَ «نحن»، يقول له كولانج، وإن كنتَ تظنُّ أنكَ زنجي، فهذا خطأ، وليس لديك من الزنوجة سوى المظهر. لكنَّ جان ڤنيز لا يريده، إنه لا يستطيع، لأنه يعرف.

يعرف «أن المولّدين العاديين والزنوج، المسعورين من هذا النَّبذ المُهين، ليس لديهم سوى فكرة واحدة منذ أن يصبحوا في أوروبا: إشباع شهيّتهم، اشتهائهم للمرأة البيضاء.

إن معظمهم، ومن بينهم هؤلاء اللذين يلعبون غالباً، وهم ذوو بشرة أكثر صفاءً، إلى حدّ إنكارهم بلدَهم وأمَّهم، إنّما يتزوَّجون فيها

(1) pp. 152-153-154.

زيجاتٍ إذعانٍ أقل منها زيجاتٍ يكون فيها إشباعُ الهيمنة على الأوروبيّة مَشوياً بحبّ معيّن لثأرٍ مُتعجرف.

وعليه، أتساءلُ إن لم يحدثْ لي مثلما يحدث للجميع، وعما إذا كنتُ، حين أقترنُ بكِ أنتِ الأوروبية، لا يبدو عليَّ أنّني أعلنُ، ليس فقط كرهي لنساءِ عرقي، بل أكون منجذباً برغبة اللحم الأبيض، المحظور علينا، نحن الزنوج الآخرين، منذ أنْ هيمنَ الرجال البيض على العالم، فأبذل جهدي، بعماهة، لأنتقم لنفسي من أوروبية، ومن كل ما فعله أجدادُها بأجدادي على مدى الأجيال»[10].

كم يلزم من الجهود للتخلص من الحاحية ذاتية. فأنا أبيض، مَولود في أوروبا، جميعُ أصدقائي بيض. لم يكن هناك ثمانية زنوج في المدينة التي كنت أقطنها. أنا أفكّر بالفرنسيّة، دياتني هي فرنسا. أتفهمونني، أنا أوروبي، أنا لست زنجياً، ولكي أبرهن لكم على ذلك، سأقوم، بوصفي وصيفاً مدنياً، بإظهار الفرق الحقيقي الموجود بين الزنوج الحقيقيين وبيني. وعليه، عاودوا قراءة الكتاب بانتباه، وسوف تقتنعون:

من يقرع على الباب؟ آه! هذا صحيح.

ـ نعم، يا قومندان.

ـ ماذا تريد مني؟

ـ النداء. خمسة حرّاس في الخارج. سبعة عشر سجيناً ـ لا ينقص أحد.

ـ إلى جانب ذلك، لا شيء جديداً؟ لا أخبار من الساعي؟

ـ كلا، مون قومندان»[11].

---

p. 185. (1)

p. 162. (2)

للسيد ڤنيز حمّالون. له زنجيّة شابة في كوخه. وهو يشعر أن الشيء الوحيد الذي ينبغي قوله للزنوج الذين يبدو عليهم الأسف لرحيله، قد يكون: «إرحلوا، إرحلوا! أنظروا... أنا حزين لمغادرتكم. إرحلوا! لن أنساكم. لن أبتعد عنكم إلّا لأن هذا البلد ليس بلدي، ولأني أشعر فيه بالوحدة الشديدة، بالفراغ الكبير، وبالحرمان المفرط من كل هذه الرفاهية اللازمة لي، والتي ما زلتم لا تحتاجون إليها، لحسن حظكم»[1].

عندما نقرأ عباراتٍ كهذه، لا نستطيع أن نمنع نفسنا من التفكير بفليكس إيبويه (F. Éboué)، بأسود كريه، الذي أدرك في الظروف ذاتها واجبه بطريقة مختلفة تماماً. ليس جان ڤنيز زنجياً، ولا يريد أن يكون زنجيّاً. ولكن، من دون علمه، حصلت حادثة. هناك شيء ما لا يمكن تحديده، لا يمكن تكراره، هو حقاً ما يسميه هارولد روزنبرغ[2]، الـ «That within».

في رسالة لويس ـ ت. آخيل إلى الملتقيات ما بين الأعراق، سنة 1949، كان يقول:

«فيما يختصّ بالزواج بين الأعراق بالذات، يمكن التساؤل إلى أي حدّ لا يكون أحياناً بالنسبة إلى الشريك الملوّن، نوع من التكريس الذّاتي للإبادة الذاتية، الإبادة في ذاته لوهم اللون الذي عانى منه طويلاً. قد يكون من المفيد درس هذا الأمر في عددٍ من الحالات، وربما قد يكون مهماً البحث في هذا الدافع الغامض عن سبب بعض

(1) p. 213.

(2) «Du Jeu au Je, Esquisse d'une géographie de l'action», *Les Temps Modernes*, 1948.

الزيجات المتحققة بين الأعراق، خارج الشروط الطبيعية للعائلات السعيدة. فبعض الرجال أو بعض النساء يتزوجون، في الواقع، أشخاصاً من عرق آخر، لهم وضع أو ثقافة أدنى من وضعهم وثقافتهم، لم يكونوا قد تمنّوا اتخاذهم شركاء لهم، في عرقهم الخاص، والذين يبدو أنّ ورقتهم الرابحة الرئيسة هي ضمانة للانسلاخ عن الأرض ولـ «تصفية العرق» (الكلمة المرعبة) بالنسبة إلى الشريك. فلدى بعض الأشخاص الملوّنين، تبدو ظاهرة الزواج من شخص أبيض العرق، قد تغلّبت على كلّ اعتبار آخر. فهم يجدون فيها وسيلةً للوصول إلى مساواة شاملة مع هذا العرق الشهير، السائد على العالم، المهيمن على الشعوب الملوّنة...»[1].

تاريخيّاً، نعرف أنّ الزنجي المذنب بمضاجعة بيضاء، يكون مخصيّاً، فالزنجي الذي حاز على بيضاء، يشكّل تابو بالنسبة إلى أبناء جلدته. ومن اليسير على الفكر الإحاطة بهذه الدراما ذات الانشغال الجنسي. وهذا بالذات ما ينزل إليه المثال القديم للعم ريموس (Rémus): الأخ لاپان (Lapin)، الذي يمثّل الأسود. فهل سيتوصل أم لن يتوصل إلى مضاجعة ابنتي مدام ميدوز (Meadows)؟ هناك صعود وهبوط في الأشياء، وهذا كله يرويه زنجي ضاحك، ظريف، مرح؛ زنجي يعطي وهو يتبسّم.

بينما يستفيق ببطءٍ شديد على زعزعة البلوغ الجنسي، أُتيحت لنا فرصة الإعجاب بواحدٍ من رفاقنا العائد من المتروبول، الذي كان قد ضمّ باريسيّةً بين ذراعيه. سنحاول تحليلَ هذه المسألة في فصلٍ خاص.

---

(1) p. 113, *Rythmes du Monde*, 1949.

بعدما تحادثنا مؤخراً مع بعض الأنتيليّين، علمنا أنَّ الهاجس الأثبت لهؤلاء الذين كانوا يصلون إلى فرنسا، كان النوم مع بيضاء. فما أنْ يصلوا إلى الهافر، حتى يتوجَّهوا إلى البيوتات المُغلقة. وبعد إكمال هذه الشعيرة التدريبية على الرجولة «الحقيقية»، يركبون القطار إلى باريس.

لكنّ المهمّ هنا، هو استجواب جان ڤنيز. لهذه الغاية، سنستعين كثيراً بكتاب جيرمين غيكس[1]:

حين تعارضُ الكاتبة العُصاب المسمّى، عُصاب الهجر، ذا الطبيعة ماقبل الأوديبيّة، بالنزاعات الحقيقية، مابعد الأوديبية، التي تصفها الأورثوذكسية الفرويديّة، تقوم بتحليل نمطين، يبدو أنَّ أولهما يصوِّر وضع جان ڤنيز:

«على القوائم الثلاث، للقلق الذي توقظه كل حالة هجر، وللعدائية التي يولِّدها القلقُ، وللتبخيس الذاتي الذي ينجم عنهما، تُبنى كل علوم التشخيص المرضي لهذا العُصاب»[2].

كنا قد جعلنا من جان ڤنيز انطوائياً. ونحن نعرف، طبائعياً، أو بشكل أفضل فنومنولوجياً، أننا نستطيع جعل الفكر الاجتراري تابعاً لاستبطان أولي[3].

«لدى الشخص من النمط السلبي العدواني، يشلُّ هُجاسُ الماضي مع كل محابطاته، فراغاته، نكساته، حبُّ الحياة. عموماً، يكون أكثر استبطاناً من الإيجابي المحب، فهو ينزع إلى استرجاع خيباته الماضية والحاضرة، مطوِّراً في ذاته منطقة سرية نسبيّاً من الأفكار والمشاعر

---

(1) Germaine Guex, *La névrose d'abandon*, *Presses Universitaires de France*, *1950*.

(2) P. 13.

(3) Minkowski, *La Schizophrénie*, 1927.

المُرَّة المتقززة، تشكل غالباً نوعاً من الاجترارية. لكن، خلافاً للاجتراري الحقيقي، يعي المعتزل، المهجور، هذه المنطقة السرية التي يرعاها ويدافع عنها ضد كل تدخل. فهو أكثر تركيزاً حول ذاته من العُصابي من النمط الثاني (المحب الإيجابي)، إذ إنه ينسب كلَّ شيء إلى ذاته. وبما أنَّه ذو طاقة غيرية ضئيلة، فإن عدوانيته وحاجته الدائمة إلى الانتقام، تجمِّدان طاقاته الحيوية. فانطواؤه على نفسه لا يسمح له بأن يقوم بأية تجربة إيجابية من شأنها التعويض عن ماضيه. كما أن غياب التقويم، وانطلاقاً منه، غياب الأمان العاطفي، يكون لديه شبه كامل؛ من هنا، ينتابه شعور شديد جداً بالعجز أمام الحياة والكائنات، والرفض الكلي للشعور بالمسؤولية. لقد خانه الآخرون وأحبطوه، ومع ذلك فإنه ينتظرُ من الآخرين وحدَهم تحسيناً لحالته»[1].

إنه وصف رائع، ينطبق على شخصِ جان ڤنيز، لأنه، يقولُ لنا: «كان يكفي أن أتقدّم في السن وأن أمضي لخدمة وطني الثاني، في بلد أجدادي، حتى أتوصل إلى التساؤل عما إذا لم يكن قد خانني[2] كلُّ ما كان يحيط بي، إذْ إنَّ الشعبَ الأبيض لا يعترف بي كواحد من بنيه، والأسودَ يكادُ يُنكرني. هذا هو وضعي بالضبط»[3].

اتجاه لتجريم الماضي، تبخيس للذات، استحالة أن يفهمه أحد كما يتمنّى. أصغوا إلى جان ڤنيز:

«مَنْ سيحكي يأسَ أبناء البلدان الحارة، الذين يسكنهم ذووهم في فرنسا، باكراً جداً، بقصد أن يجعلوهم فرنسيّين حقيقيّين! ويقولون

---

(1) pp. 27-28.

(2) التشديدُ لنا.

(3) p. 36.

باكين إنَّ ذويهم يدخلونهم بين ليلة وضحاها تلاميذ داخليين، بينما هم في غاية الحرية والحيوية، بادعاء فعل ذلك «لمصلحتهم».

«لقد كنتُ من أولئك اليتامى المتقطعين، وظللت طيلةً حياتي أتوجعُ مما كنتُه. عند السابعة، أوكلوا طفولتي المدرسية إلى ثانوية كبيرة، حزينة، تقع في قلب الرّيف... لكنَّ ألعاب المراهقة الألف لم تستطع أبداً أنْ تُنسيني كم كانت مراهقتي مُوجعة. فمزاجي يدين لها بهذه الكآبة الحميمة وهذا الخوف من الحياة المجتمعية التي تقمع اليوم حتى أقلّ بوارقي وإشراقاتي...»[1].

هذا مع أنه كان يرغبُ في أنْ يحظى برعاية، فهو لم يكن يريد أنْ يكون متروكاً. في العطلات، يذهبُ الجميعُ ووحدَه، احفظوا الكلمة، يبقى وحدَه في الليسيه البيضاء الكبيرة...

يا للدموع تلك التي ذرفها الطفل دون أن يلقى مواساة من أحد... لن ينسى أبداً أنهم أخضعوه باكراً للتدرب على العُزلة... وجود محجوب، وجود انطوائي وانغلاقي حيث تعلّمت مبكراً جداً كيف أتأمّل وأفكّر. حياة عزلة صارت، مع طول الأمد، تنفعل بأي شيء – بسببك، أنت صرت حساساً في الداخل، عاجزاً عن تخريج فرحي أو ألمي، أرفض كلَّ ما أحبّ وأنقلب، رغماً عني، عن كل ما يجتذبني»[2].

فما المقصود؟ ساران: لا أريد أن أُحَبّ. لماذا؟ لأنني، ذات يوم، منذ أمدٍ بعيد جداً، سعيتُ إلى إقامة علاقة موضوعية، وجرى التخلّي عني، لم أغفر أبداً لأمّي. فعندما تركتني، صرتُ أعذّب الآخرَ، وصار التخلي عنه هو التعبير المباشر عن حاجتي الانتقامية. رحلتُ إلى أفريقيا؛ لا أُريد أنْ أُحَبّ، وهربتُ من الموضوع

(1) p. 227.

(2) p. 228.

(القابل). هذا يُدعى، كما تقول جرمين غيكس «البرهان بالامتحان».
لا أريد أن أكون محبوباً، فأعتمد موقفاً دفاعياً. وإذا استمر الموضوع، فسوف أعلن: لا أريد أنْ أُحَبّ.

تبخيس؟ نعم، بكل تأكيد. «فهذا التبخيس للذات كموضوع جدير بالحب، يكون ذا عاقبة خطيرة. فمن جهة، يُبقي الفردَ في حالة قلقٍ داخلي عميق، وإذا السبب يصدُّ أو يزيّف كل علاقة مع الغير. وهو كموضوع جدير باستثارة الودّ أو المحبة، يشكُّ الفردُ بنفسه. فقط يظهر التبخيس العاطفي لدى الكائنات التي تعذّبت وعانت من نقص حبّ أو نقص تفهّم طيلة طفولتها الأولى»[1].

كان جان فنيز يتمنّى أنْ يكون رجلاً مثل الآخرين؛ لكنّه يعرف أنّ هذا الوضع زائف. فهو ساعٍ. إنه يسعى وراء الطمأنينة، ويبحث عن الإذن والسماح في عيني الأبيض. لأنّ هذا الأبيض هو «الآخر». – دائماً يفضي التبخيس الذاتي العاطفي، إلى جعل المهجور يعاني من شعور حاد جداً بالطّرد، الشعور بأنه لا مكانة له في أي مكان، وأن وجوده فائض أينما حلّ، بالمعنى العاطفي... أن يكون «الآخر»، تعبيراً صادفته في عدّة مناسبات في لغة المصابين بداء الهجران، أن يكون «الآخر» معناه أنْ يشعر دوماً بأنه في وضع مضطرب، وأنّه مُسْتَنفر، جاهز للترك و... عامل، لا شعورياً، كل ما يجب عمله حتى تقع الكارثة المتوقّعة.

لا نستطيع الإحاطة تماماً بشدّة العذاب الذي يُرافق حالاتِ هجْر كهذه، العذاب الذي يتعلّق من وجهٍ بتجارب الاستبعاد في الطفولة، ويُحيي عملياً كلّ حدّتها...»[2].

(1) G. Guex, *op. cit.*, pp. 31-32.
(2) Ibid., p. 35-36.

يُطالبُ المتروكُ ببراهين. فهو لا يعود يكتفي بأقوال معزولة، فهو لا يثق، وقبل عقد علاقة موضوعية، يتطلب من الشريك براهين متكرِّرة. أما معنى موقفه فهو «أن لا يُحب حتى لا يُترك». ذاك أن المتروكَ هو إنسان متطلّب. وهو يطالب بحقّه في كل التعويضات والتصليحات. يطلبُ أنْ يُحبّ حباً شاملاً، مُطلقاً وإلى الأبد. اسمعوا:

«حبيبي جان،

«لم أتلقَ رسالتك بتاريخ تموز/جويليه الأخير، إلّا اليوم. إنها غير معقولة كلياً. لماذا تعذبني هكذا؟ فأنتَ ـ هل تدرك ذلك حق الإدراك؟ ـ قاسٍ قسوةً لا يُدانيها شيء. وأنتَ تمنحني سعادةً ممتزجة بالقلق. أنتَ تجعلني في آنٍ أسعدَ المخلوقات وأشقاها. كم ينبغي لي أنْ أكرّر أني أحبُّك، أني لكَ، وأنّي أنتظرك. تعال»[1].

أخيراً المتروكُ صار تاركاً. صار مطلوباً. صارت هناك حاجة إليه. إنه محبوب. ومع ذلك، يا للاستيهامات! أتحبّني حقاً؟ أتنظر إليّ موضوعياً؟

«ذات يوم، سيّد، صديق كبير لبابا ند (Ned)، وصل، ولم يكُن بونتابونت قد رآه أبداً. لقد جاء من بوردو. لكن، يا الله! لكم كان وسخاً، يا الله! لكم كان بشعاً هذا السيد الكبير، صديق باباند! كان له وجه أسود حقير، أسود تماماً، مما يدلّ على أنه لم يكن يغتسل غالباً»[2].

جان فنيز، المهتمّ بأنْ يجد في الخارج أسباباً لعقدته، عقدة

---

(1) pp. 203-204.

(2) pp. 84-85.

سانتريون، يُسقط على الولد، في عمر ثلاث أو أربع سنوات، الترسانة العِرقية المُقَوْلبة، وسيقول لأندريه:

«قولي، يا عزيزتي أندريه... على الرغم من لوني، أترتضين أن تصبحي زوجتي، لو طلبت ذلك منك؟»[1].

إنّه يشكّ بقوة. هاكم ما تقوله عنه جيرمين غيكس:

«السمة الأولى تبدو أنّها الخوف من إظهار الذات كما هي. وهذا، ها هنا، مجال واسع لمخاوف شتّى: خوف من التسبب بالخيبة، والكدر، والضجر، وتثبيط العزائم... وتالياً، خوف من تفويت فرصة لإقامة علاقة ودية مع الآخر، أو، في حال وجودها، خوف من الإساءة إليها. المصاب بداء الهجران يرتابُ في إمكان أن يُحَبّ كما هو، لأنه عانى التجربة القاسية في الهجران، فيما كان يعرضُ نفسه على حنان الآخرين، وهو صغير جداً، وإذاً، بلا تكلّف»[2].

إلّا أن حياةَ جان ڤنيز لم تكنْ تفتقر إلى ما يشكل مصدر تعويض له. فهو نظم الشعر. وقراءاته مهولة، إذ إن دراسته عن سواريز في غاية الفطنة. وهذا ما حلّلته أيضاً جيرمين غيكس: «حبيس نفسه، منكفىء على حاله بحاله، السلبي ـ العدائي يضخِّم إحساسه بعدم قابلية إصلاح كل ما كان يواصل فقدانَه أو كل ما كانت سلبيّته تجعله يفقده... كذلك، وباستثناء قطاعات متمايزة مثل حياته الفكرية أو مهنته[3]، فإنه يحتفظ بشعور عميق بانعدام القيمة»[4].

---

(1) pp. 247-248.

(2) p. 39.

(3) التشديد لنا.

(4) p. 44.

إلى أين يتّجه هذا التحليل؟ لا يتوجّه إلى شيء سوى البرهان لجان ڤنيز على أنه، بالفعل، ليسّ كمثل الآخرين. كان يقول جان بول سارتر: جعل الناس يخجلون من وجودهم. نعم: يعني دفعهم إلى استيعاءِ الإمكانات التي حرموا نفسهم منها؛ استيعاء السلبيّة التي أنموا عنها في مواقفَ كان ينبغي بالضبط، كما في حالة الشوكة، أنْ يتشبثوا بقلب العالم، وأن يسرعوا، إذا لزم الأمر، نبضات قلب العالم، وأنْ يحوّلوا، كذلك إذا لزم الأمر، مكان نظام القيادة؛ لكنْ في كل حال، وبكل تأكيد، أن يواجهوا العالم.

جان ڤنيز هو المعذب في الحياة الداخلية. عندما يستكشف آندرييه، وهو في مواجهة هذه المرأة التي يرغب فيها منذ أشهر طويلة، يلوذُ بالصمت... الصمت الأنيق، المتألق جداً، صمت أولئك الذين «يعرفون كيف يتكلّفونَ الكلام أو الحركة».

فجان ڤنيز هو عُصابيّ، وما لونُه سوى محاولة لتفسير بنية نفسانية ما. فلو لم يتوجد هذا الاختلاف الموضوعي، لكان اختلقه كلياً.

إن جان ڤنيز واحد من هؤلاء المثقّفين الذين يريدون التموضع فقط على صعيد الفكر. فهو عاجز عن الاتصال اتصالاً ملموساً بأنداده. لئن كان يواجَه بمعاملة فيهاطية وتهذيب وإنسانية، ذلك لأنّه مطّلع على أسرار شتى لآخرين. إنه «يعرفها» فيظل على حذره. «إن حذري فرضة توقيف إن جاز التعبير. فأنا أستقبل بتهذيب وسذاجة العروضَ التي يعرضونها عليَّ. أتقبّل ما يقدّم لي من مشهّياتها وأعيدها، وأشارك في الألعاب المجتمعية الصغيرة التي تنظم في المناسبات؛ لكنّي أقع في أسر حسن الوفادة التي أحظى بها، فأنا حَذِرٌ من هذه

المخالطة المبالغ بها التي حلّت بسرعة شديدة نسبيّاً محل العداوة التي جرت المحاولة من خلالها، في الماضي، لعزلي»[1].

. إنّه يتقبّل المقبّلات ويردُّها. فهو لا يريد أنْ يدينَ لأحدٍ بشيء. لأنه إذا لم يردّها إلى أصحابها، يكون زنجيّاً، عاقاً مثل الآخرين.

هل يعامل بشراسة؟ تماماً، فلأنه زنجي. إذ إنه ليس بالإمكان إلّا أن نمقته. والحال، إننا نقول ذلك فجان ڤنيز الملقب برينيه ماران، ليس أكثر ولا أقل من مصاب هجراني أسود. وهو يُعاد إلى موضعه، إلى مكانه الصحيح. فهو عُصابي يحتاج إلى الانعتاق من هواماته الطفلية. ونحن نقول إن جان ڤنيز لا يمثّل تجربة لعلاقات الأسود ـ الأبيض، لكنّه يمثل طريقة سلوك معينة لعُصابي أسود بالمصادفة. ويتوضّح موضوع دراستنا: السّماح للإنسان الملوّن بأن يدرك، من طريق أمثلة واضحة، الدوافع البسيكولوجية التي يمكنها إيقاع أبناء جلدته في حالة استلاب. سنشدّد أكثر على هذا الأمر في الفصل المخصّص للترصيف الفنومنولوجي؛ لكنْ، فلنتذكر، أنْ هدفنا هو أن نمكّن الأسود والأبيض من لقاء سليم.

جان ڤنيز بشع. إنه أسود. ماذا يُراد أكثر؟ لنعاود قراءة بعض مشاهدات فيكس، وعندها سنقتنع بهذه البيّنة: إنسان مماثل للآخرين، هو دجل، محاولة لجعل الاتصال بين العرقين مرتبطاً بمَرضيّة تكوينيّة. لا بد من الاتفاق على أن التكوين، على مستوى التحليل النفسي كما هو على مستوى الفلسفة، ليس أسطورةً إلّا لمن يتخطّاه. ولئن تعيَّن علينا، من زاوية المنهج الكشفي، أن ننكر كل

(1) p. 103.

وجود للتكوين، يبقى أن هناك أفراداً يبذلون قصاراهم للولوج في أطر موضوعة سابقاً، ونحن لا نستطيع أن نفعل شيئاً ضد ذلك. أو على الأقل، بلى: نستطيع القيام بشيء ما.

تحدّثنا منذ قليل عن جاك لاكان: ولم يكنْ ذلك مصادفة. سنة 1932، وجّه في أطروحته نقداً لاذعاً لمفهوم التكوين. ظاهرياً، نبتعد عن خلاصاته، لكننا سندرك تباينتا عنه، عندما سنتذكر أننا نستبدل مفهوم التكوين بالمعنى الذي تذهب إليه المدرسة الفرنسية، بمفهوم البنية ـ «التي تشمل الحياة النفسية اللاشعورية كما نستطيع أن نعرفها جزئياً، خصوصاً في صورة المكبوت والكابت، على قدر ما تسهم هذه العناصر إسهاماً فعّالاً في التنظيم الخاص لكل فرادة نفسانية»[1].

وكما رأينا، لدى الفحص يتكشّف جان قنيز عن بنية مصاب هجراني، من النمط السلبي ـ العدائي. يمكن أن نحاول تفسير هذا، استرجاعياً، تفاعلياً، أي بالتفاعل بين البيئة والفرد، وأن نصف علاجاً يقوم، مثلاً، على تغيير بيئي، «تغيير جو». بالضبط، رأينا أن في حالة كهذه، كانت البنية مستمرة. فتغيير الجو الذي فرضه جان قنيز على نفسه، لم يكنْ بقصد التموضع كإنسان؛ فهو لم يكنْ يرمي إلى تشكيل سليم للعالم؛ إذْ لم يكن يبحث البتّة عن هذا الرسوخ المميّز للتوازن النفسي ـ الاجتماعي، بل كان يسعى إلى توطيد عُصابه في ما له من أسباب خارجية.

إن البنية العُصابية لفردٍ ما ستكون بالضبط البلورة، التشكيل والتفتيح في الأنا لعقد نزاعية، مأزميّة، صادرة عن البيئة من جهة،

(1) G. Guex, *La névrose d'abandon*, p. 54.

وعن الطريقة الشخصية التي يردّ بها هذا الفرد على هذه المؤثّرات، من جهة ثانية.

كما وجدت محاولة تضليلية للاستخلاص من سلوك نيني ومايوت كاپيسيا، لقانون عام لسلوك السوداء تجاه الأبيض، يمكن أن يكون هناك، كما نؤكد، نقص في الموضوعية إذا جرى تعميم موقف ڤنيز واعتباره موقفاً للإنسان الملوَّن كإنسان ملوّن، وكنا نتمنّى التمكن من إحباط كل محاولة رامية إلى ردّ نكسات جان ڤنيز إلى التركيز الكبير، نسبياً، على صبغة بشرته.

ينبغي على هذه الأسطورة الجنسية ـ خرافة البحث عن الجلد الأبيض ـ، أن لا تعود، منقولة بواسطة ضمائر مسلوبة، فتحول دون فهم فعّال.

في كل حال، لا ينبغي الشعور بلوني كأنّه عاهة. فمنذ أن يتقبّل الزنجي الشرخَ الذي يفرضه الأوروبي، لا تعود أمامه فُسحة و «منفذ»، ألا يكون مفهوماً أنْ يحاول الارتقاع نحو الأبيض؟ الارتقاع في سلَّم الألوان التي يُعيِّن لها نوعاً من الهيكلية؟»[1]

سترى أن حلاً آخر يكون ممكناً. فهو يفترض إعادة بناء العالم.

---

(1) Claude Nordey, *L'homme de couleur*, coll. «Présences», Plon, éd. 1939.

الفصل الرابع

حول عقدة تبعية المُستعمَر المزعومة

لا يوجد في العالم شخص مسكين معاقب،
إنسان معذب، لا أكون مقتولاً فيه ومهاناً.

(Aimé Césaire, *Et les chiens se taisaient*)

عندما بدأنا هذا العمل، لم يكن في متناولنا سوى بعض دراسات السيد مانّوني، المنشورة في مجلة Psyché. فأخذنا على عاتقنا الكتابة للكاتب، راجين منه أنْ يزوّدنا بالخلاصاتِ التي توصَّل إليها. ومنذ ذلك الحين، علمنا أنَّ كتاباً سيصدر، وفيه جملة أفكاره. ولقد صدر الكتاب هذا: بسيكولوجيا الاستعمار. سنقوم بدراسته.

قبل الولوج في التفاصيل، لنقلْ إن الفكر التحليلي نزيه. فالسيد مانوني، بعدما عاش إلى أقصى حدّ، الازدواجية الملازمة للوضع الكولونيالي، توصَّل بكل أسفٍ إلى نظرة مفرطة في شموليتها للظواهر البسيكولوجية التي تحكمُ علاقات المواطن الأصلي-المستعمِر.

إن السّمة الأساسية للبحث البسيكولوجي الراهن تبدو كامنةً في تشكيل شموليّة معيّنة، لكن، لا يجوز أنْ يغيب الواقع عن ناظرنا.

سنبيّن أنَّ السيد مانّوني لم يدرك الإحداثيّات الحقيقية على الرغم من تخصيصه 225 صفحة لدرس الوضع الكولونيالي.

فعندما يجري تناول مسألة مهمة مثل جرد إمكانيات فهم شعبين مختلفين، لا بد من مضاعفة الانتباه.

إننا مدينون لسيد مانّوني بأنه أدخل في طريقة المعالجة عنصرين لا يمكن ان تغيب اهمّيتهما عن احد.

كان يبدو أنَّ تحليلاً سريعاً يستبعد الذاتية عن هذا المجال. فدراسة السيد مانّوني هي بحث صادق، لأنها ترمي إلى البرهان على أننا لا نستطيع تفسير الإنسان خارج هذه الإمكانية المُتاحة له للتعهّد بوضع معيّن، أو لإنكاره. وعليه، تنطوي مسألةُ الاستعمار ليس فقط على تقاطع أوضاع موضوعية وتاريخية، بل تنطوي أيضاً على موقف الإنسان من هذه الأوضاع.

وبالمثل، لا يمكننا سوى الانضمام إلى هذا القسم من عمل السيد مانّوني الذي ينزع إلى إضفاء الطابع المرضي على النزاع، أي إلى البرهان على أنَّ الأبيض المستعمِر لا ينفعل إلّا برغبته في وضع حد إلى نقص، على صعيد التعويض الأدلري الفائق.

مع ذلك، نكتشف ذاتنا بالتعارض معه، عندما نقرأ هذه العبارة: «إن واقع أن مالغاشياً راشداً معزولاً في بيئة أخرى، يستطيع أنْ يصبح حسّاساً للدونيّة من الطراز الكلاسيكي، يدلُّ، بنحو قاطع تقريباً، على أنّه كان يوجد فيه، منذ طفولته، بذرُ دونيّة»[1].

لدى قراءة هذا المقطع، نشعرُ بتهاوي شيءٍ ما، وأنَّ «موضوعية» الكاتب قد تضلّلنا.

(1) O. Mannoni, *Psychologie de la colonisation*, (Ed. du Seuil), p. 32.

غير أننا نحاول، بحماس، استكشاف الخط التوجيهي، الموضوعة الرئيسة للكتاب: «إن الفكرة المركزية هي أنَّ تقابلَ «المتحضّرين» و «البدائيين» يخلق وضعاً خاصاً ـ الوضع الكولونيالي ـ مُظْهِراً مجموعة أوهام والتباسات لا يستطيع أن يحدِّد موقعها ويعرّفها سوى التحليل البسيكولوجي»[1].

وعليه، ما دام هذا هو منطلق السيد مانّوني، فلماذا يريد أنْ يجعل من عقدة الدونيّة شيئاً ما موجوداً قبل الاستعمار؟ هنا نجد الآلية التفسيرية التي تعني في الطب النفسي ما يلي: هناك أشكال كامنة للذهان، تغدو علنية، جليّة، إثر صدمة. وتعني في الجراحة: ظهور دُوال (Varices) لدى فردٍ ما لا يتأتى من اضطراره للبقاء واقفاً عشر ساعات، بل حقاً من عطب تكويني للغشاء الوريدي، فما نمط العمل سوى شرطٍ مؤاتٍ، ويقرر الخبيرُ الفائقُ المعاينِ مسؤوليةَ المستخدِم المحدودة جداً.

قبل أن نتناول بالتفصيل خلاصات السيد مانّوني، نودّ أنْ نوضح موقفنا. فنحن نطرح مرة وإلى الأبد هذا المبدأ: إما أن يكون مجتمع ما عرقياً أو لا يكون. وطالما أننا لم ندرك هذه البيّنة، فإننا سنترك جانباً عدداً كبيراً من المسائل. فالقولُ، مثلاً، إنَّ شمال فرنسا أكثر عرقيّةً من الجنوب، وإن العرقية هي من صنع المرؤوسين، وتالياً لا تُلزِم النخبة، وإن فرنسا هي البلد الأقل عرقية في العالم، هو قول يُطلقه أناسٌ عاجزون عن التفكير السليم.

فالكاتب، حتى يبرهن لنا على أن العرقية لا تعكس تماماً الوضع

(1) (التشديد لنا) Cf. p. II de la couverture

الاقتصادي، يذكّرنا بأنّ «العمّال البيض في جنوب أفريقيا يظهرون عرقيين، وأحياناً أشدّ عرقيّة من الحكام والمستخدِمين»[1].

إننا نعتذر؛ لكننا نودّ أن يتذكّر هؤلاءِ الذين يتولّون وصف الاستعمار، أمراً ما: هو أن من الطوباوية البحث عمّا يختلف وبما يختلف سلوكٌ غير إنساني عن سلوك غير إنساني آخر. لا نريد أبداً نفخ العالم بمشاكلنا؛ لكنّنا نودّ بطيبة خاطر أنْ نسأل السيد مانّوني عما إذا كان لا يرى أنّ الفوارق، بنظر يهودي، بين لاسامية موراس ولاسامية غوبلز، هي فوارق لا يمكن لمسها.

في آخر عرض لمسرحية للبغي الفاضلة في شمال أفريقيا، كان جنرالٌ يقول لسارتر: «قد يكون من الأحسن تمثيل مسرحيتكم في أفريقيا السوداء. فهي تبيّن تماماً إلى أي حد يكون الأسود في البلاد الفرنسية أكثر سعادةً من نظيره الأميركي».

أعتقد بصدق أن تجربة ذاتية يمكنُ للآخر أن يتفهّمها؛ ولا يفرحني إطلاقاً أنْ آتي قائلاً: المسألة السوداء هي مسألتي، أنا وحدي، ثم أشرعُ في درسها. لكنّما يبدو لي أنّ السيد مانّوني لم يحاول أنْ يستشعر من الداخل يأسَ الإنسان الملوّن في مواجهة الأبيض. فقد أكببتُ في هذه الدراسة على ملامسة بؤس الأسود. لمساً ووجدانياً. ولم أشأ أنْ أكون موضوعياً. ناهيكَ بأنّ هذا خطأ: إذْ لم يكن في مستطاعي أنْ أكون موضوعياً.

في الحقيقة، هل هناك فرق بين عرقيّة وأخرى؟ ألا نجد السقطة نفسها، الإفلاس نفسه للإنسان؟

يقدّر السيد مانّوني أن الأبيض المسكين في جنوب أفريقيا يكره

(1) op. cit., p. 16.

الأسودَ، بصرف النظر عن كل مسار اقتصادي. فضلاً عن إمكان فهمنا لهذا الموقف، حين نذكر العقلية اللاسامية ـ «فإني سأسمّي، بطيبة خاطر، اللاساميّة، تعاظم الفقير. وعليه، يبدو أن معظم الأثرياء يستعملون[1] هذا الهوى بدلاً من الاستسلام له، إذْ لديهم ما هو أفضل ينشغلون به. عادةً ينتشر الهوى لدى الطبقات المتوسطة، تحديداً لأنها لا تملك أرضاً، ولا قلعة، ولا بيتاً! حين أصف اليهودي بأنه كائن أدنى ومؤذٍ، إنما أؤكد أنني أنتمي إلى نخبة»[2] ـ، فيمكننا الرّد بأن هذه الإزاحة لعدائية البروليتاريا البيضاء إلى البروليتاريا السوداء هي في الأساس نتيجة البنية الاقتصادية لجنوب أفريقيا.

فما هي جنوب أفريقيا؟ إنها مِرْجَل حيث يقوم 2,530,300 أبيض بطرق وحجز 13,000,000 أسود. فإذا كان البيض الفقراء يكرهون الزنوج، فليس مردّ ذلك، كما يرى السيد مانّوني، لأن «العرقية هي من صنيع صغار التجار وصغار المستوطنين الذين كدحوا كثيراً بلا نجاح كبير»[3]. كلا، بل لأن البنية الجنوبية الأفريقية هي بنية عرقية: «فحبُّ الزنوجة وعمل الخير هما من الشتائم في جنوب أفريقيا... حيث يُقترح فصل المواطنين الأصليين عن الأوروبيين، إقليمياً، إقتصادياً وفي المجال السياسي، والسماح لهم ببناءِ حضارتهم الخاصة تحت قيادة البيض وسلطانهم، لكن مع حدّ أدنى من الاتصال بين الأعراق. كما يُقترح أنْ تخصص للمواطنين الأصليين أقاليم وإرغام العدد الأكبر منهم على الإقامة فيها... فيُلغى التنافسُ الاقتصادي

---

(1) (التشديد لنا).

(2) J. P. Sartre, Réflexions sur la question juive, p. 32.

(3) Mannoni, op. cit., p. 16.

وتغدو الدُّربُ مُعَبَّدةً أمام إعادة الاعتبار «للفقراء البيض» الذين يشكّلون 50% من السكان الأوروبيين.

«ليس مبالغةً القولُ إن معظم الجنوبيين الأفريقيين يشعرون بكره شبه فيزيائي تجاه كل ما يضع مواطناً أصلياً أو شخصاً ملوّناً في مستواهم»[1].

حتى ننتهي من حجة السيّد مانّوني، لنتذكّرْ أنَّ «الحاجز الاقتصادي يأتي، بين أسباب أخرى، من خوف المنافسة ورغبة حماية طبقات البيض الفقيرة الذين يشكّلون نصف السكان الأوروبيين، والحؤول دون هبوطهم أدنى فأدنى».

يتابع السيّد مانّوني: «لا يختلط الاستغلال الكولونيالي مع الأشكال الاستغلالية الأخرى، إذ تختلف العرقية الكولونيالية عن العرقيّات الأخرى...»[2]، يتحدّث المؤلف عن الفنومنولوجيا، التحليل النفسي، الوحدة الإنسانية؛ لكننا نتمنّى أنْ ترتدي هذه الألفاظ، لديه، رداءً ملموساً أكثر. فكل الأشكال الاستغلالية تتشابه. وكلّها تبحث عما يجعلها ضرورية، في أمرٍ ما من الأوامر التوراتية. كل الأشكال الاستغلالية متماثلة، لأنها تنطبق على «غرض» واحد: الإنسان. وحين يُراد النَّظر من الزاوية التجريدية إلى بنية هذا الاستغلال أو ذاك، إنما تُقَنِّع المسألة الكبرى، الأساسية، مسألة إعادة وضع الإنسان في مكانه.

لا تختلفُ العِرقيّة الكولونيالية عن العرقيّات الأخرى.

---

(1) R.P. Oswin, Magrath du Couvent dominicain de Saint-Nicolas, Stallenbosch, Afrique Australe Anglaise, *L'homme de couleur*, p. 140. (التشديد لنا).

(2) Mannoni, *op. cit.*, p. 19.

اللاسامية تمسّني في الصميم، فأنفعلُ، ويفقرُ دمي بسبب اعتراض شديد، ما دام هناك مَنْ يرفضُ إمكانَ أنْ أكون إنساناً. فأنا لا أستطيع التخلّي عن التضامن مع المصير المخصَّص لأخي. كل فعل من أفعالي يلتزم بالإنسان. كل ممانعة من ممانعاتي، كل جبانةٍ من جباناتي، تُعلن الإنسانَ[1]. فما زال يتراءى لنا أننا نسمع سيزير:

---

(1) فيما نكتبُ هذا، نتذكر بالجُرمية الميتافيزيقية لدى ياسبرز: «بما أن البشر هم بشر، يوجد بينهم تكافلٌ يكون كل فرد، بموجبه، مسؤولاً، مشاركاً في كل ظلم وكل أذى ارتكبَ في العالم، وخصوصاً الجرائم المرتكبة بحضوره، أو بعلمه. فإذا لم أفعل ما يلزم لمنعها، أكون متواطئاً. وإذا لم أخاطر بحياتي لمنع اغتيال بشرٍ آخرين، وإذا بقيت ساكتاً، أشعر أني مُذنب، بمعنى لا يمكن فهمه بطريقة مناسبة، لا حقوقياً، ولا سياسياً ولا أخلاقياً... وإذا عشتُ بعد وقوع أمور كهذه، فإن ذلك يضغطُ عليّ مثل ذنب لا يمكنُ التكفير عنه.
«هناك مطلب مطلق يفرض نفسه في مكانٍ ما من أعماق العلاقات الإنسانية: ففي حالة هجمة جُرمية أو ظروف حياة مهدِّدة للوجود الطبيعي، لا تقبلوا أن تعيشوا جميعكم إلّا معاً، أو لا تعيشوا أبداً».
(Karl Jaspers, *La culpabilité allemande*, tr. par Jeanne Hersch, pp. 60-61).
يصرّح ياسبرز أنّ المرجع الكفوء هو الله. من السهل أنْ نرى أنَّ الله ليس لديه ما يفعله هنا. اللهم إلّا إذا كان المراد تأويل هذا المطلب، الواجب على الواقع البشري، بشعور الإنسان أنّه مسؤول عن نظيره. مسؤول بمعنى أنّ أقلَّ فعل من أفعالي مُلزِم للإنسانية. فكل فعل هو جواب أو سؤال. وربما هو الاثنان معاً. فعندما أعبِّر عن طريقة ما لتخطي وجودي، إنما أؤكّد قيمةً لفعلي بالنسبة إلى الآخر. عكسياً، السلبيةُ الملحوظة في ساعات التاريخ المضطربة، تُفسَّر بوصفها إخلالاً بهذا الواجب. قال يونغ (Jung, Aspects du drame contemporain) في معالم المأساة المعاصرة، إن على كل أوروبي الرّد حتى على الجرائم التي ارتكبتها البربرية النازية، أمام آسيوي أو هندوسي. كاتبة أخرى، السيدة ماريز شوازي، (L'Anneau de Polyrcate)، استطاعت في هذا الكتاب وصف الجُرمية التي كانت من نصيب «المحايدين» في أثناء الاحتلال. إذ كانوا يشعرون شعوراً ملتبساً بأنهم مسؤولون عن كل أولئك الموتى وعن كل المجازر المشابهة (Büchenwald).

«عندما أدير مفتاح ملياعي، وأسمعُ أن زنوجاً شُنقوا في أميركا، أقول لقد كذبوا علينا: هتلر لم يَمُتْ؛ وعندما أدير مفتاح ملياعي وأعلمُ أن يهوداً قد شُتموا، أحتقروا، أبيدوا، أقول لقد كذبوا علينا: هتلر لم يمت؛ وأخيراً حين أدير مفتاح ملياعي وأعلم أنَّ العمل الإجباري في أفريقيا تأسَّس وجرى تشريعه، أقول حقاً كذبوا علينا: هتلر لم يمت»[1].

أجل، الحضارة الأوروبية وأمهرُ ممثليها هم المسؤولون عن العرقية الكولونيالية[2]؛ ونستعين مجدداً بسيزير: «وإذن، ذات يوم، استيقظت البورجوازيةُ بصدمة ارتدادية رائعة، وأخذت أجهزتها السريّة تنهمك واكتظّت السجونُ، وراح الجلّادون يُبدعون، يكرّرون، يتناقشون حول أدوات التنكيل.

«سَرَتْ الدهشة وجرى الاستياء. قيل: «كم هذا غريب! لكن، باه! إنها النازية، سيتغيّر الحال!» وسرى الانتظار وتمادى الأملُ؛ وأُخفيتْ الحقيقةُ عن الذّات، حقيقة أن ما حصل هو بربرية، لكنها الهمجيّة العليا، تلك التي تتوّج وتختصر يوميّة البربريّات كلها؛ حقيقة أنها النازية، أجل، التي جرى التواطؤ معها قبل أن يغدو المتواطئون من ضحاياها؛ تلك النازية بالذات، الذي جرى تحمّلها قبل أن يعاني منها، فكان يجري التغاضي عنها، وإغماض العين عنها، وإضفاء الشرعية عليها، لأنها، حتى حينه، لم تكن قد مُورست إلّا ضد شعوب غير أوروبية؛ حقيقة أن تلك النازية بالذات قد جرى الاعتناء

---

(1) استشهاد من الذاكرة. ـ خطب سياسية، حملة 1945 الانتخابية، فور ـ دفرانس.

(2) «الحضارة الأوروبية وأكفأ ممثليها غير مسؤولين عن العرقية الكولونيالية؛ لكن هذه هي من صنع مرؤوسين وتجّار صغار، ومستوطنين، كدحوا كثيراً بلا نجاح كبير».
(Mannoni, p. 16).

بها، وتالياً نحن مسؤولون عنها فلتتبعث وتلمع وتقطر، قبل أن تفجر مياهها الحمر الملوثة عبر كل شقوق الحضارة الغربية والمسيحية»[1].

كلّما رأينا عَرَباً، مُطاردين، حذرين، هاربين، متلفّعين بتلك الأطمار الممزّقة التي تبدو أنها صُنعت لهم، نقول لأنفسنا. لقد ضلّ السيّد مانوني. ففي أغلب الأحيان، وفي وضح النهار أوقفنا مخبرو الشرطة وهم يظنوننا عرباً، وعندما يكتشفون أصلنا، يسارعون إلى الاعتذار: «نعلم جيداً أنّ مارتينيكياً يختلف عن عربي». بشدّة نحتجّ، لكنْ يُقال لنا، «أنتم لا تعرفونهم». في الحقيقة، لقد ضللت يا سيد مانوني. لأنّ هذا التعبير ما معناه: «الحضارة الأوروبية وأكفأ ممثليها غير مسؤولين عن العرقية الكولونيالية»؟ ما معناها، إلا أن يكون أن الكولونيالية هي من صنع مغامرين وسياسيين، وأن «الممثلين الأكفأ» يقفون، تالياً، فوق العامة. لكن، يقول فرنسيس جانسون، كلّ حامل جنسيّة أمّة مسؤول عن الأعمال المرتكبة باسم هذه الأمة: «يوماً بعد يوم، يطوّر هذا النظام حولكم عواقبه الوخيمة، ويوماً بعد يوم، يخونكم محرّكوه، الذين ينتهجون باسم فرنسا سياسة غريبة قدر المستطاع، ليس فقط غريبة عن مصالحكم الحقيقية، بل غريبة أيضاً عن أعمق مطالبكم... وأنتم تصطنعون لأنفسكم مجداً بالبقاء على مسافة ما من نظام معين للوقائع: هكذا تُطلقون أيدي أولئك الذين لا تنفرهم المناخات الوسخة إطلاقاً، ما داموا هم الذين يخلقونها بأنفسهم، من خلال سلوكهم الخاص. ولئن توصلتم في الظاهر إلى عدم توسيخ أنفسكم، فذلك لأنّ آخرين يتوسّخون عنكم. لديكم رجال قبضايات، وبعد كل حساب، أنتم المذنبون الحقيقيون: لأنّ

Aimé Césaire, *Discours sur le colonialisme*, pp. 14-15. (1)

رجالاً كهؤلاء لن يستطيعوا من دونكم، من دون عماهتكم النكراء، القيام بعمل يدينكم على قدر ما يلطخهم»[1].

قُلنا منذ قليل إن لجنوب أفريقيا بنية عنصرية. وسنمضي قُدُماً، ونقول إن لأوروبا بنية عنصرية. ونرى جيّداً أن السيد مانّوني غير مهتم بهذه المسألة، ما دام يقول: «إن فرنسا هي البلد الأقل عنصريةً في العالم»[2]. أيها الزنوج الجميلون، تمتّعوا بكونكم فرنسيّين، ولو كان ذلك قاسياً قليلاً، لأن نظراءكم في أميركا أتعسُ منكم... إن فرنسا بلد عنصري، لأنَّ أسطورة الزنجي ـ العاطل هي جزء من لاوعي المجتمع، سنبيّن ذلك لاحقاً (الفصل السادس).

فلنتابع مع السيّد مانّوني: «وعليه، لا تُلحظ عقدة دونية مرتبطة بلون الجلد إلّا عند الأفراد الذين يعيشون كأقلية في محيط لونٍ آخر؛ ففي مجتمع متماسك جداً، مثل المجتمع المالغاشي، حيث لا تزال البنى الاجتماعية في غاية المتانة، لا نُصادف عقدة دونيّة إلّا في حالات استثنائية»[3].

مجدَّداً، نطلبُ من المؤلف بعضَ التحفّظ. فما من أبيض في المستعمرات شعرَ يوماً أنّه أدنى من أي شيء كان؛ كما يقوله السيّد مانّوني بشكل جيد: «إما أن يجعل نفسه إلّهاً أو ملتهماً». فالمستعمِر هو، بالرغم من «كونه أقليّاً»، ليس صاحب إحساس بالدونية. هناك في المارتينيك 200 أبيض يعتبرون أنفسهم متفوّقين على 300,000 عنصر ملوّن. وهناك في أفريقيا الجنوبية 2,000,000 من البيض

(1) Francis Jeanson, *Cette Algérie conquise et pacifiée...* (*Esprit*, Avril 1950, p. 624).

(2) Mannoni, *op. cit.*, p. 31.

(3) *Ibid.*, p. 108.

مقابل ما يناهز 13,000,000 من المواطنين الأصليين، ولم يخطر في بال أي مواطن أصلي الشعور بالتفوّق على أقلّ أبيض.

وإذا كانت اكتشافات آدلر واكتشافات كونكل (Kuenkel)، التي لا تقلُّ أهميةً عنها، تفسِّر بعض السلوكات العُصابية، فلا يجوز أن تُعزى إليها قوانين يمكن تطبيقها على مسائل بالغة التعقيد. فالدونية هي المقابل المحلي للفوقية الأوروبية. فلنتجاسر على قول الحقيقة: العرقي هو الذي يصنع الدُّونيّ.

بهذه الخلاصة، تنضمّ إلى سارتر: «اليهودي هو إنسان يعامله الناسُ الآخرون كيهودي: هاكم الحقيقة البسيطة التي ينبغي الانطلاقُ منها... فاللاسامي هو الذي يصنع اليهودي»[1].

فماذا تغدو الحالاتُ الاستثنائيّة التي يحدّثنا عنها السيد مانّوني؟ إنها بكل بساطة الحالاتُ التي فيها يكتشف المُتطوِّرُ، فجأةً، أنّه مطرودٌ من حضارة، مع أنّه تمثّلها واستوعبها. وعليه، تكونُ الخلاصة كالتالي: على قدر ما يكون المالغاشي الأنموذجي الحقّ، لدى المؤلِّف، ملتزماً بـ «شروط تبعيّته»، يكون كل شيء، على خير ما يُرام؛ لكنه إذا نسيَ مكانته، وإذا وضع في باله أن يتساوى مع الأوروبي، عندها يزعل الأوروبي وينفي الأحمق، ـ الذي يدفع بهذه المناسبة وفي هذه «الحالة الاستثنائية» ثمن رفضه للتبعية عقدة الدونيّة.

لاحظنا سابقاً، في بعض إطراءات السيد مانّوني التباساً خطيراً بين أمرين. الواقع أنه يترك للمالغاشي الخيار بين الدونية والتبعية. باستثناء هذين الحلّين، لا يوجد خلاص. «عندما يتمكّن (المالغاشي)

(1) op. cit., p. 108.

من إقامة علاقات (تبعية) كهذه، في الحياة، مع المتفوّقين، لا تعود دونيّته تزعجه، وتسير الأمورُ على خير ما يُرام، وعندما لا ينجح، عندما لا تنتظم وضعيّته غير الآمنة بهذه الطريقة، يُصاب بنكسة»[1].

كان الهاجس الأول للسيد مانّوني انتقاد المنهجيّات المستعملة حتى الآن من قبل مختلف الأتنوغرافيّين الذين درسوا الجماعات البدائية. لكننا نرى التهمة التي ينبغي أن نوجهها إلى عمله.

بعد حبس المالغاشي في تقاليده، وبعد القيام بتحليل آحادي الجانب لرؤيته للعالم، وبعد وَصف المالغاشي وهو في حلقة مغلقة، وبعد القول إن المالغاشي يقيم علاقات تبعية مع الأجداد، وهي سمات قَبَليّة بامتياز، يطبّق الكاتب، خلافاً لكل موضوعية، خلاصاته على فهم ثنائي الطرف، - متجاهلاً، عمْداً، أنّ المالغاشي لم يعد موجوداً منذ غالياني *(Galliéni)*.

ما كنا نطلبه من السيد مانّوني هو أن يفسّر لنا الوضع الكولونيالي. فنسي، بشكل فريد، أن يفسّره. فلا شيء يضيع ولا شيء يُخلق؛ إننا موافقون. إن جورج بالانديبه، حين استعرض هيغل في دراسة[2] كرّسها لكاردينر ولينتون، كتبَ حول ديناميكيّة الشخصيّة: «إن آخر أحوالها هو نتيجة لكل الأحوال السابقة، ويجب أن ينطوي على كل المبادىء». إنها نكتة، لكنها لا تزال قاعدة باحثين كثيرين. فالاستجابات، السلوكات الناشئة من الوصول الأوروبي إلى مدغشقر، لم تأتِ لتنضاف إلى سابقاتها. لم يكن هناك تزايد للكتلة النفسية السابقة. فلو أخذ، مثلاً، سكان المريخ يسعون إلى استعمار سكان

(1) Mannoni, *op. cit.*, p. 61.

(2) *Où l'ethnologie retrouve l'unité de l'homme (Esprit*, avril 1950).

الأرض، وليس إلى تلقينهم الثقافة المريخيّة، بل يسعون حرفياً إلى استعمارهم، فقد نشكُّ بخلود أية شخصيّة. فكاردينر يصدر كثيراً من الأحكام حين يكتب: «إن تعليم المسيحية لسكان ألور، هو مشروع دونكيخوتي... (هذا) ليس له أيُّ معنى طالما بقيت الشخصية مبنيّة من عناصر متناقضة تماماً مع العقيدة المسيحية؛ وبالتأكيد هذا معناه البدء من الطرف السيِّئ»[1]؛ وإذا كان الزنوج غير متقبّلين لتعاليم المسيح، فليس ذلك لأنهم عاجزون عن تمثّلها. ذاك أن فهم أي شيء جديد يتطلب منا أن نكون مستعدين له، وأن نحضر أنفسنا لتقبله، ويستلزم تشكّلاً جديداً. فمن الطوباوي أنْ يُنتظر من الزنجي أو من العربي أن يبذلا جهدهما لإدراج قيم مجرَّدة في تصورهم للعالم (Weltanschaung) وهم لا يكادون يسدّون رمقهم. فأن يُطلب من زنجي من النيجر الأعلى، أنْ ينتعل حذاءً، وأن يُقال عنه إنه عاجز أن يصبح شوبير، لا يقلُّ عبثيّةً عن الاندهاش من كون عامل لدى برليه لا يخصص أمسياته لدرس الغنائية في الأدب الهندوسي أو يصرّح بأنّه لن يكون أبداً آينشتين.

في الواقع، في المطلق، لا شيء يتعارض مع أمور كهذه. لا شيء ـ ما عدا أنّ المعنيين لا يملكون الامكانيّات لتحقيق ذلك.

لكنهم لا يتذمّرون! الدليل: «في آخر الصباح الباكر، في ما يتعدّى أبي وأمي، كان الكوخ الممتلىء بالقوارير، مثل خطيئة البشرة المعلّبة والسطح المُرقّق، المرقّع بقطع من تنك البترول، وهذا يشكل مستنقعات من الصدأ في الطينة الرمادية القذرة ذات القش الفاسد، وعندما هبّت الريح، كانت هذه المتناقضات تُصدر ضجة عجيبة،

(1) ورد عند جورج بالانديه، م ن، ص 160.

بادىء الأمر مثل زفير النار، ثم مثل مِشْعَر يجري تغطيسه في الماء مع دخان الضّرام الذي يتصاعد منه. وسرير الأخشاب من حيث نهض عرقي، عرقي بكامله من هذا السرير الخشبي، مع قوائمه المصنوعة من صناديق الكروزين، كما لو كان السرير مصاباً بداء الجلاب، وجلده الجلدياني، وأوراق موزه الجافة، وأسماله البالية، مع حنين للوسائد، لسرير جدّتي (فوق السرير في جرّة ممتلىء بالزيت، فتيل ترقص شعلته مثل لفتة ضخمة... على الحقّ مكتوب، بحروف ذهبية: شكراً)[1]. المؤسف «أنّ هذا الموقف، هذا السلوك، هذه الحياة المضطربة المأخوذة بوَهْقِ الخجل والكارثة، تنتفض، ترفض نفسها وسواها، تتبخ، ثم يُسأل:

– «ماذا تستطيع إزاء ذلك؟

– البدء!

– البدء بماذا؟

– الشيء الوحيد في العالم الذي يستحقُّ عناء البدء: نهاية العالم، تبّاً!»[2].

فما نسيه السيد مانّوني هو أنَّ المالغاشي لم يعد موجوداً؛ نسي أنَّ المالغاشي يعيش مع الأوروبي. حين وصل الأوروبي إلى مدغشقر قلبَ الآفاقَ والآليّات البسيكولوجية. الجميع قالوا ذلك، الغير بالنسبة إلى الأسود ليس الأسود، بل الأبيض. فجزيرة مثل مدغشقر، غزاها «روّاد الحضارة» بين عشية وضحاها، حتى وإن تصرّف هؤلاء الرّواد على أحسن ما يستطيعون، فشهدت دماراً. والسيد مانّوني هو الذي يقول ذلك: «في بداية الاستعمار، كانت كل قبيلة تريد أن يكون لها

(1) Aimé Césaire, *Cahier d'un retour*, p. 56.

(2) م. ن. *Ibid*.

أبيضهما»[1]. وأن يفسّر ذلك بآليّات سحرية ـ طوطمية، وبحاجة الاتصال مع الله القهّار، وبإشهار نظام للتبعية، فلا شيء يمنع أن يكون شيء جديد قد وقع في هذه الجزيرة، وأن يتعيّن أخذه في الاعتبار ـ تحت طائلة جعل التحليل زائفاً، مستحيلاً، باليأ. بما أن اسهاماً جديداً قد طرأ كان لا بد من السعي لفهمَ العلاقات الجديدة.

حين رسا الأبيض في مدغشقر كان قد أحدثَ جرحاً مطلقاً ولم تكن نتائج هذا التدخل الأوروبي في مدغشقر، بسيكولوجية وحسب، طالما أن هناك علاقات داخلية، كما يقول الجميع، بين الوعي والسياق الاجتماعي.

أما النتائج الاقتصادية؟ فينبغي أن يُحاكم الاستعمار عليها!

فلنواصل دراستنا.

«بكلمات مجرَّدة، يستطيع المالغاشي تحمّل أنّه ليس إنساناً أبيض. وما هو قاسٍ هو أنه اكتشف بادىء الأمر أنه إنسان (بالتماهي)، وتالياً اكتشف انكسار هذه الوحدة بين البيض والسُّود. فإذا حافظ المالغاشي «المتروك» أو «المُخُتَّان»، ماهيّته، هويته، فإن هذه تغدو حينئذٍ مطلبيّة؛ وعندها سيطالب بالمساواة التي لم يكن يشعر إطلاقاً بالحاجة إليها. هذه المساواة قد تكون مؤاتية له قبل أن يطالب بها؛ لكنها صارت لاحقاً دواءً غير شافٍ ولا كافٍ لأمراضه: لأن كل تقدم في المساواة الممكنة، سيزيد من أعباء التباينات التي تظهر، على التوّ، بوصفها اختلافات مؤلمة، يصعبُ محوها. على هذا النحو ينقل (المالغاشي) من التبعية إلى الدونية البسيكولوجية»[2].

---

(1) Mannoni, *op. cit.*, p. 81.

(2) م ن *Ibid.*, p. 85.

هنا أيضاً نستكشفُ سوء الفهم نفسه. وعليه، فمن الواضح أنَّ المالغاشي يستطيعُ تماماً أن يتحمل عدم كونه أبيض. فالمالغاشي هو مالغاشي. أو بالأحرى لا، المالغاشي ليس مالغاشياً: بل يعيش هويته المالغاشية وجوداً مطلقاً. فإذا كان مالغاشياً، فلأن الأبيض قد وصل؛ وإذا كان في حين معيّن من تاريخه، قد توصّل إلى إثارة مسألة كونه إنساناً أم لا، فذلك لأن هناك مَنْ كان يرفض حقيقته الإنسانية هذه. بتعبير آخر، أبدأ أتألم من كوني غير أبيض، على قدر ما يفرض الإنسان الأبيض تمييزاً عليّ، يجعلني مُسْتَعمراً، يجرّدني من كل قيمة، يقول لي إني أُشوِّشُ العالم، وإن عليّ الإسراع، قدر المستطاع، لمواكبة العالم الأبيض، «وإني بهيمة من الأنعام، وأنَّ شعبي وأنا مثل زبل دوّار يعد وعداً بشعاً بقصب ليّن وقطن حريري، وإني ليس لديّ ما أعمله في العالم»[1]. وسأحاول عندئذٍ بكل بساطة أنْ أجعل نفسي أبيض، أي سأُرغم الأبيضَ على الاعتراف بإنسانيتي. لكنْ، سيقول لنا السيد مانّوني، لن تستطيعوا، لأن في أعماقكم هناك عقدة تبعية.

«ليست كل الشعوب جديرة بأن تستعمر، فالوحيدون المؤهلون لذلك هم اللذين يملكون هذه الحاجة». وبعد قليل: «في كل مكان تقريباً حيث أقام الأوروبيون مستعمرات من الطراز «الوارد» حالياً، يمكنُ القول إنهم كانوا منتَظرين، وحتى مطلوبين في لاوعي رعاياهم. وهناك في كل مكان أساطير كانت تصوّرهم على شكل غرباء قادمين من البحر ينذرون أنفسهم لتقديم النعم»[2] وكما نرى، يخضع الأبيض

---

(1) Aimé Césaire, *Cahier d'un retour.*

(2) Mannoni, *op. cit.*, pp. 87-88.

لعقدة تسلّط، لعقدة قيادة (زعامة)، فيما يخضع المالغاشي لعقدة تبعية. الجميع راضون.

عندما يكون المطلوب أن نفهم لماذا سُمي الأوروبي، الغريب (Vazaha) أي «غريب شريف»؛ وعندما يكون المقصود أن نفهم لماذا جرى استقبال الأوروبيين المبحرين بذرعان مفتوحة، ولماذا لا يُصوَّر الأوروبي، الأجنبي، كعدو؛ بدلاً من إجراء هذا الفهم، انطلاقاً من الإنسانية، من اللياقة، من التهذيب، وهي سمات أساسية لما يدعوه سيزير «الحضارات القديمة المهذّبة»، يُقال لنا بكل بساطة، لأن هناك شيئاً ما، مسجلاً في «التلافيف القدرية» ـ خصوصاً، في اللاشعور ـ، كان يجعل من الأبيض السيّد المنتظر. نعم اللاشعور، ها نحن قد وصلناه. لكن، لا ينبغي الاستقراء. فعندما يروي لي زنجيٌ الحلمَ التالي: «أمشي منذ زمن طويل، وأنا مُرهق جداً، أشعر بأن شيئاً ما ينتظرني، أجتاز حواجز وجدراناً، أصل إلى قاعة خالية، وخلف بابٍ أسمع ضجة، أتردّد قبل الدخول، أخيراً، أقرّر، أدخل، كان هناك بيضٌ في هذه الغرفة الثانية، ألاحظ أنني، أنا أيضاً، أبيض»، وعندما أحاول فهم هذا الحلم، وتحليله، مع العلم أن لهذا الصديق مصاعب في الترقية، أخلص إلى أن هذا الحلم يحقّق رغبة لاواعية. لكن حين سيكون الأمرُ، بالنسبة إليّ، خارج مختبري كمحلّل نفساني، متعلّقاً بربط استنتاجاتي بسياق العالم، فسوف أقول:

1 ـ إن مريضي يشكو من عقدة دونيّة. ويُخشى أن تنحلَّ بنيته النفسية. والمطلوب هو حفظه من ذلك، وشيئاً فشيئاً، تحريره من هذه الرغبة اللاواعية.

2 ـ لئن كان مغموراً، إلى هذا الحدّ، برغبة أن يكونَ أبيض،

ذلك لأنه يعيش في مجتمع يجعل عقدةً نقصه ممكنةً، مجتمع يستمد ديمومته من الحفاظ على هذه العقدة، مجتمع يؤكّد تفوّق عرقٍ ما، وعلى قدر ما يسبّب له هذا المجتمع بالضبط، المصاعب والمتاعب، يجد نفسه موضوعاً في حالة عُصابي.

ما يظهر حينئذٍ هو ضرورة القيام بعمل يتناول الفرد والجماعة معاً. وعليّ، كمحلّل نفساني، أن أساعد زبوني على استيعاء لاشعوره، وألا يحاول تمييع هلوساته، بل أنْ يتصرّف في اتجاه تغيير البنى الاجتماعية.

بتعبير آخر، ليس على الأسود أن يعود يجد نفسه أمام هذا المأزق: أن يبيّض-أو أن يزول، بل عليه التمكّن من استيعاء إمكانية الوجود؛ وبتعبير آخر أيضاً، إذا كان المجتمع يتسبّب له بصعوبات بسبب لونه، وإذا استخلصت من أحلامه التعبير عن رغبةٍ لاواعية في تغيير لونه، فسوف لن يكون هدفي ردعه عن ذلك بنصحه «أن يبقى على بُعد»؛ إنما هدفي بالعكس، سيكون بعد إضاءة الدوافع، جعله قادراً على اختيار الفعل أو (السلبية) تجاه المصدر المأزمي الحقيقي – أي تجاه البنى الاجتماعية.

إن السيد مانّوني، المهتمّ بتناول المسألة من كل الزوايا، لم يفتْه استجواب لاوعي المالغاشي.

لهذه الغاية، يحلّل سبعة أحلام: سبع حكايات تروي لنا اللاوعي، ونجد في عدادها ست حكايات تُظهر لنا رُعباً غالباً. هناك أطفال وراشد أبلغونا أحلامهم، ورأيناهم مضطربين، هاربين، تعساء.

«حلمُ الطبّاخ:

«يطاردني ثور أسود[1]، هائج. وأنا مرتعب، تسلّقت شجرة،

(1) التشديد لنا.

مكثتُ فوقها إلى أنْ زال الخطر. نزلت وأنا أرتجف تماماً»....

«حلم راهفي، ولد في الثالثة عشرة:

«فيما أنا أتنزّه في الغابات، التقيت رجلين أسودين[1]. آه، قلت: لقد ضعت! (أريد) أنْ أهرب (سأهرب)؛ لكن هذا مستحيل. حاصراني ودمدما على طريقتهما. أظنّ أنهما قالا: «سترى ما هو الموت». ارتجفت من الخوف وقلتُ لهما: «دعوني، يا سادة، فأنا شديد الخوف!» كان أحدهما يعرف الفرنسية؛ لكنهما، رغم كل شيء، قالا لي: «هيا إلى زعيمنا» حين سرنا، جعلاني أتقدّمهما وأرى بندقيتهما. تضاعف خوفي؛ لكن قبل الوصول إلى معسكرهما، كان ينبغي اجتياز مجرى ماء، غطستُ في قاع الماء. وبفضل برودة أعصابي، بلغت مغارة حجرية، واختبأتُ فيها، عندما رحل الرجلان، فررتُ وعدت إلى بيت أهلي»...

«حلم جوزيت:

الحالمة (صبيّة) ضاعت وجلست على جذع شجرة نائمة. أخبرتها امرأة ترتدي ثوباً أبيض، أنها وسط لصوص، وتتواصل الحكاية هكذا: «أنا تلميذة، أجبتُ وأنا أرتعد، وعندما رجعت من المدرسة ضُعت هنا». فقالت لي: «سيري في هذا الدرب، وسوف تصلين إلى دياركم»...

«حلم رازافي، صبيّ بين 13 و14 سنة:

كان مطارداً من قبل قنّاصة (سنغاليين)، كانوا وهم يجرون

---

(1) التشديد لنا.

«يحدثون صوتاً قوياً شبيهاً بحضر الخيل»، «يشهرون بنادقهم أمامهم». ينجو الحالم عندما أخذ يتخفّى. صعد درجاً ووجد بابَ بيته...

«حلم إلفين، صبية بين 13 و14 سنة:

«حلمتُ بثور أسود[1] يطاردني بقوّة. كان الثّور قوياً. رأسه، شبه الموشّى بالبياض (كذا) يحمل قرنين طويلين مروّسين جداً. آه! يا للتعاسة! قلتُ لنفسي. راح الدّرب يضيق، فماذا يمكنني أنْ أفعل؟ تسلّقت شجرة مانغا. واأسفاه! سقطت متعثرة بالأجمّة. عندها سدّد قرنيه نحوي. خرجت أمعائي وأكلها...».

«حلم رازا:

سمع الحالم في حلمه أنهم يقولون في المدرسة إن السنغاليين قادمون. «خرجتُ من باحة المدرسة لأرى». جاء السنغاليّون فعلاً. فهرب، سلك طريق البيت. «لكنّهم بعثروا بيتنا أيضاً...»...

«حلم سي، صبي في الرابعة عشرة:

«كنتُ أتنزّه في الحديقة، شعرت بشيء ما يشكّل ظلّاً ورائي. كانت الأوراق تصطدم بكل شيء حولي وهي تقع كما [لو] كان هناك لص يريد أن يخطفني. عندما سرت في كل الاتجاهات، بقي الظلُّ يلاحقني. عندها استولى الخوفُ عليّ فهربت، لكنّ الظلّ كان يخطو بخطوات عريضة إلى أنْ مدّ يده الضخمة ليأخذني [معه] من ثيابي. شعرت أنّ قميصي يتمزّق فصرخت. حين سمع أبي هذا الصراخ، قفز

(1) التشديد لنا.

من سريره وحدّق بي، لكنَّ الظلَّ الكبير كان قد تلاشى ولم أعد أشعر بخوفي الكبير»[1].

قبل ذلك بعشر سنوات، دُهشنا من الاستنتاج أن أهالي شمال أفريقيا كانوا يكرهون الناسِ الملوّنين. فقد كان يستحيل علينا، حقاً، الاتصال بالمواطنين الأصليين. لقد تركنا أفريقيا متجهين إلى فرنسا، من دون أن نعرف سبب هذا البغض. غير أنَّ بعض الوقائع كانت قد قادتنا إلى التأمل. الفرنسيّ لا يحبُّ اليهودي، الذي لا يحبّ العربي، الذي لا يحب الزنجي... يُقال للعربي: «إذا كنتم فقراء، فلأن اليهودي سلبكم، أخذ منكم كلَّ شيء»؛ ويقال لليهودي: «لستم على قدم المساواة مع العرب، لأنكم بيض عملياً، ولديكم برغسون وآينشتين»؛ ويقال للزنجي: «أنتم أفضل جنود الأمبراطورية الفرنسية، والعرب يعتقدون أنهم أرفع منكم، لكنهم مخطئون». على كل حال، هذا غير صحيح، إذْ لا يُقال شيء للزنجي، وليس لديهم شيء يقولونه له، فالقنّاص السنغالي هو قناص، هو القنّاص ـ الجيّد ـ لدى ـ نقيه، الشجاع الذي ـ لا يعرف ـ سوى ـ التعليمات.

ـ أنتَ لا تمرّ.

ـ لماذا؟

ـ أنا لا أعرف. أنت لا تمرّ.

إن الأبيض، العاجز عن مواجهة كل المطالب، يتحلّل من المسؤوليّات. أنا أسمّي ذلك المسار: التوزيع العرقي للجُرميّة.

قُلنا إن بعض الوقائع قد فاجأتنا. فكلما كانت هناك حركة تمرّدية،

---

(1) Mannoni, *op. cit.*, ch. I (*Les rêves*, pp. 55 à 59).

كانت السلطات العسكرية لا تضع في المواجهة سوى الجنود الملوّنين. إنها «شعوب ملوّنة» كانت تقضي على محاولات تحرّر «شعوب ملوّنة» أخرى، مما يدلّ على عدم إمكان عولمة المسار: فإذا نهض العرب، هؤلاء التنابل، على رأس ثورة، فلا يكون ذلك باسم مبادىء معلنة، بل، وبكل بساطة، بغية تحرير لاوعيهم «الجدياني».

من الزاوية الأفريقية، كان طالبٌ ملوّن يقول في المؤتمر الخامس والعشرين للطلبة الكاثوليكيين، خلال المناقشة حول مدغشقر، «أقف ضد إرسال قنّاصة سنغاليين، وضد ما يُقترف هناك من تجاوزات». نعلم من جهة ثانية أن أحدَ الجلاّدين في مكتب شرطة تاناناريف، كان سنغالياً. ومع علم هذا كلّه، علم ماذا يمكن أن يعنيه النمط المثالي السنغالي بالنسبة إلى مالغاشي، فإن مكتشفات فرويد لا تفيدنا إطلاقاً. فالمطلوب إعادة وضع هذا الحلم في زمنه، وهذا الزمن هو الحقبة التي جرى، خلالها، قتل 80 ألف مواطن أصلي، أي واحد من 50 مواطناً أصلياً؛ وفي موضعه، وهذا الموضع هو جزيرة ذات أربعة ملايين شخص، لا يمكنُ أن تقوم في داخلها أية علاقة حقيقيّة، حيث تندلع الانقساماتُ من كل الجهات، وحيث الكذب والدهماوية (الديماغوجية) هما المسيطران الوحيدان[1]. هل ينبغي

---

(1) ننقل هذه الاعترافات التي أدلي بها في محاكمة تاناناريف (Tananarive): جلسة (آب/أوت). راكوتوفوا يصرّح:

«السيد بارون قال لي: «طالما أنك لم تقبر ما قلته، سأرسلك إلى قاعة التأملات (...). ذهبت إلى الغرفة المجاورة. كانت قاعة التأملات المقصودة، ملوثة بالمياه؛ وفوق ذلك، كان هناك صفيحة مليئة بالماء القذر، حتى لا أقول أكثر. قال لي السيد بارون: «هناك الوسيلة التي ستعلمك قبول ما طلبت منك التصريح به». تلقّى سنغالي من السيد بارون الأمرَ بـ «تعريضي لما يتعرّض له

....

الآخرون». ركّعني، وقبضتايَ متباعدتان، ثم تناول كمّاشة خشبية وضغط على يديَّ، ثم على ركبتي، ويدايَ مضغوطتان، وضع قدميه فوق رقبتي وغطّس رأسي في الصفيحة. وحين رآني أكاد أفقد وعيي، رفع رجله لكي يتركني أتنفّس قليلاً من الهواء. وتكرر ذلك الى أن تهالكتُ تماماً. عندئذٍ قال: «اجلبْه والبطه». وعليه، استخدم السنغالي عصبَ ثور؛ لكن السيد بارون دخل إلى قاعة التعذيب وشارك شخصياً في الضرب. أعتقد أنَّ ذلك دام خمس عشرة دقيقة، أعلنت في نهايتها أني لم أعد قادراً على التحمل، لأنَّ ذلك كان، على الرغم من نذوتي، غير قابل للتحمل. عندها قال: «يجب إذاً التسليم بما قله لك!».

«كلا، سيدي المدير، هذا غير صحيح».

«في تلك اللحظة، أعادني إلى غرفة التعذيب، ونادى سنغالياً آخر، لأنَّ واحداً لم يكنْ كافياً، وأمره بتعليق رجليَّ في الهواء ورمي جسمي في الصفيحة، حتى الصدر، وكرّر ذلك عدّة مرات. في النهاية قلت: «هذا كثير جداً: دعوني أتكلم مع السيد بارون»، وقلت لهذا: «أطلب على الأقل بمعاملة جديرة بفرنسا، سيّدي المدير»، وردّ عليّ: «إليك معاملة فرنسا!».

«قلت له وأنا لم أعد قادراً على التحمل: «وتالياً أوافق على القسم الأول من تصريحكم». جاوبني السيد بارون: «لا. لا أريد القسم الأول، بل الكل. ـ سأكذبُ إذاً؟ ـ كذب أو عدم كذب، يجب أن توافق على ما أقوله لك...»

الاعتراف يتواصل:

«على الفور، قال السيد بارون: «مارسْ عليه نوعاً آخر من التعذيب». عندها قادوني إلى الغرفة الملاصقة، حيث يوجد درج باطون صغير. ذراعاي موثوقتان من الخلف، رفع السنغاليّان رجليّ في الهواء، وجعلاني أصعد وأهبط الدرج الصغير، بهذه الطريقة. كان ذلك قد أخذ يصير مضنياً، وحتى إذا كان لديّ ما يكفي من القوة، فقد كان مرهقاً. فقلت للسنغاليين: «قولا لرئيسكم إني أوافق على ما سيقوّلني إياه».

جلسة 11 آب/أوت: المتهم روبير بوري:

«شدّني التّركي من ياقة بذلتي ورفسني برجله من خلف، وسدّد لي ضربات على الوجه، ثم ركّعني، وراح السيد بارون يضربني.

فلم أدرِ كيف مرَّ من ورائي وشعرتُ بلذعات نارية في رقبتي. حين حاولت أنْ أحمي نفسي بيديّ، أصيبت يدايَ أيضاً بلذعات وحروق...

القول إن المجتمعي (Socius) هو في بعض الأحيان أهمّ من الإنسان. أفكّر ببيار نافيل، حين كتب: «الحديث عن أحلام المجتمع مثل الكلام على أحلام الفرد وعن إرادات القوة الاجتماعية/ الجماعية، مثل الكلام على الغريزة الجنسية الشخصية، معناه، مجدّداً، قلب النظام الطبيعي للأمور، طالما أنّ، في المقابل، الشروط الاقتصادية والاجتماعية للصراعات الطبقية هي التي تفسّر وتحدّد الأوضاع الفعلية التي يجري، فيها، التعبير عن الحياة الجنسية الفردية، وما دام مضمون أحلام كائن بشري يتوقّفُ أيضاً، في آخر المطاف، على الشروط العامة للحضارة التي يعيش فيها»[1].

فالثوّر الأسود الهائج ليس القضيب المنتصب. والرجلان الأسودان، ليسا الأبوين ـ اللذين يمثّل أحدهما الأب الحقيقي،

---

* «للمرّة الثالثة أرضاً، فقدت وعيي وما عدتُ أذكرُ ماذا جرى. قال لي السيد بارون: وقّع على ورقة جاهزة؛ فأشرت له: «لا»؛ عندما استدعى المديرُ السنغاليّ، وقادني هذا الأخير إلى غرفة تعذيب أخرى: «يجب أن تقبل وإلّا فسوف تموت، قال السنغالي.

ـ تبّاً له، يا جان، يجب البدء بالعملية، كان المدير يقول». أوثقت ذراعايّ من خلف، وركّعت، وغُطّس رأسي في صفيحة مليئة بالماء. عندما أوشكتُ على الاختناق، تماماً، سحبوني، وهكذا عاودوا ذلك عدّة مرات حتى إنهاكي الكامل. . .».

لنذكرْ، حتى لا يجهل أحدٌ، أن الشاهد راكوتوفاو حُكم عليه بالموت.

وعليه. عندما نقرأ أموراً كهذه، يبدو جيداً أنّ السيد مانّوني تجاهل بُعداً من أبعاد الظواهر التي يحلّلها: الثور الأسود، الرجال السّود، ليسوا سوى سنغاليي مكتب الأمن، لا أكثر ولا أقل.

(1) Pierre Naville, *Psychologie, Marxisme, Matérialisme*, 2e édit. Marcel Rivière et Cie, éd., p. 151.

والثاني الجد. هاكم ما كان يمكن لتحليل معمَّق أن يعطيه، على أساس خلاصات السيد مانّوني بالذات في الفقرة السابقة، «عبادة الموتى والعائلة».

بندقية القنّاص السنغالي ليست قضيباً، بل هي حقاً بندقية (Lebel) 1916. وليس الثور الأسود والـلص من «الـلولو»، «الأرواح الجوهرية»، بل هما حقاً خلال النّوم تعبير عن هوامات حقيقية، فماذا تمثّل هذه القولبة، هذا الموضوع الرئيس للأحلام، سوى إعادة إلى الصراط المستقيم؟ هم تارةً قنّاصون سُود، وتارةً ثيرانٌ سود في رأسها شِيَةٌ بيضاء، وهي تارة أخرى امرأة بيضاء، بصراحة، ومهذّبة جداً. ماذا نستكشف في هذه الأحلام كلها، سوى هذه الفكرة المركزية: «الابتعاد من الرتابة، يعني التنزّه في الغابات؛ والالتقاء فيها بالثور الذي يعيدكم سريعاً إلى البيت»[(1)].

أيها المالغاشيون، ظلّوا هادئين، ابقوا في مكانكم.

.

فبعد وصف البسيكولوجيا المالغاشية، يأخذ السيد مانّوني على عاتقه تفسير علّة وجود الاستعمار. في أثناء ذلك، يضيف عقدة جديدة إلى اللائحة الموجودة سابقاً: «عقدة بروسبرو»، ـ المحدَّدة بوصفها جملة استعدادات عُصابية، لاعتاهية، ترسم كلها معاً «صورة الأبوية الكولونيالية» و «الصورة الجانبية للعنصري الذي كانت ابنته موضوعَ محاولة اغتصاب (خيالي) من جانب كائنٍ أدنى»[(2)].

(1) Mannoni, *op. cit.*, p. 71.
(2) *Ibid.*, p. 108.

بروسبرو هو، كما نعلم، الشخص الرئيس في مسرحية العاصفة، لشكسبير، في المقابل، هناك ميراندا، ابنتها، وكاليبان. إزاء كاليبان، يأخذ بروسبرو موقفاً يعرفه الأميركيون الجنوبيون تماماً. ألا يقولون إنّ الزنوج ينتظرون الفرصة المناسبة لرمي أنفسهم فوق النساء البيضاوات؟ في كل حال، ما هو مهمّ في هذا القسم من الكتاب، شر الكثافة التي من خلالها يجعلنا السيد مانّوني نحسّ الصراعات غير المحلولة التي تبدو أنها وراء التوجه الكولونيالي. وعليه، يقول لنا: «ما ينقص للكولونيالي مثل بروسبرو، هو ما كان محروماً منه، هو عالم الآخرين، حيث يفرض الآخرون احترامهم. هذا العالم، غادره الكولونيالي - الأنموذج، مطروداً بصعوبة قبول الناس كما هم. هذا الهرب مرتبط بحاجة تسلطية من أصل طفلي، لم يتمكّن التكيّف مع الاجتماعي، من تهذيبها. فلا أهمية لكون الكولونيالي قد استسلم لـ «هاجس الهجرة الوحيد»، لرغبة الهرب من «رعب مهده» أو «الحواجز العتيقة»، أو لكونه يرغب، بشكل أفظع في «حياة أوسع»... فالمقصود على الدوام هو تسوية مع غواية عالم بلا بشر»[1].

ولو أضفنا أن الكثيرين من الأوروبيين يذهبون إلى المستعمرات، لأن هناك يغدو في إمكانهم الاغتناء في وقت قصير، اللهم إلّا إذا ندرّ ولم يكن الكولونيالي تاجراً أو بالأحرى مهرّباً، فعندئذٍ سندرك بسيكولوجيا الإنسان الذي يستثير لدى المواطن الأصلي «شعور الدونيّة» - أما «عقدة التبعية» المالغاشية، أقلّه في الصورة الوحيدة

Ibid., p. 106. (1)

التي تكون في متناولنا وتكون قابلة للتحليل، فتصدر هي أيضاً عن وصول مستعمرينَ بيضٍ إلى الجزيرة. من شكله الآخر، من هذه العقدة الأصلية، في حالتها الأولى، التي ميّزت العقلية المالغاشية طيلة المرحلة السابقة، لا يبدو لنا أن السيد مانّوني مؤهَّل لاستخلاص أية خلاصة متعلّقة بالحالة، بمشكلات أو بإمكانات المواطنين الأصليين في الحقبة الراهنة.

الفصل الخامس

تجربةُ الأسود المعيوشة

«زنجي قذر!» أو بكل بساطة: «هاكَ، زنجيّاً!».

كنتُ قد جئت إلى العالم وأنا مشغولٌ بإعطاء معنى للأشياء، فنفسي مُفعمة برغبة أنْ أكون في أصل العالم، وها أنذا أكتشف أني غرض وسط أغراض أخرى.

أستنجد بالآخر، وأنا محبوس في هذه الموضوعيّة الماحقة. فنظرته المحرِّرة، المنزلقة على جسمي الذي صار بغتة، خالياً من الفظاظات، يمنحني رشاقةً أو خفّة كنت أظنها ضائعة، وكان حين يغيّبني عن العالم، يُعيدني إليه. لكن هناك، تماماً عند المنحدر المعاكس، تعثّرتُ، وكان الآخر بحركاته، بمواقفه، بنظراته، يثبّتني بمعنى تثبيتِ مُسْتَحضرٍ بملوِّن. فكنتُ أستشيط، أطلب تفسيراً... فلا أجده. كنتُ أتفجّر. وهاكم القطع الصغيرة، الإرَب التي جمعها أنا آخر.

ما دام الأسود في دياره، لا يكون عليه أن يجرِّب وجوده مع الآخر، اللهم إلّا في مناسبة صراعاتٍ داخلية صغيرة. حقاً هناك لحظة «الوجود لأجل الآخر»، التي تحدَّث هيغل عنها، لكن كل أونطولوجيا (Ontologie)، كل إنِّيّة، كينونيّة، تغدو مستحيلة التحقق في

مجتمع مُستعمَر ومُمدَّن. يبدو أن هذا الأمر لم يسترعِ كفايةً انتباه أولئك الذين كتبوا في المسألة. هناك في وجودية شعب مستعمر شائبةٌ، عيبٌ يحولُ دونَ أي تفسير وجودي. ربما سيُعترض علينا بالقول إن الأمر هو هكذا بالنسبة إلى كل فرد؛ لكن هذا يعني إخفاء مسألة أساسيّة. فالأنطولوجيا، عندما نسلّم بأنها تترك الوجود جانباً، لا تسمح لنا بفهم كينونة الأسود. لأن الأسود لم يعد عليه أن يكون أسود، بل أن يكونه في مواجهة الأبيض. وسيضع البعضُ في رأسهم تذكيرَنا بأن الحالة تقبل الاتجاهين. وسنردّ بأنَّ هذا غير صحيح. إذ ليس للأسود ممانعة أونطولوجية في نظر الأبيض. فبين عشيةٍ وضحاها، كان للزنوج نظامان مرجعيّان، كان عليهم أن يحدّدوا وقعهم بالنسبة إليهما. إن ميتافيزيقيّتهم، أو بزعمٍ أقلّ، إن تقاليدهم والمراجع التي تُحيل إليها، كانت قد أُبطلت، لأنهَا كانت متناقضة مع حضارةٍ كانوا يجهلونها، وكانت تُفرض عليهم.

كان الأسود في دياره، في القرن العشرين، يجهل لحظة مرور دونيّته، نقصه، عبر الآخر... وبلا ريب، حدث لنا أن ناقشنا المسألة السوداء مع أصدقاء، أو بشكل أندر، مع سُود أميركيين. وكنا نحتجّ معاً ونؤكد على مساواة البشر أمام العالم. وكان هناك في الأنتيل هذا الشَّرخ الصغير الموجود بين ذوي المقامات (البكوات) والمولّدين والزنوج. لكننا كنا نكتفي بفهم فكري لهذه التباينات. الواقع أن هذا الحال لم يكن دراماتيكياً. وبعد...

وبعد أُتيح لنا أنْ نجابه النظرة البيضاء. هناك وزرٌ غير مألوف يقمعنا. فالعالم الحقيقي كان ينازعنا حصتنا، نصيبنا من الوجود. ففي العالم الأبيض، يواجه الإنسان الملوَّنُ مصاعب في رسم مخططه الجسدي. فمعرفة الجسد هي حَصْراً نشاط سالب، نافٍ. إنها معرفة

بلسان الشخص الثالث، الغائب. حول الجسد بأكمله يسود جوّ من الارتياب الأكيد. فأنا أعرف إذا أردت أن أدخّن، سينبغي عليّ مدّ الذراع اليمنى وتناول علبة السجاير الموجودة على الطرف الآخر للطاولة. أما الكبريتة فهي موجودة في الجارور الأيسر، وسيكون عليَّ أنْ أتراجع قليلاً. وكل هذه الحركات، لا أقوم بها بحكم المألوف، بل بمعرفة ضمنية، إنه بناء بطيء لأناي، للأنا بوصفه جسماً، داخل عالم مكانيّ وزماني، هكذا يبدو المخطط المرسوم. فهو لا يُفرض علي، بل هو بالأولى إنبناء نهائي للأنا وللعالم ـ نهائي، لأن ديالكتيكاً فعلياً يقومُ بين جسمي والعالم.

منذ عدّة سنوات، شرعت مختبرات في اكتشاف مصل مُزيل للزنوجة؛ وقامت مختبرات، من أكثر المختبرات جدّيةً في العالم، بتطهير مِخْبراتها، وضبط موازينها، وباشرت البحوثَ التي ستسمح للزنوج المساكين بأنْ يبيضّوا، وبذلك، لا يعودون يتحمّلون وزرَ هذه اللعنة الجسمانية. تحت المخطط الجسماني، كنت قد أنشأت مخططاً، ترسيماً (Schéma) تاريخياً ـ عرقياً. وكانت العناصر التي استعملتها، قد مدّني بها الآخر، الأبيض، الذي كان قد نسج لي ألف تفصيل ونكتة وحكاية، ولم استمدّها من «بقايا الأحاسيس والإدراكات، خصوصاً، اللمسية، الداخلية، الحركيّة والبصرية»[1]. وكنت أظنُّ أنّ عليّ بناء أنا فيزيولوجي، وأنْ أوازنَ المكان، وأنْ أوطّنَ الأحاسيس، وها هم يطلبون مني المزيد.

---

(1) Jean Lhermitte, *L'Image de notre corps*, éd. de la Nouvelle Revue critique, p. 17.

«هاك، زنجياً!» كان ذلك صحيحاً. وكنت أتسلّى.

«هاك، زنجياً!» وكانت الحلقة تضيق شيئاً فشيئاً. فكنت أمرح علناً.

«أمي، انظري الزنجي، أنا خائف!» خوفاً خوفاً ها هم قد بدأوا يخافونني. فأردت أن أسرح وأمرح حتى أختنق، لكنّ ذلك بات مستحيلاً بالنسبة إليّ.

ما عدتُ أستطيع، لأني كنت أعرفُ مسبقاً أن هناك أساطير، حكايات، هناك التاريخ، وخصوصاً التاريخية التي كان ياسبرز قد علّمني إيّاها. والحال، فإن المخطط الجسماني، البُهاجم من عدة نقاط، تهاوى، فاسحاً المجالَ أمام مخطط جلدي عرقي. في القطار، لا يعود الأمرُ متعلّقاً بمعرفة جسمي بصيغة شخص ثالث، بل بصيغة عدّة أشخاص. بدلاً من مقعد واحد في القطار، كانوا يتركون لي مقعدين، ثلاثة مقاعد. وكنت أزداد مرحاً وتسلية. لم أكن أكتشف إحداثيّاتٍ نابضة للعالم. كنتُ أعيش ثلاثياً: كنتُ أملأ المكان، المقعد. كنتُ أذهب إلى الآخر... والآخر المتلاشي، المعادي، لكنّه واضح شفّاف، غائب، كان يتلاشى. الغثيان...

كنتُ في آن مسؤولاً عن جسمي، مسؤولاً عن عرقي، عن أجدادي. كنتُ ألقي على ذاتي نظرة موضوعية، أكتشف سوادي، سماتي الإثنيّة، ـ وكانت تخترق طبلة أذني، أكل لحم البشر، التخلّف العقلي، الفتيشيّة، العيوب العرقية، تجار العبيد، وخصوصاً، وبالأخص: «يوجد موز طيب».

ذلك اليوم، بلا اتجاه، عاجز عن أن أكون في الخارج مع الآخر، الأبيض الذي كان يحبسني بلا شفقة، رحلتُ بعيداً عن وجودي. هنا، بعيداً جداً، وحوّلت نفسي إلى غرض، شيء. فماذا كان ذلك

بالنسبة إليّ، إن لم يكنْ انقلاعاً، انسلاخاً، انفجاراً يسكبُ الدم الأسود، يريقه على جسمي كله؟ مع ذلك، ما كنتُ أتمنّى إعادة الاعتبار هذه، ولا هذه الموْضَعَة. بكل بساطة، كنت أريد أنْ أكون إنساناً بين أناس آخرين. ولربما تمنيت أنْ أصلَ، أسيلاً وشاباً، إلى عالم، يكون عالمنا، ونبنيه معاً.

لكنّي رفضتُ كلَّ تكرُّز عاطفي. أردتُ أنْ أكونَ إنساناً، لا شيء أكثر. وكان بعضهم يربطني بأجدادي، أجدادي المُستعبدين والملنشين: فقرّرت تحمل ذلك. وعبر المخطط الشامل للعقل فهمتُ هذه القرابة الداخلية. لقد كنتُ حفيدَ عبيد، تماماً مثلما كان الرئيس لبران (Lebrun) سليل فلاّحين مُسخّرين ومُستغلّين. في الصميم، كان الإنذار قد تلاشى سريعاً.

في أميركا، يُوضع الزنوجُ على حدة. في أميركا الجنوبية، يُجلد الزنوجُ المُضربون وتُطلق نيران الرشّاشات عليهم في الشوارع. في أفريقيا الغربية، الزنجي بهيمة. وهنا، بالقرب مني، تماماً إلى جانبي، هذا الرفيق في الكلية، الجزائري الأصل، الذي يقول لي: «طالما يجعلونَ العربيّ إنساناً مثلنا، لن يكون أي حلّ قابلاً للحياة».

ـ ترى، يا عزيزي، الرأي الشائع عن اللون، أنا لا أعرف ذلك... لكنْ، كيف إذاً، أدخلوا، سيّدي، لا يوجد لدينا رأي شائع عن اللون... تماماً، فالزنجي إنسانٌ مثلنا... ليس لأنه أسود، يُعَدّ أقلّ ذكاءً منا... كان لدي رفيق سنغالي في الكتيبة، وكانَ في غاية اللّماثة...

أينَ أضع نفسي؟ أو إذا فضّلتم: أين أخبّئ نفسي؟

ـ مارتينيكي، متحدّر من مستعمرات (نا) القديمة. فأين أتخفّى؟

ـ أنظرْ الزنجيا . . . ماما، زنجيا . . اسكتيا سيزعل . . . سيدي، لا تهتمّ، فهو لا يعرف أنك متحضّر مثلنا . .

كان جسمي يعود إليّ مبعثراً، مفككاً، مُبيضّاً، وكله حدادٌ صبيحة هذا اليوم الشتائي الأبيض. الزنجي حيوان، الزنجي سيِّئ، الزنجي خبيث، الزنجي بشع؛ هاك، زنجياً؛ الطقس بارد، الزنجي يرتعد، الزنجي يرتعد لأنه بردان، الصبي الصغير يرتعد لأنه خائف من الزنجي، الزنجي يرتعد من البرد، هذا البرد الذي ينخر عظامكم، الصبي الصغير الحلو يرتعد لأنه يظنّ أن الزنجي يرتعد غضباً، الصبي الأبيض الصغير يرتمي بين ذراعي أمه: أمي، سيأكلني الزنجي.

حول الأبيض، في الأعلى السماء تنتزع صرّتها والأرض تصِرُّ تحت قدميّ، وأغنية بيضاء، بيضاء. كلّ هذا البياض الذي يكلّسني . . .

أجلسُ في زاوية النار، وأكتشف حُلّتي. لم أكن قد رأيتها من قبل. إنها بشعة فعلاً. توقّفت، لأنّ مَنْ سيقول لي ما هو الجمال؟

أين أختفي من الآن وصاعداً؟ كنتُ أشعر بصعود مدٍّ يسهلُ التعرّف إليه، صعوده من شتاتٍ وجودي اللامتناهي. فرحت أستشيط غضباً. منذ زمن بعيد، كانت النار قد ماتت، ومجدّداً راح الزنجي يرتعد.

ـ أنظر، إنه جميل، هذا الزنجي . . .

ـ الزنجي الجميل يزعجك، مدام!

كان العارُ يزيّنُ وجهه. أخيراً كنت قد تحرّرت من اجتراري. وفي الوقت عينه، كنت قد أنجزتُ أمرين: لقد حدّدت أعدائي وأحدثتُ فضيحة. مفعماً، سأتمكّن من التسلية والمرح.

بعدما تحدّد ساحُ الوغى، دخلتُ في صفّالة الجلد.

كيف؟ بينما كنت أنسى، أغفرُ ولا أرغب في شيء آخر سوى أنْ

أحبّ، كانت رسالتي تُعاد إليّ مثل صفعةٍ على كل وجهي. فالعالم الأبيض، النزيه وحده، كان يمنعني من كل مشاركة. فمن الإنسان كان يُطلب سلوك إنساني. مني أنا، كان يُطلب سلوك إنسان أسود ـ أو على الأقل، سلوك زنجي. كنتُ أنادي العالم وكان العالم يُعمني عن حماسي. فكانوا يطلبون مني أنْ أنزوي، أن أنطوي وأتقلّص.

سيرون! مع ذلك كنتُ قد حذّرتهم. الرّق؟ ما عادوا يحكون عنه، إنه ذكرى سيئة. نقصي المزعوم؟ دُعابة، مزحة، كان من الأفضل الضحك منها. نسيت كل شيء! لكن، بشرط ألّا يعود العالم يخفي عني خاصرتَه. كان عليّ أن أجرّب نواجذي. كنت أحسّها قوية. وبعد...

كيف؟ كيف يطردونني، وأنا لديّ كل الأسباب للحقد وللكره؟ كيف يرفضون أي اعتراف، فيما أنا مستحق للتوّسل والتّرجي؟ وما دام من المستحيل عليّ أن أنطلق من عقدة فطرية، قرّرت أنْ أؤكد نفسي كأسود. طالما أنّ الآخر متردّد في الاعتراف بي، لم يبق سوى حلّ واحد: جعله يعرفني.

كتبَ جان ـ بول سارتر في تأمّلات حول المسألة اليهودية: «تركوا (اليهود) أنفسهم يتسمّمون بتمثّل معيّن يحمله الآخرون عنهم، وعاشوا في الخوف من عدم مطابقة أعمالهم لهذا التمثل؛ وهكذا، من الممكن القول إن السلوكات تتحدّد، دوماً، من الداخل» (ص 123).

لكن اليهودي يمكنُ تجاهله في يهوديته. فهو ليس تماماً ما هو عليه. إنّه يأمل، إنّه ينتظر. ففي نهاية المطاف، أعماله تقرّر، سلوكه يقرّر. فهو أبيض، ولولا بعض السّمات القابلة للنقاش الشديد، يمكنه أن يمرّ بدون التباس. إنه ينتمي إلى عرق أولئك الذين جهلوا، في كل عصر، أكل اللحم البشري. فيا لها من فكرةٍ تدّعي أكل الأب!

هذا حسن، يكفي المرءُ ألّا يكون زنجياً. بالطبع، ماذا أقول، اليهودُ هم مُنَغصون؛ إنهم مُلاحقون، مُبادون، محروقون؛ لكنّ هذه حكايات عائلية صغيرة. لا يكون اليهودي محبوباً، منذ أن يجري تحليله. لكنْ معي، كلّ شيء يرتدي وجهاً جديداً. ما من فرصةٍ تُتاح لي. فأنا محدَّد، متعيّن، من الخارج. أنا لست عبد «الفكرة» التي يكوّنها الآخرون عني؛ لكنّي عبد مظهري وظهوري.

أجيءُ إلى العالم ببطء، معتاداً على عدم المطالبة بالانبثاق. أدبُّ دبيباً، زحفاً. فالنظراتُ البيض، الحقيقية وحدها، تشرِّحني. أنا مثبَّت. فبعدما ضبّطوا مجهرَهم القاطع، قاموا بتقطيع واقعي تقطيعاً موضوعياً. أنا مُختان. أشعر، أرى في هذه النظرات البيض أن الذي يدخل ليس إنساناً جديداً، بل نمط إنساني جديد، نوع جديد. يعني زنجياً!

أنزلق في الزّوايا، ملتقطاً بهوائيّاتي المديدة الحكَم المتناثرة فوق سطح الأشياء ـ لغسيل الزنجي رائحة الزنجي ـ أسنان الزنجي بيض ـ كبيرة هي قدما الزنجي ـ صدر الزنجي عريض. ـ فأنزلق في الزوايا، أمكث صامتاً، أتوقُ إلى الغفلة، إلى النسيان. هاكم، إني أتقبّل كلَّ شيء، ولكن ليكن احتجابي كلياً عن الأنظار!

ـ هيا، تعال أقدمك إلى رفيقي الأسود... إيميه سيزير، رجل أسود، مبرِّز من الجامعة... ماريان أندرسون أعظم مغنيّة سوداء، الدكتور كوب (Cobb)، مخترع الدم الأبيض، هو زنجي... هيا، صبِّحْ على صديقي المارتينيكي (إنتبه، إنه حسّاس جداً)...

الخجل، العار والاحتقار للذات. الغثيان. فهم عندما يحبّونني، يقولون لي: هذا على الرغم من لوني. وعندما يكرهونني، يضيفون: ليس هذا بسبب لوني... هنا أو هناك، أنا أسيرُ الحلقة الجهنميّة.

أنقلبُ على هؤلاء المنقِّين عما قبل الطوفان، وأرتدُّ إلى أخواني، الزنوج مثلي. يا للهول، إنهم يُنكرونني. هم يكادون يكونون بِيْضاً. وفوق ذلك، يوشكون أن يتزوّجوا بيضاء، سيكون لديهم أطفال سُمْر قليلاً... من يدري، رويداً رويداً، ربما...

كنتُ أحلم.

ـ ألا ترون، سيّدي، أنا واحد من أكثر محبّي الزنوج في ليون.

هناك كانت البيّنةُ جليّة. كان سوادي هناك، كثيفاً ولا جدال فيه. وكان يعذّبني، كان يطاردني، يُقلقني، يغضبني.

الزنوج متوحّشون، همجيّون، أميّون. لكني أنا كنت أعرف أن هذه الأقاويل لا تنطبق على حالتي. كان هناك أسطورة الزنجي التي كان ينبغي القضاء عليها، مهما كلّف الأمر، لم تعد في العصر الذي كان المرء يُعجب فيه من رؤية خوري زنجي. كان لدينا أطباء، أساتذة، رجال دولة... نعم، لكن في هذه الحالات، لا يزال هناك شيء مُهين. «لدينا أستاذ جغرافيا سنغالي. إنه ذكي جداً... طبيبنا أسود. إنه لطيف جداً».

لقد بدأ يحكي عن الأستاذ الزنجي، الطبيب الزنجي؛ وأنا الذي أخذت أضعف، كنت أرتعش لدى أقل إنذار. إذ كنت أعرف، مثلاً، أن الطبيبَ إذا ارتكب خطأ، تكون نهايته هو وكل اللذين قد يحذون حذوه. والحال، ماذا يُنتظر من طبيبٍ زنجي؟ ما دامت الأمورُ تسير على خير ما يرام، كانوا يحملونه على الرّاحات؛ لكنْ، يا هذا، حذارِ، لا حماقات، بأي ثمن! لن يعرف الطبيب الأسود قط إلى أي حدّ يقارب موقعه التشهير. أقول لكم، كنتُ حبيساً، فلم تحظَ بأية رحمة، مواقفي المهذّبة، ولا معلوماتي الأدبية ولا فهمي لنظرية الكوانتات.

طالبتُ، اشترطت تفسيرات. بلطفٍ، مثلما يُحكى مع طفل، كشفوا لي عن وجود رأيٍ معين كان يتبنّاه بعضُ الأشخاص لكن أضيف، «لا بد من الأمل بزواله السريع». زوال ماذا؟ التعصب إزاء اللون.

«ليس التعصب إزاء اللون بشيء آخر سوى حقدٍ أعمى يكنّه عرق لعرق آخر، احتقار الشعوب القويّة والغنية للشعوب التي تعتبرها أدنى منها، ثم الشعور المرير لدى هؤلاء المُكرهين على الإذعان، والذين تلحق بهم المهانة. بما أن اللون هو علامة العرق الخارجية الأشد بروزاً، فقد صار المعيار الذي، من زاويته، يُحكم على النّاس، بصَرف النظرَ عن مكاسبهم التربوية ومكتسباتهم الاجتماعية. فالأعراقُ ذات اللون الفاتح بلغ بها الأمر أن تحتقر الأعراق ذات اللون الداكن، وهذه تمانع الإذعان، أكثرَ وأطول، للوضع الممحو الذي يُراد فرضه عليها»[1].

كنت قد قرأتُ جيداً. لقد كان ذلك حقداً؛ كنت مكروهاً، ممقوتاً، مُحتقراً، ليس من الجار المقابل أو من الخال، بل من عرق بأكمله. كنتُ عُرضة لشيء ما غير معقول. يقول المحلّلون النفسانيّون: لا يوجد بالنسبة إلى الفتى ما هو أكثر صدماً من صدمة الاتصال بما هو عقلاني. شخصياً سأقول: بالنسبة إلى إنسان لا يملك سلاحاً سوى العقل، ليس هناك شيء عصابي أكثر من الاصطدام باللامعقول.

كنتُ أشعر أن شفراتِ سكين تولدُ فيّ. فأخذتُ القرار بالدّفاع عن نفسي، كمناور بارع، أردت عقلنة العالم، والبرهان للأبيض على أنه كان في ضلال.

---

(1) Sir Alan Burns, *Le préjugé de race et de couleur*, Éd. Payot, p. 14.

يقول جان بول سارتر، إن لدى اليهودي «نوعاً من الإمبريالية المهووسة بالعقل: لأنه لا يريد الإقناع بأنه على حق وحسب، إذ إن هدفَه هو إقناع محاوريه بوجود قيمة مطلقة وغير مشروطة للعقلانيّة. فهو يعتبر نفسه رسولاً للشمولي؛ بمواجهة شمولية الدين الكاثوليكي، المُستبعد منها، يُريد أن يقيم «كاثوليكيّة» العقلاني، كأداةٍ لبلوغ الحق والرابط الروحي بين الناس»[1].

ويضيفُ الكاتب، إذا وُجد يهود ليتخذوا من الحَدْس المقولة الأساسية لفلسفتهم، فإن حَدْسَهم «لا تشبه بشيء روح الدقة الباسكالية: فروح الدقة هذا، اليقيني والمثير، القائم على ألف إدراك لا يقبل الإدراك، هو الذي يبدو لليهودي أنّه أسوأ أعدائه. أما برغسون، فإن فلسفته تعرض الجانب المثير، الطريف من عقيدة مناهضة للفكرانية، قائمة بأكملها على الذكاء الأشد عقلاً ونقداً. فهو إذْ يحاجج، إنما يقرّر وجود ديمومة بحتة، حَدْس فلسفي؛ وهذا الحَدْس بالذات هو الذي يكشفُ الديمومة أو الحياة، فهو شمولي، كلّي. بحيث يستطيع أن يمارسه كلُّ فرد، ويتناول الكلي ما دامت أغراضه قابلة للتسمية والإدراك»[2].

بحماسٍ، رحت أستطلع، أتحرّى المحيط. ومع الأيام، شوهد الدين الكاثوليكي يسوِّغ ثم يدين الرّق، والتمييزات. لكن حين أُعيد الكلُّ الى مفهوم الكرامة الإنسانية كانت بطون الأحكام المسبقة قد بقرت. وبعد كثير من التّردّد، كان العلميّون قد سلّموا بأنَّ الزنجي كان كائناً بشرياً؛ فهو بلحمه وشحمه، قد تبيَّن أنه مماثل للأبيض: له

(1) *Réflexion sur la question juive*, pp. 146-147.
(2) *Ibid.*, pp. 149-150.

المورفولوجيا نفسها، الهيستولوجيا ذاتها، وكان العقل يحرز النصر على كل الأصعدة. فعدت إلى الاجتماعات والجمعيّات. لكنْ كان عليّ التخفيفُ من غلوائي.

كان النصر يلعبُ لعبة الهرّ والفأرة؛ فكان يزدريني. كما كان يقول أحدهم، عندما أكون هناك، لا تكون فيه، وعندما تكون هناك لا أعود فيه. كنا متواهمين على صعيد الفكرة: الزنجي هو كائن بشري. أي، كان يضيفُ الأقلُّ اقتناعاً، أنّه مثلنا، قلبه إلى اليسار. لكن في بعض الأمور، بقي الأبيض لا يُطاق. فهو لا يريد، بأي ثمن، علاقة حميمة بين الأعراق، لأننا نعرف أن «التداخلات بين أعراق مختلفة تخفض المستوى الجسدي والعقلي... إلى أن تغدو لدينا معرفةٌ أثبت بمؤثّرات تشابك الأعراق، سيكون من الأحسن تجنّب التداخلات بين أعراق متباعدة جداً»(1).

أما أنا فسوف أعرف كيف أردُّ. وبمعنىً ما، لو كان عليّ أنْ أحدِّد نفسي، لقلتُ إني أنتظر؛ ورحت أستجوبُ المحيطات بي، وأفسّر كل شيء انطلاقاً من اكتشافاتي، بعدما صرتُ شديد التأثر.

ففي بداية التاريخ الذي صنعه الآخرون لي، أبرز ركن أكل اللحم البشري بروزاً بيناً، لكي أتذكّره تماماً. وأنهم أخذوا يرسمون فوق صبغيّاتي بعض المورّثات (الجينات) الكثيفة نسبيّاً، الممثلة لأكل اللحم البشري. وإلى جانب المورّثات الجنسية (Sex Linked)، جرى اكتشاف المورّثات العرقية (Racial linked).

لكنّي استوعبت هذه «الآلية البسيكولوجية». لأن الجميع يعلمون،

---

(1) J.-A. Moein, IIe Congrès International d'eugénisme, cité par sir Alan Burns.

لا توجد بسيكولوجية إلّا هذه الآلية. فمنذ قرنين، كنت ضائعاً بالنسبة إلى الإنسانية، عبداً إلى الأبد. ومن ثمّ جاء بشرٌ، معلنين أن هذا الأمر قد دام طويلاً جداً. وقامت معاندتي بالبقية الباقية؛ فقد جرى إنقاذي من الطوفان الحضاري. وتقدّمت. . .

بعد فوات الأوان! فكل شيء مرسوم، موجود، مبيَّن ومستثمَر. يدايَ العصبيّتان لا تُفضيان إلى شيء؛ لقد استنفدَ المَنجم. فات الأوان! لكنْ، هنا أيضاً، أريد أنْ أفهم.

منذ الزّمان الذي تذّمر البعض من مجيئه متأخراً جداً ومن كون كل شيء قد قيل، يبدو أن هناك حنيناً للماضي. فهل هذا هو الفردوس المفقود الأصلي، الذي يتحدَّث عنه أوتو رانك؟ وكم من هؤلاء، المثبتين، على ما يبدو، في رحم العالم، كرّسوا حياتهم لفهم نبوّات دلفس أو جدوا واجتهدوا لاستكشاف رحلة عوليس! إن الروحانيين الشموليّين، حين أرادوا البرهان على وجود نفْس لدى الحيوانات، استعملوا الحجّة التالية: ثمة كلبٌ ينام فوق قبر سيّده ويموتُ فوقه جوعاً. يعود إلى جانيه تبيان أنّ الكلبَ المزعوم، بخلاف الإنسان، لم يكن بكل بساطة قادراً على تصفية الماضي. يقول أوتو: يحكى عن عظمة يونانية؛ لكنّه يضيف: لئن كان شعبُ اليوم لا يفهم مأثورات أخيلوس، فذلك لأنَّ أخيلوس على خطأ. فباسم التراث يقوِّم اللاساميّون «وجهة نظرهم». باسم التراث، هذا الماضي التاريخي المديد، هذه القرابة الدموية مع باسكال وديكارت، يُقال لليهود: لن تتمكنوا من إيجاد موضع لكم في المجتمع. مؤخراً، كان أحد هؤلاء الفرنسيين الطيبين قد صرَّح، في قطار كنتُ قد استقليته:

«فلتستمر الفضائل الفرنسية حقاً، وعندها يُنقذ العرق! في الوقت

الحاضر، يجب تحقيق الاتحاد الوطني. أوقفوا الصراعات الداخلية، في مواجهة الأجانب (واستدار نحوي) أياً كانوا».

يجب أن نقول إبراءً له إنه كان يفوح برائحة النبيذ الأحمر الثقيل؛ ولو كان يستطيع، لقالَ إن دمي كعبد معتوق لم يكنْ قادراً على التدلّه باسم ڤيّون (Villon) أو تين (Taine).

يا للعار!

اليهودي وانا: غير راضٍ عن تعريقي، بضربة حظٍّ سعيدة، كنت أتأنسن. انضممت إلى اليهودي، فأصبحنا أخوين في التعاسة.

يا للعار!

فمنذ الوهلة الأولى، قد يبدو مدهشاً أن يتقارب موقفُ اللاساميّ من موقف معاداة الزنجي. لقد ذكّرني بذلك، ذات يوم، أستاذي في الفلسفة، الأنتيلي الأصل: «عندما تسمعونهم يتحدّثون بسوءٍ عن اليهود، أصيخوا السمع، فالحديث عنكم». وكنتُ أرى أنه كان محقّاً تماماً، وأعني بذلك أني كنت مسؤولاً، بجسدي وبنفسي، عن المصير المخصّص لأخي. منذ ذلك الحين، أدركت أنّه كان يريد أن يقول بكل بساطة: اللاسامي هو بالضرورة معادٍ للزنجي.

لقد وصلتم متأخرين جداً، جداً جداً. دائماً سيكون هناك عالم ـ أبيض ـ بينكم وبيننا... هذه الاستحالة لدى الآخر من تصفية الماضي تصفيةً نهائية. يُفهم، إزاء هذا الخَدَر العاطفي للأبيض، أني تمكّنتُ من أن أقرّر رفعَ عقيرتي الزنجيّة. رويداً رويداً، أطلقتُ نداءاتٍ كاذبة، ورحتُ أفرزُ عِرقاً. وراح هذا العرق ينوء تحتَ عبء عنصر أساس. ما هو؟ الإيقاع! اسمعوا سنغور، شاعرنا:

«إنه الشيء الأكثر حساً والأقل ماديّة. إنه العنصر الحيوي بامتياز. إنه الشرط الأول وعلامة الفن، مثل تنفّس الحياة؛ فالتنافس يتسارع أو يتباطأ، يغدو منتظماً أو مضطرباً بحسب توتّر الكائن، بحسب درجة الانفعال ونوعيته. تلك هي الوتيرةُ الأصلية في نقاوتها، وذلك

هو الإيقاع في روائع الفن الزنجي، خصوصاً في فن النحت. فهو مصنوع من فكرة رئيسية ـ شكل نحتي ـ تتعارض مع فكرة رئيسية شقيقة، مثلما يتعارض الشهيق والزفير، ولكنها تُستأنف. ليس هناك توازٍ يولّد الرتابة؛ إذْ إن الإيقاع حي، وهو حر... هكذا، يؤثر الإيقاعُ في ما هو فينا أقلّ عقلية، يؤثّر باستبداد، ليجعلنا نتوغّل في روحانية، الموضوع؛ وحتى إن هذا الموقف الهَجْرِيّ، الخاص بنا، هو موقف إيقاعي»[1].

هل قرأت جيّداً؟ عاودت القراءة مراراً وتكراراً. في الجهة المقابلة للإنسان الأبيض، ثمة ثقافة زنجية ساحرة تحييني. فن النحت الزنجي! بدأت أحمرّ افتخاراً. هل ثمة في ذلك الخلاص؟

كنتُ قد عقلنتُ العالمَ وكان العالمُ قد نفاني باسم التعصب اللوني. وما دام التوافق مستحيلاً على صعيد العقل، ارتدّيت صوب اللاعقلانية. بدعوى أنّ الأبيض أكثرَ لاعقلانيةً مني. وللضرورات، كنتُ قد اعتمدت المسارَ التقهقري؛ لكنّه كان سلاحاً غريباً؛ هنا، أنا في دياري؛ وأنا مبني بناءً لاعقلانياً؛ أنا غارق في اللاعقلانية. لاعقلاني حتى العنق. والآنَ، ليتماوج صوتي!

«هؤلاء الذين لم يخترعوا البارود ولا البوصلة
هؤلاء الذين لم يستطيعوا أبداً السيطرة على البخار والكهرباء
هؤلاء الذين لم يستكشفوا البحار ولا السماء
لكنهم يعرفون بلد العذاب في أدنى زواياه
هؤلاء الذين لم يعرفوا من الرحلات سوى الاجتثاثات

(1) «Ce que l'homme noir apporte», L'Homme de couleur, pp. 309-310.

هؤلاء الذين رقّوا ولطفوا من الرّكوع
هؤلاء الذين جرى تدجينهم وتنصيرهم
هؤلاء الذي لقّحوا بالغباوة...».

أجل، كل هؤلاء هم إخواني ـ «أخوة حادّة» تصيبنا جميعنا. ـ بعدما أكّدت الأطروحة الصغرى، قلتُ من وراء الضفاف، شيئاً آخر.

«... لكنّ هؤلاء الذين من دونهم لن تكون الأرضُ
أرضاً
الحَدَبة الأكثر إحساناً
بمقدار ما
تهجر الأرض
الأرض أكثر
إهراء، حيث يُحفظ وينضج ما تحتويه الأرض
الأكثر أرضاً
زنوجتي ليست حجراً،
صَممُها يزحف فوق جلبة النّهار
زنوجتي ليست وَذَمَة مياه ميتة
فوق عين الأرض الميتة
زنوجتي ليست برجاً ولا كاتدرائية
فهي تغوصُ في لحم التراب الأحمر
تغوصُ في لحم السماء المتوقّد
تثقبُ ضنى صبرها المستقيم الكثيف»[1].

(1) A. Césaire, *Cahier d'un retour au pays natal*, pp. 77-78.

هيّا التام - تام يرطنُ الرسالة الكونية. وحدّه الزنجي قادر على إرسالها، وعلى فكّ رموز معناها ومداها. ممتطياً العالم؛ الأعقابُ القوية مثبتة على منحدرات العالم، ألمّع قبة العالم، مثلما يلمّع الكاهن ما بين عينَيْ الضحيّة.

«لكنّهم يستسلمون، مأسورين إلى جوهر كل شيء، وهم غافلون عن سطح الأشياء، كل شيء، لكنهم محيطون بحركة كل شيء.

غير آبهين بالترويض، لكنهم يلعبون لعبة العالم
فهم حقاً أبناءُ العالم البكارى
مساماتهم مفتوحة لكل أنفاس العالم
المجال الأخوي لكل أنفاس العالم
مجرى كل مياه العالم الذي لا منفذ له، مجرى
الشرارة لنار العالم المقدسة
لحم لحم العالم النابض بالحركة،
حركة العالم نفسه!»[1].

دم! دم! . . . ولادة! دُوار الصيرورة! شعرتُ أنّي أحمَرُ من الدم، وثلاثةُ أرباعي غارقة في ذهول النهار. فقد دارت حولي وأخصبتني شرايينُ العالم، المتقَلبة، المتقلعة، المُجتثة.

«دم! دم! كل دمنا المنفعل
بقلبِ الشمس الذَّكَر»[2].

كانت التضحية قد لعبت دور الحد الأوسط بين الخليقة وبيني -

---

(1) *Ibid.*, p. 78.
(2) *Ibid.*, p. 79.

لقد اكتشفت الأصل، لا الأصول. إلا أنه، كان يتوجب الحَذر من الإيقاع، ومن الصداقة الأرض ـ الأم، هذا الزواج الصوفي، الجسدي، بين الجماعة والكون.

في كتاب، «الحياة الجنسية في أفريقيا السوداء»، وهو عمل غني بالشواهد، يوحي «بدرال أنّ على الدوام في أفريقيا بنية سحرية ـ اجتماعية معينة، مهما كان المجال المدروس. ويضيف «كل هذه العناصر هي التي نشهدها على صعيد أوسع أيضاً في مجال المجتمعات السرية. ذلك، على كل حال، بقدْر ما يتعيّن على المختونين والمختونات، المطهَّرين في سنّ المراهقة، ألّا يطلعوا غيرَ المُدرَّبين على ما عانوه، تحت طائلة الموت، وبقدر ما يكون التدريبُ على دخول مجتمع سرّي، مستدعياً على الدوام أفعالَ حبٍّ مقدّس، ثمّة مجالٌ لأن نختم، معتبرين أنّ ختان الذُكور والإناث وما يرافقهما من شعائر، هما بمثابة مكوّنات مجتمعات سرية صُغرى»[1].

أمشي فوق أشواك بيضاوات. هناك طبقات مائية تتهدَّد نفسي النارية. أمام هذه الشعائر، أضاعف انتباهي وحذري. سحر أسودا طقوس عربدة، محفلُ السَّبْت، احتفالات وثنيّة، تعاويذ. المجامعة هي المناسبة لذِكر آلهة الأخوية. المجامعة فعل مقدَّس، محض، مطلق، مؤات لتدخل القوى الخفيّة. ما رأيكم بكل هذه التجليات، كل هذه التلقينات والتدريبات، كل هذه العمليات؟ من كل حدب وصوب، أتذكر فحش الرقصات ووقاحة الاقتراحات. بالقرب مني تماماً، تتردّد أغنية:

«من قبل كانت قلوبنا حارّة جداً
وهي الآن باردة

(1) De Pédrals, La vie sexuelle en Afrique noire, Payot, p. 83.

لم نكن نفكر بغير الحب
حين نعود إلى القرية
وعندما سنصادف قضيباً هائلاً
آه! كم سنمارس الحبَّ جيداً
لأن عضونا الجنسي سيكون يابساً ونظيفاً»[1].

الترابُ، الفرس المُروَّضة على التوّ، يأخذ بالضحك. هل هي هذه مهووسات جنسياً عذارى؟ سحر أسود، عقلية بدائية، أرواحيّة، غُلميّة حيوانية، كل هذا يرتد نحوي. كل هذا يميّز الشعوبَ التي لم تتابع تطور البشرية. المقصود هنا، إذا شئتم، إنسانية بأسعار مخفضة. عندما وصلتُ إلى هذه النقطة، تردّدت مطوّلاً قبل تورّطي. صارت النجوم عدوانية. وكان عليّ أنْ أختار. ماذا أقول، لم يكنْ ليَ خيار...

نعم، نحن (الزنوج) متأخرون، بسطاء، أحرار في تجلّياتنا. ذاك أن الجسد، في نظرنا، لا يتعارض مع ما تسمّونه الروح. نحن موجودون في العالم. وليعشْ الزوجان، الإنسان ــ الأرض! إلى ذلك، كان أدباؤنا يساعدونني على إقناعكم؛ فحضارتكم البيضاء تُنكِر الثروات الرقيقة، رهافة الحس. إسمعوا:

«حساسية انفعالية. الانفعال زنجيّ مثلما هو العقل هلّيني[2]. ماء تنثره كلُّ الأنفاس؟ نَفْس هواءٍ طلق تذروها الرّياح، وغالباً ما يسقط ثمرُها قبل النضج؟ نعم، بمعنى ما، فالزنجي هو اليوم أغنى بالهبات منه بالمنجزات[2]. لكنَّ الشجرة تضربُ جذورَها في الأرض. والنهر

(1) Versiat, Les rites sacrés de l'Oubangui, p.113.

(2) التشديد لنا.

يجري في العمق، مجرجراً شَذَرَاتٍ ثمينة. و، يغني الشاعر الأفريقي ـ الأميركي، لانغستون هوغز (Langston Hughes):

«عرفت أنهاراً عريقة
أنهاراً قاتمة
صارت نفسي عميقة
مثل الأنهر العميقة»

حتى إنّ طبيعة الانفعال، الحساسية لدى الزنجي، من جهة أخرى، تفسّر موقفه تجاه الشيء المنظور بمثل هذا العنف الجوهري. إنه تَرْكٌ يغدو حاجةً، موقفاً إيلافيّاً فعّالاً، وحتى تماهياً، ما إن يكون الفعل قوياً بعض الشيء، وكدتُ أقول شخصيّة الشيء. إنه موقف إيقاعي، فلتحفظ الكلمة»[1].

وها هو الزنجيُّ مستعيداً أهليته، ممسكاً بمقبض الدّفة، يقود العالم بحدْسه. إنه الزنجي المُستعاد، المُستَجمع، المطلوب، المسؤول، وهو زنجي، لا، إنه ليس زنجياً البتّة، بل هو الزنجيّ، يُنذر هوائيّات العالم الغنية، الزنجي المزروع في المقدّمة الأولى لمسرح العالم، ناضحاً العالمَ بقوّته الشاعرية، «فاتحاً مسامّه لكل أنفاس العالم». إني أتزوّجُ العالم! أنا العالم! الأبيض لم يفهم يوماً هذا الإبدال السحري. الأبيض يريد العالم؛ يريده له وحده فقط. يكتشفُ أنه هو سيّد، هذا العالم المهيأ سلفاً. فيستعبده. تقوم علاقة امتلاكية بينه وبين العالم. لكنْ هناك قيم لا تتلاءم إلّا مع طريقتي. كساحر، أخطفُ من الأبيض «عالماً ما»، ضائعاً بالنسبة إليه وإلى بني جلدته. هذا اليوم، كان على الأبيض الشعور بصدمة ارتجاعية لم يستطع تحديدها، لقلة اعتياده كثيراً على مثل هذه الاستجابات. ذاك أني،

---

(1) Senghor, *Ce que l'homme noir apporte*, p. 295.

فوق العالم الموضوعي للأراضي ولمزارع الموز أو المطاط، كنتُ قد أقمتُ العالمَ الحقيقي، بدقّة. لقد كان جوهرُ العالم ملكي. بين العالم وبيني، كانت تقوم علاقةُ تعايش. كنت قد اهتديت إلى الواحد الأول. وكانت «بنايَ الرّنانتان» قد افترستا حنجرةَ العالم الهستيرية. شعرَ الأبيضُ شعوراً حاداً بأني كنتُ قد أفلتُّ منه، وأني كنت آخذ معي شيئاً ما. فراح يفتّش جيوبي. مرَّر مجسته على أدنى خباياي ارتساماً. أينما كان الأمور تنتمي إلى ما هو معروف. وعليه، كان واضحاً أنّي كنت أحملُ سرّاً. جرى استجوابي؛ وحين انعطفتُ عن جوّ سرّي، دمدمتُ:

«عمّي، توكوالي، أتذكرُ ليالي الأمس
عندما كان رأسي يرتاح على ظهر صبرك أو
عندما أمسكت بيدك يدي وقدتني عبر الدياجي
والأمارات
كانت الحقولُ أزهار أشعار ساطعة، وكانت النجوم
تستريح على الأعشاب، فوقَ الأشجار
وكان يحيط الصّمتُ بنا
وحدها كانت تنشر روائح الأدغال، وكانت
قفران النحل الأشقر المطلّ على التموّج البارد
للجداجد،
وكان التام ـ تام محجّباً، وراء أنفاس الليل في البعيد،
أنتَ توكوالي، تسمعُ ما لا يُسمع، وتفسّر لي ما يقوله
الأجدادُ
في صفاء الثريّات البحري،
الثور، العقرب، الفهد، الفيل والأسماك الأليفة،
ومضخّة الأرواح المُلَبَّنة بقشر الدّبغ السّماوي، التي لا
تتناهى،

لكنْ، هاك روح الإلهة القمر ولتسقطْ حجاباتُ الدياجير.
يا ليل أفريقيا، يا ليلي الأسود، الصوفي والصافي، الأسود والساطع»[1].

كنتُ قد جعلت من نفسي شاعرَ العالم. كان الأبيضُ قد اكتشف شعراً لم يكن فيه شيء شاعريّ. كانت نفْس الأبيض فاسدةً، وكما قال لي صديقٌ كان يعلّم في الولايات المتحدة: «في مواجهة البيض، يشكّل الزنوج، بنوعٍ ما، ضمانةَ الإنسانية. فعندما لا يشعرُ البيضُ أنهم غير مُمكّنين كثيراً، يرتدّون إلى البشر الملونين ويطلبون منهم قليلاً من الغذاءِ الإنساني». أخيراً، جرى الاعترافُ بي، ولم أعدْ عَدَماً.

كانَ عليّ أنْ أفقد أوهامي بسرعة. فبعد لحظة تخاطر، شرحَ الأبيضُ لي أنّي كنتُ أمثّل، تناسلياً، مرحلة: «لقد استنفدنا محاسنكم. كان لدينا من متصوّفة الأرض ما لن تعرفوه يوماً. أكبّوا على تاريخنا، وستفهمون المدى الذي بلغه ذلك الانصهار». عندها شعرتُ أني أكرّر طوراً. فقد سُلبتْ مني أصالتي. وظللت أبكي طويلاً، وبعد، رجعتُ إلى الحياة. لكنّي كنتُ مأخوذاً بسلسلة تعاويذ مفكّكة: رائحة الزنجي الفريدة... طيبة الزنجي الفريدة... سذاجة الزنجي الفريدة....

كنتُ أحاول الهرب من العصابة، لكنّ البيض وقعوا عليّ عرقبوني في الجهة اليسرى. مسحتُ حدودَ جوهري؛ وبلا شك، كان ذلك

---

(1) Senghor, *Chants d'ombre*, Éd. du Seuil, 1945.

المسح هزيلاً. عند هذا المستوى يقع اكتشافي الأكثر اختراقاً. في الحقيقة، هذا الاكتشاف كان معاودة اكتشاف.

بلهول، نقّبت الأزمنة السوداء القديمة؛ وما اكتشفته فيها أصابني بالحيرة. شولشر، في كتابه إلغاء الرّق، كان يقدّم لنا ذرائع قاطعة. منذ ذلك الحين، جرى الاحتفال بفروبنيوس، وسترمان، ولافوس، وكلهم من البيض: سغو، دجنّي، مدن لأكثر من مئة ألف ساكن. يحكى عن دكاترة سود (عن فقهاء كانوا يذهبون إلى مكّة للسجال في القرآن). كل هذا المنبوش، المنفوش مثل الأحشاء في الريح، سمح لي باستكشاف مقولة تاريخية صالحة. لقد أخطأ الأبيض، فأنا لم أكنْ بدائياً، كما لم أكنْ نصفَ إنسان، بل كنت أنتمي إلى عرق كان يصنّع الذهبَ والفضة، قبل ألفي سنة. وبعد، كان ثمة شيء آخر، شيء آخر لم يكن الأبيضُ قادراً على فهمه. اسمعوا:

«من كان هؤلاء الناس، إذاً، الذين كانت همجيّةٌ راسخة على مرّ العصور، تنتزعهم على هذا النحو من بلدهم، من آلهتهم ومن عائلاتهم؟

«كانوا أناساً لطيفين، مهذّبين، لائقين، متفوقين بلا شك على جلاّديهم، تلك الحفنة من المغامرين الذين كانوا يكسرون أفريقيا، يتهكونها، يشتمونها لكي ينهبوها على أحسن وجه.

«كانوا قد شيّدوا بيوتاً ودبروا ممالك، وبنوا مدناً وزرعوا حقولاً ونقبوا المعادن، ونسجوا القطنَ وصهروا الحديد وصنّعوه.

«وكانت ديانتهم رائعة، مكوّنة من اتصالاتٍ خفيّة بمؤسس الحاضرة. كما كانت آدابهم الجميلة قائمة على التكافل والحفاوة واحترام السّن.

«لا إكراه، بل تعاضد وفرح بالحياة وانضباط طوعي حرّ.

«نظام ـ كثافة ـ شعر وحرية.

«فمن الفرد الخالي من القلق إلى الزعيم شبه الخرافي، سلسلة متصلة من التفاهم والثّقة. لا علم؟ صحيح، لكنْ كانت لديهم، لتوقّي الخوف، أساطيرُ كبرى حيث كانت المشاهدةُ الأدق والخيال الأرق، في توازن وانسجام. لا فنّ؟ كانت لديهم تماثيلهم الرائعة، حيث الانفعال الإنساني لا يتفجّر أبداً بهذه القوة إلّا لكي ينظم، بحسب قوانين الإيقاع المهيمنة، المسطّحات الكبرى لمادة كفيلة بالتقاط أخفى قوى العالم، لمعاودة توزيعها...»[1].

...

«... آثار في قلب أفريقيا؟ مدارس؟ مستشفيات؟ لا بورجوازي في القرن العشرين، ولا ديران، ولا سميث أو براون يشتبه بوجود ذلك في أفريقيا ما قبل الأوروبيين...

«شولشر يشير إلى وجود ذلك، بحسب كايي، موليي، الأخوة كاندر. وإذا لم يُشرْ إلى ذلك في أي مكان، إلّا عند نزول البرتغاليين على سواحل الكونغو سنة 1498، فأولئك كانوا قد اكتشفوا فيها دولة غنية ومزدهرة، وفي بلاط آمباس كان كبار القوم يرتدون الحريرَ والديباج (البروكار)، فإنه يعرف على الأقل أن أفريقيا قد نهضتْ تلقائياً إلى تصوّر حقوقي للدولة، ويرى في ذروة العصر الأمبريالي أنّ الحضارة الأوروبية ليست في نهاية المطاف سوى حضارة بين الحضارات ـ وأنها ليست هي الأنعم والأرقّ»[2].

---

(1) Victor Schoelcher, *Esclavage et colonisation*, Introduction par Aimé Césaire, p. 7.

(2) *Ibid.*, p. 8.

كنتُ أعيدُ الأبيضَ إلى موضعه؛ فهو جَسور، رحت أهزّه وأقذفُ في وجهه: تكيّف معي، فأنا لا أتكيّف مع أحد. كنتُ أهتفُ ضاحكاً حتى النجوم. فالأبيضُ كان مرئياً، وكانَ يزمجر. وكان زمانُ استجابته يمتدّ ويتمادى بلا انتهاء... كنتُ قد ربحت. وكنتُ أتهلّل جذلاً.

«دعوا هناك تاريخكم، بحوثكم عن الماضي، وحاولوا التموضع مع إيقاعنا. ففي مجتمعٍ مثل مجتمعنا، مصنَّع إلى أقصى حدّ، متعالِم، لم يعد ثمّة موضع لحساسيتكم. يجب على المرء أنْ يكون فظّاً حتى يُقبل في الحياة. لم يعد المطلوبُ لعبَ لعبة العالم، بل تسخيره لضربات الحسابات التكاملية والتفاضلية والذّرات. بالطبع، كان يُقال لي من حين لآخر، عندما نصبحُ متعبين من حياة مبانينا الفخمة، سنمضي إليكم مثلما نذهب إلى أطفالنا... أبكاراً... مندهشين، عفويّين. سنمضي إليكم كما نمضي إلى طفولة العالم. فلكم أنتم حقيقيون في حياتكم، أي مرحون، مزّاحون. لنترك، للحظاتٍ، حضارتنا الاحتفالية والمصقولة، ولنولِ الاهتمام إلى هذه الرؤوس، هذه الوجوه المعبّرة بشكل رائع. بمعنىً ما، أنتم تصالحوننا مع أنفسنا».

هكذا، كانت لاعقلانيتي تُعارض بالعقلانية. كانت عقلانيتي تُعارض «بالعقلانية الصحيحة». وفي كل الألعاب، كنت أخسر. لقد اختبرتُ إرثي، تراثي. جردتُ مرضي جردةً كاملة. أردت أنْ أكون زنجياً نمطياً، ــ لم يكنْ ذلك ممكناً. أردتُ أنْ أكون أبيض، ــ فكان ذلك أجدر بالسخرية الضحك في ذلك. وعندما حاولت، على صعيد الفكر والنشاط الفكري، أن أطالبَ بزنوجتي، كانت تُنتزع مني.

وكانوا يبرهنون لي على أنَّ محاولتي لم تكنْ سوى لحظة من لحظات الديالكتيك:

«لكنْ ثمّة ما هو أخطر: هو أن الزنجي يبتكر، كما قلنا، عنصرية مضادة للعنصرية. فهو لا ينشد الهيمنة على العالم إطلاقاً: بل يرغبُ في إلغاء الامتيازات الإثنيّة، كائنةً ما كانت؛ ويؤكّد على تضامنه مع «المُضْطَهَدين» الملوَّنين. وعليه، كما يقول هيغل، «يتمثل» المفهومُ الذاتي، الوجودي، الإثني للزنوجة إلى مفهوم البروليتارية ـ الموضوعي، الوضعي، الصحيح. يقول سنغور: «يرى سيزير أن «الأبيض» يرمز إلى الرأسمال، مثلما يرمز الزنجي إلى العمل... عبر الناس الملوَّنين، ذوي الجلد الأسود من عرقه، يمدح صراع البروليتاريا العالمية».

«هذا الأمر يسهلُ قوله؛ لكن، اصعب على التفكير به. ولا شك، ليس مصادفةً أنْ يكون أشهر المتحمسين للزنوجة هم في الوقت نفسه، مناضلين ماركسيين.

«لكن هذا لا يمنع عدم توافق مفهوم العرق مع مفهوم الطبقة: فالأول عينيّ وخاص، والثاني شمولي ومجرَّد؛ الأول يُحيل إلى ما يسميه ياسبرز الفهم، والثاني إلى الاكتناه؛ فالأول هو نتاج تلفيق بسيكو ـ بيولوجي، والثاني هو بناء منهجي، إنطلاقاً من التجربة، عملياً، تظهر الزنوجة بوصفها الزمنَ الضعيف لتقدّم ديالكتيكي: فالأطروحة هي التأكيد النظري والعملي لهيمنة الأبيض؛ ولحظة النّفي هي طرح الزنوجة بوصفها قيمة مضادة. لكن هذه اللحظة النّافية، السالبة، لا تكفي ذاتها بذاتها، وهذا ما يعلمه تماماً السّودُ الذين يستعملونها؛ فهم يعرفون أنها ترمي إلى تحضير المألفة أو تحقُّق

الإنساني في مجتمع بلا أعراق. وهكذا، الزنوجة تُثار لتتقفّى نفسها بنفسها، فهي معبر وليست نهاية مطاف، وسيلة وليست غاية أخيرة»[17].

عندما قرأت هذه الصفحة، شعرت فرصتي الأخيرة تسرق مني. فأعلنت لأصدقائي: «تلقّى جيلُ الشعراء السُّود الشبان ضربةً لا تغفر». لقد استجدوا بصديق للشعوب الملوَّنة، ولم يجد هذا الصديق شيئاً أفضل من تبيان نسبيّة عمل هذه الشعوب. وكان هذا الهيغلي القح قد نسي، لمرّة واحدة، أنَّ الوعي يحتاجُ إلى الضياع في ليل المُطلق، الشرط الأوحد للتوصّل إلى وعي الذات. وفي مواجهة العقلانية، كان يذكّر الجانب السلبي؛ لكنه تناسى أن هذه السلبية تستمدّ قيمتها من إطلاقية شبه جوهرية. فالوعي المنخرط في التجربة يجهل، لا بد أنْ يجهل جواهر وجوده ومحدِّداته.

أورفيه السوداء تاريخ في مسار اكتناه فعل الوجود الأسود. وما كان خطأ سارتر العزم على المضي نحو مصدر المصدر وحسب، بل بنوع ما، عزمه على تجفيف هذا المصدر:

«هل سينضب مصدرُ الشعر؟ أم أنّ النهر الكبير سيلوّن، رغم كل شيء، البحرَ الذي يصبُّ فيه؟ لا يهم: لكل عصرٍ شعرُه؛ ففي كل عصر، تختار ظروفُ التاريخ أمة، طبقة، لتستأنف الشعلة، خالقةً أحوالاً لا تستطيع التعبير عن نفسها أو أن تجاوز نفسها إلّا بالشعر؛ فتارةً، تتطابق البارقةُ الشاعرية مع البارقة الثورية، وتارة تتفارقان، فلنُحي اليوم الفرصة التاريخية التي ستسمح للسُّود بأنْ يُطلقوا «من

(17) **Jean-Paul Sartre**, ***Orphée Noir***, **Préface à** ***l'Anthologie de la poésie nègre et malgache***, **pp. XL et suiv.**

شقّ كهذه، صرخةً زنجيّةً كبرى، ستتزعزع بسببها أسس العالم» (سيزير)»[1].

وإذاً فليس أنا الذي أخلق لنفسي معنىً، بل المعنى هو الذي كان هناك، سابق الوجود، ينتظرني. فأنا لا أصنع، من بؤسي كزنجي سيّئ، ومن أسناني كزنجي سيّئ، ومن جوعي كزنجي سيّئ، أنموذجاً لشعلة، أضع فيها النار حتى تحرق هذا العالم، بل كانت الشعلة هناك، تنتظر هذه الفرصة التاريخية.

بكلماتِ الضمير والوعي، يُقدّم الوعيُ الأسود نفسه ككثافةٍ مطلقة، مفعمة، ناضحة بذاتها، مرحلة سابقة لكل شق، سابقة لكل إلغاء ذاتي بواسطة الرغبة. لقد حطّم جان بول سارتر، في هذه الدراسة، الحماسَ الأسود. فقد وضع عدم القدرة على التوقّع، في مقابل الصيرورة التاريخية، وأنا كنت محتاجاً إلى الضياع في الزنوجة ضياعاً مطلقاً. ربّما ذات يوم، في صميم هذه الرومانسية التعسة...

في كل حال، كنتُ بحاجة لأن أجهل. وكان لا بد لهذا الصراع، لهذا الهبوط، أنْ يرتدي وجهاً مكتملاً. فلا شيء أبشع من هذه العبارة: «ستتغيَّر، يا صغيري؛ فأنا أيضاً، عندما كنتُ شاباً... سترى، سيمرُّ كلُّ شيء».

إن الديالكتيك الذي يُدخل الضرورة لدعم حريتي، يطردني من ذاتي. فهو يقطعُ موقفي العفوي. ودائماً بكلمات الوعي وحدوده، يكون الوعي الأسود ملازماً لذاته. فأنا لست إمكانية لشيء ما، بل أنا تماماً ما أنا عليه. فليس عليَّ أنْ أبحث عمّا هو شمولي، عالمي.

(1) J.-P. Sartre, *Ibid.*, p. XLIV.

ففي صميمي، ما من احتمال يأخذ مكانه. ووعيي الزنجي لا يقدِّم نفسه كنقص. فهو موجود. وهو مُتّمٍ إلى ذاته.

لكنْ، سيُقال لنا، في توكيداتكم تجاهلٌ للمسار التاريخي. فاسمعوا إذاً:

«أفريقيا لقد حفظت ذاكرتك، يا أفريقيا
فأنتِ فيّ
مثل الشوكة في الجرح
مثل تميمة حارسة في وسط القرية
اصنعي مني صخرةَ مقلاعكِ
من فمي، شفاه جرحكِ
من ركبتيَّ، أعمدةَ انحطاطك المتكسّرة
مع ذلك
لا أريد أنْ أكون إلّا من عرقكم
يا عمال وفلّاحي كلّ البلدان. . .
أيها العامل الأبيض في ديترويت، أيها الكادح الأسود في آلاباما
أيها الشعب الذي لا يحصى في سجون الرأسماليين للأشغال الشاقة
فالمصير يشدّ من أزرنا، كتفاً إلى كتف
مستنكرين لعنة محارم الدم القديمة
فنطأ أنقاضَ عُزلاتنا
وإذا كان السيل حدوداً
فسوف ننتزع من المسيل وفرته التي لا تنضب
وإذا كانت السيرا حدوداً

فــوف نحطّم فكَّ البراكين
المثبّة لسلسلة الجبال
والسهل سيكون مرتع الفجر
حيث تجتمع قوانا المشتّتة
بمكر أسيادنا
كما ينحلُّ تناقضُ السمات
في تناسق الوجه
نعلنُ وحدة الوجع والتمرد
لكل الشعوب في كل بقاع الأرض
ونمزج لياط الأزمنة الأخوية في غبار الأوثان»[1].

تماماً، سنردّ، فالتجربةُ الزنجية ملتبسة، لأنه لا يوجد زنجي واحد، بل زنوج عدة. فما الفرق، مثلاً، بين القصيدة السابقة وهذه القصيدة الأخرى:

«قتلَ الأبيضُ والدي
لأنّ والدي كان أبياً
إغتصب الأبيضُ أمي
لأنّ أمي كانت حسناء
حنى الأبيض ظهرَ أخي تحت شمس الطرقات
لأنّ أخي كان قوياً
ثم استدار الأبيض نحوي
ويداه ملطختان بالدم

---

(1) Jacques Roumain, *Bois d'ébène*, prélude.

بصقَ احتقاره الأسود على وجهي
وقال بصوته السيّد:
«هيّه يا ولد، الحوض، المنشفة والماء»[1].

وهذه القصيدة الأخرى:

«أخي ذو الأسنان اللامعة أمام المجاملة المنافقة
أخي ذو النظّارات الذهبية
قسماً بعينيك اللتين صيّرهما كلامُ السيّد، زرقاوين
يا أخي المسكين، ذا البدلة المبطّنة بالحرير
يا مَن يزقزق، يُهمهس ويتعجرف في صالونات التسامح المتعجرف
أنت تُثير شفقتنا
فلم تعدْ شمسُ بلدكَ سوى ظلّ
فوق جبهتكَ الصافية كمتحضّر
وكوخ جدّتك
يُخجل وجهاً بيّضته سنوات الإذلال واغفر لي ذنبي العظيم
لكنك عندما تمتلىء بكلمات طنّانة وفارغة
مثل الصندوق المحمول على كتفيك
ستطأ أرض أفريقيا المُرّة والحمراء
وعندئذٍ، ستدوزنُ هذه الكلماتُ المكتئبةُ مسيرتكَ القلِقة
فأنا أشعر هنا أني وحيد، وحيد جداً!»[2].

---

(1) David Diop, *Trois poèmes*, Le temps du martyre.

(2) David Diop, *Le Renégat*.

من وقت لآخر، تنتابنا رغبة التوقف. فالتعبير عن الواقع أمر فظيع. لكنّا عندما نضع في الرأس، العزمَ على التعبير عن الوجود، نخشى ألّا نصادف سوى اللاموجود. فما هو أكيد هو أني في اللحظة التي أحاول اكتناه وجودي، يقوم سارتر، الذي يظلُّ الآخر، حين يُسمّيني بانتزاع كل وهمي مني. عندها أقول له:

«زنوجتي ليست برجاً ولا كاتدرائية،
إنها تغوصُ في لحم التراب، الأحمر
تغوص في لحم السماء، اللاهب
تثقبُ العبءَ الغامضَ لصبرها المستقيم...».

فيما أنا في ذروة المعيوش والرعب، أعلنُ هذا كله، يذكّرني بأن زنوجتي ليست سوى زمن ضعيف، ضئيل. الحق، الحق أقول لكم، لقد انزلقت كتفايَ عن بنية العالم، ولم تعدْ قدماي تشعران بدعابة التراب. فبدون ماضٍ زنجي، بدون مستقبل زنجي، كان يستحيل عليَّ أن أحيا وجود زنوجتي. فأنا لست أبيض بعد، ولست بأسودَ تماماً، لقد كنتُ معلباً. لقد نسي جان بول سارتر أنَّ الزنجي يتعذّبُ في جسده خلافاً للأبيض[1]. فبين الأبيض وبيني، هناك علاقة تفوق، لا شفاء منها[2].

لكنهم تناسوا ثباتَ حبّي. فأنا أحدّد نفسي كتوتّر مُطلق الانفتاح.

---

(1) لئن ظلّت دراساتُ سارتر حول وجود الآخر صحيحة (بقدر ما يصفُ الوجود والعدم وعياً مستلباً، كما ذكرنا)، فإنّ تطبيقها على وعي زنجي، يبدو خاطئاً. ذلك أن الأبيض هو ليس الآخر، وحسب، بل هو السيّد، الحقيقي أو المتخيّل.

(2) بالمعنى الذي يذهب إليه جان وال: Jean Wahl, *Existence humaine et transcendance, Être et Penser*.

واتّخذ هذه الزنوجةَ وارمّم الآلية، فيما الدّموعُ في عينيّ. فما جرى تمزيقه إرباً إرباً، أعدتُ بناءه، تشيده يديَّ، كعارشاتٍ حَدْسية.

يتردّد صياحي بعنف أقوى: أنا زنجي، أنا زنجي، أنا زنجي...

وهنا أخي المسكين، ـ الذي يعيشُ عُصابَه الأقصى، هو الذي يكتشف أنّه مشلول:

«الزنجي: لا أستطيع، سيّدتي.
ليزّي: ماذا؟
الزنجيّ: لا أستطيع إطلاق النار على البيض.
ليزي: حقاً! هم، سوف يتكلّرون!
الزنجي: سيدتي، إنهم بيض.
ليزي: فإذا؟ ألأنهم بيض، يحقُّ لهم إراقة دمك كخنزير؟
الزنجي: إنهم بيض».

شعور بالدونية؟ لا، شعور باللاوجود. فالخطيئة زنجيّة، كما الفضيلة بيضاء. فكل هؤلاء البيض المجتمعين، والمسدس في قبضاتهم، لا يمكنُ أن يكونوا على خطأ. لا أدري مما أنا متذمّر، لكنّي أشعرُ أني بائس.

«الزنجي: الحال هكذا، سيّدتي؛ هو دائماً كذلك مع البيض.
ليزي: أنتَ أيضاً تشعر أنكَ مُذنب؟
الزنجي: نعم، سيّدتي[1]...

---

(1) جان بول سارتر، البغيّ الفاضلة (بيروت، دار الآداب) ـ أنظرْ أيضاً: أنا زنجي، «Home of the brave»، فيلم لمارك روبسون.

إنّه بيغر توماس، ـ هو الذي يخاف، خوفاً شديداً. خائف، لكنْ مما هو خائف؟ من نفسه. فنحن لا نعرف بعد منْ هو؛ لكنه يعرف أنَّ الخوف سيسكنُ العالمَ عندما سيعلم الناس. وعندما يعلم الناس، ينتظر العالم. دوماً، شيئاً ما من الزنجي، فهو يخاف أن يعرف الناس، يخاف من الخوف الذي قد يكون خوف العالم لو كان الناس يعلمون. مثل هذه المرأة العجوز، التي تتوسّل إلينا راكعة أن نربطها بسريرها:

ـ في كل لحظة، أشعر يا دكتور بهذا الشيء الذي يستولي عليَّ.

ـ أي شيء؟

ـ الرغبة في الانتحار. اربطني، أنا خائفة».

في النهاية، يتحرَّك بيغر توماس. يتحرَّك لينهي التوتر، ويلبّي انتظار العالم[1].

إنّه شخصية (If he hollers, let him go)[2]. ـ الذي يقوم حقاً بما لم يكن يريد القيام به. فهذه الشقراء الضخمة التي تسدُّ طريقه في كل لحظة، وهي خائرة، حسّاسة، مُتاحة، منفتحة، تخاف الاغتصابَ (وتتمنّاه)، وتصير عشيقته، في النهاية.

الزنجي لعبة بين يدي الأبيض؛ عندئذٍ ينفجر، لكسر الحَلْقة الجهنميَّة. يستحيلُ الذَّهابُ إلى السينما دون أن تلاقيني. فأنا أرتقب، وفي الاستراحة، تماماً قبل الفيلم، أرتقب. هؤلاء الجالسون أمامي

(1) Richard Wright, *Native Son*.

(2) *Chester Rimes*.

ينظرون إليّ، يغربلونني، ينتظرونني. زنجي ـ عجيب سيظهر. قلبي يدوخني.

مُشوَّه حرب الباسيفيكي قال لأخي: «تكيَّفْ مع لونك مثلما أتكيَّفُ أنا مع جَذْعتي، فكلانا مضروب»[1].

مع ذلك، أرفض بكل كياني، هذا البتر. أشعر أنني نفس كبيرة كبَر العالم، نفس عميقة حقاً مثل أعمق الأنهار، وأن لصدري قوّة تمدد لا تتناهى. فأنا عطاء، وينصحونني بخنوع العاجز... بالأمس، حين فتحت عينيّ على العالم، رأيت السماء تتقلّب من أقصاها إلى أقصاها. أردتُ النهوضَ؛ لكنَّ الصمتَ المبقورَ ارتد نحوي، وأجنحته مشلولة. غير مسؤول، أخذتُ أبكي، وأنا بين العدم واللامتناهي.

(1) *Je suis un nègre.*

الفصل السادس

الزنجي وعلم النّفْس المرضي

درست مدارس التحليل النفسي الاستجابات العُصابيّة التي تنشأ في بعض الأوساط، في بعض القطاعات الحضارية. لتلبية مطلب ديالكتيكي، نتساءل إلى أي حدٍّ يمكن استعمال استنتاجات فرويد أو آدلر في محاولة لتفسير رؤية الإنسان الملوّن للعالم.

فالتحليل النفسي يرمي ـ وهذا ما لا يُشدَّد عليه دائماً بشكل كافٍ ـ إلى فهم سلوكاتٍ معيَّنة ـ داخل الجماعة الخاصة التي تمثّلها العائلة. وعندما يتعلّق الأمر بعُصابٍ معيوش من قبل راشد، تكون مهمّة المحلّل أن يستكشف، في البنية النفسية الجديدة، تناظراً مع عناصر طفلية معيّنة، تكراراً، نسخة عن المآزم المتفتّحة داخل الكوكبة العائلية. في كل الأحوال، يجري الانكبابُ على اعتبار العائلة «بوصفها موضوعاً وظرفاً نفسيّين»[1].

مع ذلك، هنا ستزداد الظواهرُ تعقيداً، بفرادة. فالواقع أن العائلة

(1) «Le Complexe, facteur concret de la psychologie familiale», J. Lacan, *Encyclopédie française*, 8-40-5.

تمثّل، في أوروبا، طريقةً معيّنة تعوّد العالمُ أن يتقدّم بها إلى الطفل. وأنّ علاقات وثيقة تقومُ بين البنية العائلية والبنية الوطنية (القومية). وأن عسكرةً ومركزة السلطة في بلد ما تؤدّيان آلياً إلى ازدياد السلطة الأبوية. في أوروبا، وفي كل البلدان المسمّاة متحضّرة أو محضّرة، تكون العائلة قطعةً من أمة. فالطفلُ الذي يخرج من البيئة القرابية يواجه القوانين عينها، المبادىء ذاتها، القيم نفسها. وكل طفل سويّ يكبرُ في عائلة سويّة سيكون رجلاً سويّاً[1]. فلا تفاوت بين الحياة العائلية والحياة الوطنية. بالعكس، لو أخذنا مجتمعاً مغلقاً، أي مجتمعاً بقي محمياً من موجة التحضّر، نجد البنى نفسها، الموصوفة أعلاه. فكتاب الأب ترلز L'âme de Pygmée d'Afrique (Trilles)، مثلاً، يقنعنا بالأمر؛ فنحن نشعر حقاً، في كل آن، بالحاجة إلى كثلكة النفس الزنجية؛ لكنّ وصفه للثقافة ـ ترسيمات طقوسية، استمرار الشعائر، آثار الأساطير ـ لا تجعلنا نشعر ولو شعوراً مصطنعاً بفلسفة البانتو.

ففي هذه الحالة أو تلك، هناك إسقاط لمزايا البيئة العائلية على البيئة الاجتماعية. صحيح أنّ أطفال لصوص أو حرامية، معتادين على تشريع عشائري معين، سيفاجأون بملاحظة أن بقية الناس يتصرّفون على نحو مختلف، غير أنّ تربية جديدة ـ باستثناء الانحراف أو

---

(1) نودّ أن نعتقد ألّا نحاسب على هذه العبارة الأخيرة. طبعاً يتساءل الريبيّون: «ماذا تسمّون سويّاً؟» حالياً، ليس في واردنا الجواب عن هذا السؤال. وحتى نردّ على المَجهول، نذكرُ العملَ المفيد جداً، على الرغم من تمحوره فقط حول المسألة البيولوجية: G. Canguilhem, *Le normal et le pathologique* ولنضِفْ فقط أنّ اللاسويّ، في المجال اللحني، هو الذي يسأل، ينادي، يشكو.

التأخر (Heuyer)[1] ـ يُفترض أن تقودهم إلى تهذيب رؤيتهم الأخلاقية وتنشئتها اجتماعياً.

نلحظ في كل الأحوال هذه أن المَرَضيّة تقع في المحيط العائلي. «إن السلطة في الدولة هي بالنسبة إلى الفرد تجديد إنتاج للسلطة العائليّة التي حاكى أنموذجها في طفولته. فالفرد يتمثّل السلطات التي يلتقيها لاحقاً، مشبِّهاً إيّاها بالسلطة الوالدية: إنه يُدرك الحاضر بعيون الماضي. وعلى غرار كل السلوكات البشرية الأخرى، يجري تعلّم السلوك تجاه السلطة، يجري تعلُّمه داخل عائلةٍ يمكنُ تمييزها، من الزاوية البسيكولوجية، بتنظيمها الخاص، أي بالطريقة التي يجري بها توزيع السلطة فيها وممارستها»[2].

والحال، هذه نقطة بالغة الأهمية، إذْ نلحظ العكسَ لدى الإنسان الملوَّن. ذاك أنَّ طفلاً أسودَ، تُربى في أحضان عائلة سويّة، سيصبح غير سوي لدى أدنى اتصال بالعالم الأبيض. لن ندرك هذا المطلب/ المُقترح، مباشرة. فهكذا سنتقدم متقهقرين. حين أنصفَ فرويد الدكتور بروير، كتب: «في كل حالة تقريباً، كنا نلحظ أنَّ الأعراض كانت مثل الترسّبات، إذا جاز القول، بالنسبة إلى التجارب

(1) طالما أنّ هذا التحفّظ هو نفسه قابلٌ للنقاش. أنظر مثلاً مراسلة الآنسة جوليت بوتونييه: «ألا يكون الانحراف تأخراً عميقاً عاطفياً، تصونه أو تولّده الظروف التي عاشها الطفلُ، أقلّه، على قدر الاستعدادات التكوينية التي من الواضح أنها لا تزال على المحك؛ ولكنها ربما لا تكون هي المسؤولة وحدها؟».
Revue Française de Psychanalyse, No 3, 1943, pp. 403-404.

(2) Joachim Marcus, «Structure familiale et comportements politiques», - *L'autorité dans la famille et dans l'État (Revue Française de Psychanalyse*, avril-juin 1949).

تمثّل، في أوروبا، طريقةً معيّنة تعوّد العالمُ أن يتقدّم بها إلى الطفل. وأنّ علاقات وثيقة تقومُ بين البنية العائلية والبنية الوطنية (القومية). وأن عسكرةَ ومركزة السلطة في بلد ما تودّيان آلياً إلى ازدياد السلطة الأبوية. في أوروبا، وفي كل البلدان المسمّاة متحضِّرة أو محضِّرة، تكون العائلة قطعةً من أمة. فالطفلُ الذي يخرج من البيئة القرابية يواجه القوانين عينها، المبادىء ذاتها، القيم نفسها. وكل طفل سويّ يكبرُ في عائلة سويّة سيكون رجلاً سويّاً[1]. فلا تفاوت بين الحياة العائلية والحياة الوطنية. بالعكس، لو أخذنا مجتمعاً مغلقاً، أي مجتمعاً بقي محمياً من موجة التحضّر، نجد البنى نفسها، الموصوفة أعلاه. فكتاب الأب ترلز L'âme de Pygmée d'Afrique (Trilles)، مثلاً، يقنعنا بالأمر؛ فنحن نشعر حقاً، في كل آنٍ، بالحاجة إلى كثلكة النفس الزنجية؛ لكنَّ وصفه للثقافة ـ ترسيمات طقوسية، استمرار الشعائر، آثار الأساطير ـ لا تجعلنا نشعر ولو شعوراً مصطنعاً بفلسفة الباتو.

ففي هذه الحالة أو تلك، هناك إسقاط لمزايا البيئة العائلية على البيئة الاجتماعية. صحيح أنَّ أطفال لصوص أو حرامية، معتادين على تشريع عشائري معين، سيفاجأون بملاحظة أن بقية الناس يتصرّفون على نحو مختلف، غير أنَّ تربية جديدة ـ باستثناء الانحراف أو

---

(1) نودّ أن نعتقد ألّا نحاسب على هذه العبارة الأخيرة. لعبثاً يتساءل الريبيّون: «ماذا تسمّون سويّاً؟» حالياً، ليس لي واردنا الجواب عن هذا السؤال. وحتى نردّ على المتعجّل، نذكرُ العملَ المفيد جداً، على الرغم من تمحوره فقط حول المسألة البيولوجية: G. Canguilhem, *Le normal et le pathologique*
ولنضِفْ فقط أنَّ اللاسويّ، في المجال الذهني، هو الذي يسأل، ينادي، يشكو.

التأخر (Heuyer)[1] ـ يُفترض أن تقودهم إلى تهذيب رؤيتهم الأخلاقية وتنشئتها اجتماعياً.

نلحظ في كل الأحوال هذه أن المَرَضيّة تقع في المحيط العائلي. «إن السلطة في الدولة هي بالنسبة إلى الفرد تجديد إنتاج للسلطة العائليّة التي حاكى أنموذجها في طفولته. فالفرد يتمثّل السلطات التي يلتقيها لاحقاً، مشبِّهاً إيّاها بالسلطة الوالدية: إنه يُدرك الحاضر بعيون الماضي. وعلى غرار كل السلوكات البشرية الأخرى، يجري تعلّم السلوك تجاه السلطة، يجري تعلُّمه داخل عائلةٍ يمكنُ تمييزها، من الزاوية البسيكولوجية، بتنظيمها الخاص، أي بالطريقة التي يجري بها توزيع السلطة فيها وممارستها»[2].

والحال، هذه نقطة بالغة الأهمية، إذْ نلحظ العكسَ لدى الإنسان الملوَّن. ذاك أنَّ طفلاً أسودَ، تَربى في أحضان عائلة سويّة، سيصبح غير سوي لدى أدنى اتصال بالعالم الأبيض. لن ندرك هذا المطلب/ المُقترح، مباشرة. فهكذا سنتقدم متقهقرين. حين أنصفَ فرويد الدكتور بروير، كتب: «في كل حالة تقريباً، كنا نلحظ أنَّ الأعراض كانت مثل الترسّبات، إذا جاز القول، بالنسبة إلى التجارب

(1) طالما أنّ هذا التحفّظ هو نفسه قابلٌ للنقاش. أنظر مثلاً مراسلة الآنسة جوليت بوتونييه: «ألا يكون الانحراف تأخراً عميقاً عاطفياً، تصونه أو تولّده الظروف التي عاشها الطفلُ، أقلّه، على قدر الاستعدادات التكوينية التي من الواضح أنها لا تزال على المحك؛ ولكنها ربما لا تكون هي المسؤولة وحدها؟».
Revue Française de Psychanalyse, No 3, 1943, pp. 403-404.

(2) Joachim Marcus, «Structure familiale et comportements politiques», - *L'autorité dans la famille et dans l'État* (*Revue Française de Psychanalyse*, avril-juin 1949).

الانفعالية، مما جعلنا ندعوها لاحقاً صدمات نفسية. إذ كانت طابعها الخاص يقترب من المشهد الصدمي الذي كان قد تسبَّب بها، وحسب التعبير السائد، كانت الأعراضُ تتحدَّد بـ «المشاهد» التي كانت تشكِّل بقاياها الذاكريَّة، ولم يعد ثمَّة ضرورة لكي نرى فيها مؤثرات عشوائية وخفيَّة للعُصاب، لكن، خلافاً لما كان منتظراً، لم يكنْ العَرَض ينجمُ عن حادثٍ واحدٍ بالذات، بل ينجم غالباً من عدّة صدماتٍ متتالية ومتكرِّرة. وتالياً، كان ينبغي أن يُعاد زمانياً إنتاج سلسلة كاملة من هذه الذكريات المولدة للمرض؛ لكن في راتوب مقلوب، الأخيرة أولاً، والأولى أخيراً: إذ من المستحيل التوصل إلى الصدمة الأولى، الأفعل في الغالب، إذا قفزنا فوق الصدمات الوسيطة».

لا يمكننا أنْ نكون تقريريين أكثر؛ هناك صدمات أولى، (Erlebnis)، معيَّنة، وراء المُصابات. ثم يضيف فرويد: «هذه الصدمة، صحيح أنَّ المرضى قد طردوها تماماً من وعيهم ومن ذاكرتهم، وأنهم في الظاهر وفَّروا على أنفسهم كمّاً كبيراً من الآلام؛ لكنَّ الرغبة المكبوتة تواصل كمونَها في اللاوعي؛ إنها تنتظر فرصة للبروز، فتظهر مجدَّداً للضوء، لكن في تمويهٍ يجعلها تنكرية؛ بكلام آخر، يجري في الوعي استبدال الفكرة المكبوتة بفكرةٍ أخرى، تحل محلَّها، كبديل، وبها تتعلَّق كل انطباعات القلق التي يُظنّ أنَّ الكبتَ قد استبعدها». هذه الصدمات الأولى يجري كبتها في اللاوعي.

ماذا نرى في حالة الأسود؟ إذا لم نستعمل هذا المعطى الدُّواري ـ الذي ما برح يدوِّخنا ـ للاوعي الجمعي، لدى يونغ، فإننا لن نفهم شيئاً على الإطلاق. ففي البلدان المستَعمرة، تدور مأساةٌ كل يوم. فكيف نفسِّر، مثلاً، أنَّ طالبَ بكالوريا، زنجياً، يصل إلى السوربون لكي يحضِّر فيها إجازة في الفلسفة، ويكون حذراً، قبل أي تنظيم

صراعي حوله؟ كان رينه منيل (R. Ménil) قد أحاط بهذه الاستجابة (ردّة الفعل) بتعابير هيغلية. فجعلها «نتيجة قيام مرجعية تمثلية للسيّد، بدلاً من الروحية «الأفريقية» المكبوتة في وعي العبيد» وهي مرجعية قائمة في صميم المجتمع، وعليها أن تسهر عليه كما تحرس حاميةٌ المدينةَ المحتلة»[1].

سنرى في فصلنا الخاص بهيغل، أن رينه منيل لم ينخدع. مع ذلك يحقُّ لنا أن نتساءل: كيف نفسِّر استمرار ذلك في القرن العشرين، عندما يكون هناك، من جهة ثانية، تماهٍ كامل بالأبيض؟ عادةً، لا يكون للزنجي اللاسوي أية علاقة بالأبيض. فهل هناك تجربةٌ قديمة وكبتٌ في اللاوعي؟ هل رأى الفتى الأسود أنَّ الأبيض يضربُ أباه أو يشنقه؟ هل وقعت صدمة فعلية؟ كلا، هو جوابنا عن كل ذلك. فإذاً؟

إذا أردنا أن نردّ رداً صحيحاً، نكون مضطرين للاستعانة بمفهوم التنفيس الجماعي. ففي كل مجتمع، توجد قناة، يجب أن توجد قناة، باب خروج تستطيع من خلاله الطاقات المكدَّسة على شاكلة عدائيّة، أن تتصرف وتنطلق. وهذا ما تنزع إليه الألعابُ في المؤسسات الطفلية، السيكودراما في العلاجات الجماعية، وبنحو أعمّ، المطلات الأسبوعية المخصصة للشبّان ـ إذ إن كلَّ نمط مجتمعي يستلزم بالطبع شكلاً معيّناً من التنفيس. فحكاياتُ طرزان، ومغامرات الفتيان في الثانية عشرات، مغامرات ميكي، وكل الجرائد المصوَّرة، تنزع إلى ترويح حقيقي للعدائية الجماعيّة. إنها جرائد كتبها البيض، لمخاطبة صغارٍ بيض. والحال، هنا تقع الدراما. ففي الأنتيل، ومن حقّنا أن

(1) منقول عن: Michel Leiris, «Martinique, Guadeloupe, Haïti» (*Temps Modernes*, février, 1950)

نفكّر بأنَّ الوضع مماثل في المستعمرات الأخرى، يلتهم الشبّان الأصليّون هذه الجرائد المصوَّرة عينها. وعلى الدوام، يجري تمثيل الذئب، الشيطان، الجنّ اللعين، الشر، المتوحِّش، بزنجيّ أو هنديّ؛ وبما أنَّ هناك دائماً تماهياً مع الغالب، فإن الزنجي الصغير يجعل من نفسه مستكشفاً، مغامراً، مبشِّراً «يخاف أن يأكله الزنوجُ الخبثاء» بسهولة، مثلما يأكلون «الأبيضَ الصغير. سيُقال لنا إن هذا غير بالغ الأهمية؛ ذلك لأنهم لم يتفكّروا البتّة في دور هذه المصوَّرات. إليكم ما يقوله فيها ج. لغمان: «ما خلا بعض الاستثناءات تقريباً، كل طفل أميركي، كان عمره ست سنوات سنة 1938، استوعبَ الآن، إذاً، حداً أدنى من 18 ألف مشهد من التعذيبات المتوحشة وأعمال العنف الدامية... إن الأميركيين هم الشعب الحديث الوحيد، باستثناء شعب البوير (Boers)، تبعاً لأقصى ما تتيحه ذاكرة إنسان، الذين كنسوا تماماً عن الأرض التي استوطنوها، السّكان الأصليين[1]. وعليه، كانت أميركا وحدها تستطيع أن تكون ذات إحساس قومي بالخطأ، وتسعى لتهدئته باختراع أسطورة «باد إنجون»[2]، لكي تتمكّن لاحقاً من إعادة إدراج للصورة التاريخية الصاحب «البشرة الحمراء» المبجّل الذي يُدافع، بلا نجاح، عن ترابه، بمواجهة الغزاة المسلحين بكتب مقدسة وبنادق؛ والعقوبة التي تستحق لا يمكنُ ردُّها إلّا بإنكار المسؤولية عن الضرر، وإلقاء اللوم على الضحيّة؛ وبالبرهان ـ أقله أمام عيوننا ـ على أننا حين نضرب

---

(1) مروراً، نشير إلى أن الكاريبي عرفت المصير نفسَه، من جانب المغامرين الإسبان والفرنسيّين.

(2) تحريف سُوقي «Bad Indian» «الهندي السيّئ».

الضربة الأولى والوحيدة، كنا نقوم فقط بالدّفاع الشرعي عن النفس...». كما كتب المؤلّف، متناولاً الآثار التي تتركها هذه الرسوم في الثقافة الأميركية: «تظلّ مفتوحةً مسألة الاستعلام عما إذا كان هذا التثبيت المهووس، المنحصر بالعنف والموت، هو البديل لحياة جنسيّة مُراقبة، أم أنه، بالأولى، ذو وظيفة إجرائية في الطريق التي تتركها الرقابةُ الجنسيّة سالكةً، مفتوحة أمام رغبة الأطفال والبالغين العدوانية بمواجهة البنية الاقتصادية والاجتماعية، التي تحرفهم مع ذلك، برضاهم. في الحالتين، يكون جوهرياً سببُ الانحراف، كائناً ما كان، من الطراز الجنسي أو الاقتصادي؛ لذا، طالما أننا لا نكون قادرين على مواجهة هذه المكبوتات الأساسيّة، فإنَّ كلَّ هجوم موجَّه ضد أساليب الهرب العادية، مثل كتب الفكاهة (comics books)، سيظل بلا طائل»[1].

في الأنتيل، حيث الفتى الأسود لا يزال يردّد في المدرسة «آباؤنا الغاليّون»[2]، يتماهى مع المستكشِف، مع المُحضِّر، مع الأبيض الذي ينقل الحقيقة للمتوحشين، الحقيقة البيضاء تماماً. هناك تماهٍ، يعني أنَّ الفتى الأسود يتبنّى ذاتياً موقفَ أبيض. فيشحن البطلَ، وهو أبيض، بكل عدوانيّته، التي تُقارب، في هذا العمر، القُربانية: قربانية مشحونة، مُثقلة بالساديّة. طفل في الثامنة يقدّم شيئاً ما، حتى إلى

---

(1) G. Legman, «Psychopathologie des Comics, traduit par H. Robillat (*Temps Modernes*, no 43, pp. 916 et suiv.).

(2) كما في ظروف ومناسبات كثيرة، يُثار الضحك عندما تُذكر هذه السمة للتعليم في المارتينيك. ويُتعمَّد لحظُ الطابع الكوميدي للأمر؛ لكن لا يُحكى عن عواقبه البعيدة. والحال، فإن هذه العواقب هي التي تهمّنا؛ طالما أن رؤية العالم لدى الفتى الأنتيلي تتكوّن انطلاقاً من ثلاث أو أربع من هذه العبارات.

شخص مُسنّ، لا يستطيع أنْ يتسامح إذا رُفض. شيئاً فشيئاً، نرى لدى الفتى الأنتيلي تشكّلَ وتبلورَ موقفٍ، عادة في التفكير والنظر، هما أبيضان في جوهرهما. وفي المدرسة، حيث يحدث له أنْ يقرأ قصص متوحّشين في الكتب البيض، فإنه يفكر دائماً بالسنغاليّين. عندما كنتُ تلميذاً، تمكّنا من النقاش طيلة ساعات بأكملها حول عادات المتوحّشين السنغاليين المزعومة. وكان يهيمن على خواطرنا عدم إدراك متناقض على الأقل. فالمفارقة هي أن الأنتيلي لا يظنُّ نفسه سوداء، بل يظنها أنتيلية. الزنجي يعيش في أفريقيا. ذاتياً، فكرياً، يتصرّف الأنتيلي كأنّه أبيض. والحال، إنه زنجي. هذا ما سيدركه حين يغدو في أوروبا. وحين سيحكى له عن الزنوج سيعلم أنه هو المقصود، مثله مثل السنغالي. ماذا يمكننا استخلاصه في هذه النقطة؟

إن فرض «الأرواح الشريرة» نفسها على الأبيض يشكّل خطأ تربوياً خطيراً. وإذا أردنا أن نعني حقاً «الروح الشريرة» بوصفها محاولة لأنسنة «الهو»، فسيفهم معنى رأينا. بكل صرامة، سنقول إنَّ العَلّيات تخضع للنقد ذاته. ونلحظ أننا نريد فقط أن نبتكر رسوماً موجّهة خصيصاً إلى السُّود، وأغنيات للأطفال السود، وفي أقصى حدّ، كتب تاريخ، أقله، حتى الشهادة الابتدائية. لأننا نعتبر، حتى إثبات العكس، أنه لو كان ثمّة صدمة، فإنها تتحدّد في هذا العمر. فالفتى الأنتيلي هو فرنسي، مدعو في كل آنٍ للعيش مع مواطنين بيض. وهذا ما يُنسى في الأغلب.

إن العائلة البيضاء هي مُستودع بنية معيّنة. المجتمع فعلاً هو مجمل العائلات. فالعائلةُ هي مؤسسة، تُعلِن مؤسسةً أرحب: الجماعة الاجتماعية أو القومية. وتظلُّ المحاور المرجعية هي ذاتها. إذ إن العائلة البيضاء هي موضع الإعداد والتأهيل لحياةٍ اجتماعية. «يجري

استبطان البنية العائلية في الأنا الأعلى. وعكسها في السلوك السياسي [تقول، الاجتماعي]» (ماركوز).

وعلى قدْر ما يبقى الأسود في بلده، يُنجز تقريباً قَدرَ الصغير الأبيض. لكنْ حَين يذهب إلى أوروبا، سيكون عليه أن يعاود التفكّر في قدره أو مصيره. لأنَّ الزنجي في فرنسا، في بلده، سيشعر أنّه مختلف عن الآخرين. وسرعان ما يُقال: إن الزنجي يبخس نفسه. الحقيقة هي أنهم يبخسونه. وأنَّ الفتى الأنتيلي هو فرنسي مدعو للعيش، في كلّ آنٍ، مع مواطنين بيض. والحال، فإن العائلة الأنتيلية لا تُقيم عملياً أية علاقة مع البنية القومية، أي الفرنسية، الأوروبية، ولا بد للأنتيلي من الاختيار بين عائلته والمجتمع الأوروبي؛ بتعبير آخر، إن الفرد الذي يصعد إلى المجتمع ـ الأبيض، المتحضّر ـ يميل إلى نفي العائلة ـ السوداء، الهمجية ـ على صعيد المخيال، المتّصل بالهوامات الطفلية، التي وصفناها آنفاً.

وفي هذه الحالة، يغدو مخطط ماركوز:

العائلة ← الفرد ← المجتمع

نظراً لأن البنية العائلية مقذوفة في «الهو».

ويكتشف الزنجي لاواقعية الكثير من الأقوال التي اعتنقها، بالاستناد إلى الموقف الذاتي للأبيض. عندها يبدأ بتعلمه الحقيقي. ويتكشّف الواقعُ أنّه ممانِعٌ إلى أقصى حد... لكنْ، سيُقال لنا، إنكم لا تقومون بغير وصف ظاهرة كلّية، ـ فمعيار الرجولة هو بالضبط التكيّف مع الاجتماعي. سنردُّ عندئذٍ بأنَّ هذا النقد يحملُ على الخطأ، لأننا بيّنا أن هناك أسطورة على الزنجي أنْ يجبهها، أسطورة راسخة بقوة، يجهلها الزنجي، ما دام وجوده يجري بين أقرانه؛

لكنْ، أمام أول نظرة بيضاء، سيشعرُ بوزر أو بضغط لونه القاتم (القتامين: Mélanine)[1].

ثم هناك اللاوعي، اللاشعور، تجري الدراما العرقية في الهواء الطلق، إذْ ليس لدى الأسود الوقت لجعله «غيرَ مُستشِعر». أما الأبيض فإنه يبلغه إلى حدٍّ ما؛ إذ هناك ظهور لعنصرٍ جديد: الشعور بالذّنب. وتكون عقدة تفوّق الزنوج، عقدة نقصهم أو شعورهم بالمساواة، عقداً واعية. فهم يعبرونها في كل لحظة. وهم يعيشون مأساتهم. وليس لديهم هذا النسيان العاطفي الذي يميّز المُصاب ـ النمطي.

كلماّ قرأنا كتاباً حول التحليل النفسي، وناقشناه مع أساتذتنا، وتناقشنا مع مرضانا الأوروبيين، فوجئنا بعدم التوافق بين المخططات المقابلة وبين الواقع الذي كان الزنجيّ يقدمه لنا. وبالتدرّج، خلصنا من ذلك إلى وجود إبدال ديالكتيكي عندما ننتقل من بسيكولوجيا الأبيض إلى بسيكولوجيا الأسود.

فالقيم الأولى، التي يتحدّث عنها شارل أوديبه[2]، تكون متباينة

---

(1) لنذكرْ بهذا الصدد ما كتبه سارتر: «منذ سن السادسة، سنُد بعض الأطفال لكمات إلى رفاق لهم في المدرسة، كانوا ينادونهم «يوبيان» (Youpins). وكان آخرون لا يزالون يجهلون عرقهم. هناك فتاة يهودية، في أسرة أعرفها، ظلّت تجهل حتى سن الخامسة عشرة حتى معنى كلمة يهودي. خلال الاحتلال، كان هناك دكتور يهودي من فونتنبلو، يعيش محبوساً في بيته، يربّي أحفاده من دون أية كلمة عن أصلهم. لكنّهم لا بد أن يعلموا ذات يوم الحقيقة بطريقة ما: أحياناً من طريق ابتسامات الناس المحيطين بهم، وأحياناً من طريق إشاعة أو شتائم. وكلما تأخر الاكتشاف، كانت الهزّة أعنف: فجأة يلحظون أنّ الآخرين كانوا يعرفون عنهم شيئاً ما، كانوا يجهلونه، وأنهم يطبقون عليها هذا النعت الملتوي والمُقلق، غير المتداول في أسرتهم». (Sartre, *Réflexions sur la question juive*, pp. 96-97.

(2) *Les deux sources consciente et inconsciente de la vie morale.*

لدى الأبيض ولدى الأسود. ومجهود التنشئة الاجتماعية لا يُحيل إلى النّوايا ذاتها. حقاً، إننا نغيّر عالمنا. هنا، لا مناص من القيام بدراسة صارمة:

- التأويل النفساني لتجربة الأسود المعيوشة؛
- التأويل النفساني لأسطورة الزنجي.

لكنّ الواقع، وهو ملاذنا الأوحد، يحرّم علينا القيام بعمليّات مماثلة. فالظواهر أشدّ تعقيداً. فما هي؟

إن الزنجي هو موضوع مثير للكراهية وللاكتئاب. فمنذ مرض Sérieux وCapgras[1]، حتى هذه الفتاة التي تصرّح لنا بأن النّوم مع زنجيّ يمثل بالنسبة إليها أمراً مرعباً، نصادف كل درجات ما سندعوه توليد كراهية الزنوج. فقد كثر الكلام حول الزنجي في التحليل النفسي. وبما أننا حذرون من تطبيقاته المحتملة[2]، فقد آثرنا أن يكون عنوان هذا الفصل: «الزنجي وعلم النفس المَرَضي»، نظراً لأن، فرويد، ولا آدلر، ولا حتى يونغ الكوني، لم يفكّروا بالسُّود في مُجريات أبحاثهم. لقد كانوا محقّين في ذلك. إذْ غالباً ما يُنسى أن العُصابَ غيرُ مكوِّنٍ للواقع البشري. إن عقدة أوديب، شاؤوا أم أبوا، ليست وشيكة الظهور لدى الزنوج. وقد يُعترض علينا، مع مالينوفسكي، بالقول إن النظام الأمومي هو المسؤول الأوحد عن هذا الغياب. لكنْ، فضلاً عن إمكان تساؤلنا عمّا إذا كان الإثنولوجيّون، المشبعون بعقَدِ حضارتهم، لم يبذلوا قصاراهم لاستكشاف نسخة عنها

---

(1) *Les folies raisonnantes*, - cité par Hesnard, *L'univers morbide de la faute*, p. 97.

(2) نفكّر خصوصاً بأميركا؛ أنظر: مثلاً: *Je suis un nègre.*

لدى الشعوب التي درسوها، قد يكونُ من السهل نسبياً أنْ نبيّن أنَّ في الأنتيل الفرنسية، 97% من العائلات عاجزة عن توليد أي عُصاب أوديبي. واننا سعيدون جداً بهذا العجز[1].

بمعزل عن بعض المُخفقين الظاهرين في بيئة مُغلقة، يمكننا القولُ إنَّ كل عُصاب، كل سلوك لاسويّ، كل شُبوب عاطفة لدى أنتيلي، هو حصيلة الوضع الثقافي. بكلام آخر، هناك كوكبةُ معطيات، سلسلة قضايا، تخترق فرداً ما، ببطء وبتكتم، من خلال الكتابات والصحف والتربية والكتب المدرسية والإعلانات والسينما والإذاعة ـ مشكّلةً رؤية العالم لدى الجماعة التي ينتمي إليها[2]. في الأنتيل، رؤية

(1) حول هذه النقطة، سيترفّد المحلّلون النفسانيون في اعتماد رأينا. فالدكتور لاكان، مثلاً، يتحدّث عن «خصوبة» عقدة أوديب. لكن إذا تعيّن على الفتى أن يقتل أباه، فهل ثمة داعٍ أيضاً لأن يتقبّل الأبُ الموت. إنّا نتذكّر هيغل حين يقول: «إن مهدَ الطفل هو لحد الأهل». نتذكّر بنيقولاس كالاس (بيت الحريق)؛ بجان لاكروا (قوة العائلة وضعفها).

فواقع أنَّ هناك انهياراً للقيم الخلقية في فرنسا، ما بعد الحرب، ربما كان ناجماً عن هزيمة هذا الشخص المعنوي الذي تمثّله الأمة. فمن المعروف أن صدمات كهذه قد تكون محتّمة على الصعيد العائلي.

(2) ننصح هؤلاء الذين لم يقتنعوا، بإجراء التجربة الآتية: مشاهدة عرض فيلم طرزان في الأنتيل وفي أوروبا. عملياً، في الأنتيل يتماهى الفتى الأسود مع طرزان ضد الزنوج. في الصالة الأوروبية، الأمر أصعب بكثير، لأن الجمهور، وهو أبيض، يقرّبه آلياً من متوحشي الشاشة. إن هذه التجربة حاسمة. فالزنجي يشعر أنّه ليس أسود بلا عقاب. هناك فيلم وثائقي عن أفريقيا، عُرض في مدينة فرنسية وفي فور ـ دوفرانس أثار استجابات مماثلة. فوق ذلك: نؤكد أنَّ البوشيمان والزولو يثيرون أكثر ضحكَ الفتيان الأنتيليين. ومن المفيد أنْ نبين، في هذه الحالة، أنَّ هذه المبالغة الارتجاعيّة تجعل شكَّ الاعتراف يحوم حول الظاهرة. فالأسود، الذي يرى في فرنسا هذا الفيلم الوثائقي، يكونُ متحجّراً، بالمعنى الحرفي. فلا مجال هنالك للهرب: فهو في آنٍ أنتيلي، بوشيمان وزولو.

العالم هذه، هي رؤية بيضاء لأنه لا يوجد أيُّ تعبيرٍ أسود. فالفولكلور المارتينيكي فقير، وفي فور ـ وفرانس. كثيرون هم الشبّان الذين يجهلون حكايات العم لابان (Compè lapin)، التي تردّ على العم ريموس في لويزيانا. ومثال ذلك أن أوروبياً، مطلعاً على التجلّيات الشاعرية السوداء الراهنة، قد يندهش حين يعلم أنّ أيّ أنتيلي لم يكن قادراً، حتى 1940، على التفكير بأنه زنجي. إنما مع ظهور إيميه سيزير، فقط، أمكنَ أنْ يرى ظهورُ مطلبِ الزنوجة والترقّ إليه. والبرهان الأجلى هو هذا الشعور الذي تشعر به الأجيالُ الشابة التي تحطُّ رحالها في باريس: يلزمهم عدّة أسابيع حتى يفهموا أنّ الاتصال بأوروبا يرغمهم على إثارة عدد ما من المسائل، لم يكونوا قد أثاروها حتى حينه. ومع ذلك، لم تكن تلك المسائل خارج النظر[1].

وكلما تناقشنا مع أساتذتنا أو تحادثنا مع مرضى أوروبيّين، لحظنا الفوارقَ التي يمكن وجودها بين العالمين. مؤخراً، تحادثنا مع طبيب، مارسَ مهنته على الدوام في فور ـ دِ فرانس، وأطلعناه على استنتاجاتنا؛ فزايدَ علينا قائلاً إنّ هذا كان صحيحاً، ليس في علم النفس المرَضي وحسب، بل أيضاً في الطب العام. وهكذا، أضاف، لم يكنْ لديكم تيفوئيد خالص، كما تدرسونه في الكتب الطبية؛ إلى

(1) يلاحظون بنوع أخص أنّ خط التقويم ـ الثاني، الذي كان عكسهم، لا بدّ أنْ ينقلب. وعليه، كنا قد رأينا أنّ الأنتيلي الآتي إلى فرنسا، يتصوّر هذه الرحلة بوصفها المرحلة الأخيرة من شخصيته. حرفياً، نستطيع القول من دون خوف من الانخداع، إن الأنتيلي الذي يسافر إلى فرنسا لكي يقتنع ببياضه، يجد فيها وجهه الحقيقي.

ذلك، هناك ملاريا ظاهرة نسبيّاً. وقد يكون من المفيد، مثلاً، تصوّر توصيف للفصام المعيوش لدى وعي إنسان أسود، ـ ما دام هذا الاضطراب موجوداً هناك.

فما قولنا؟ إنه هذا، بكل بساطة: عندما يُلامس الزنوجُ العالمَ الأبيض، يكون هناك فعل تحسّس معين. واذا تبدّت البنيةُ النفسية هشّةً، نشهد انهياراً للأنا. عندها يتّوقفُ الأسود عن التصرّف كفرد فعّال. إذ إنَّ هدف فعله سيكون الآخر (في صورة الأبيض)، لأن الآخر يستطيع وحدَه أن يقوّمه. هذا على الصعيد المناقبي: تقدير الذات. لكنْ، ثمة شيء آخر.

قلنا إن الزنجي هو مثير للخواف (Phobogène). فما هو الخواف، كره؟ سنجيب عن هذا السؤال، مستندين إلى آخر كتاب وضعه هسنار: «الخواف هو عُصاب مميَّز بالتخوف الاكتئابي من غَرَض (بالمعنى الأوسع لكل شيء خارج الفرد) أو هو، بالتوسع، تخوف اكتئابي من وضع ما»[1]. بالطبع، لا بد لهذا الغرض أنْ يرتدي بعض السّمات. يقول هسنار: يجب أنْ يوقظَ الخوفَ والقرف. لكننا نواجه هنا صعوبة. حين طبّق شارل أوديبه المنهج التناسلي (الجيني) على فهم الخوف، كتبَ: «يصدر كلُّ قلق عن هذا الشعور اللاتي بعدم الاطمئنان المتعلّق بغياب الأم»[2]. يقول الكاتب إن هذا يحدث قرابة العام الثاني.

حين بحثَ في البنية النفسية للخوافي، توصّل إلى هذه الخلاصة: «قبل أن ننكبَّ مباشرةً على معتقدات الراشدين، من المفيد تحليل

(1) *L'univers morbide de la faute*, P.U.F., 1949, p. 37.

(2) *L'Angoisse et la pensée magique*, p. 38.

البنية الطفلية بكل عناصرها، التي تصدر هذه المعتقدات عنها، وتنطوي عليها»[1]. والحال، فإنَّ اختيار الغرض الخوافي يكونُ إذن مُتعيّناً بتضافر. هذا الغَرَضُ لا يخرج من ليل العدم، فقد أثار في ظرفٍ معيَّن انفعالاً لدى الشخص. فالخواف هو الحضور الكامن لهذا الانفعال في صميم عالم الشخص؛ فيكون ثمة تنظيم، ثمَّة تشكيل. لأن الغرض لا يحتاج بالطبع إلى أن يوجد هنا، إذ يكفيه أنْ يكون، إنّه ممكن. فهذا الغرض مُنَاط بنوايا خبيثة وبكل صفات أية قوَّة لعينة، شرّيرة[2]. هناك أوليّة، لدى الخوافي، للنزوع نحو ازدراء كل فكر عقلاني. وكما نرى، فإنَّ الخوافي هو فرد يطيع قوانين ماقبل المنطق العقلي وماقبل المنطق العاطفي: إنه مسار تفكير وشعور يذكِّر بالعمر الذي وقع فيه الحادث المُقلِق. وتكون الصعوبة المعلنة هي التالية: هل وقعت صدمة مُقلِقة لهذه الشابة التي تحدَّثنا عنها الآن؟ وهل هناك لدى معظم الذكور المصابين بخواف الزنوج، محاولة خطف؟ محاولة مصّ القضيب؟ بكل دقّة، هاكم ما كنا سنحصل عليه لو طبّقنا النتائج التحليلية: لو كان غرضٌ مخيف جداً، مثل معتَدٍ مُتخيَّل نسبيّاً، يثير الرّعب، فهو مثلاً ـ لأن الأمر غالباً ما يتعلق بامرأة ـ وهو بنحو أخص خوف ممتزج بالرعب الجنسي. إن «خُواف الرجال» يكون له معنى، عندما نوضِّح دافع الخوف: لأنهم يستطيعون أنْ يسبّبوا لي كلَّ أنواع الأشياء ولكنْ ليس أضراراً عادية: أضرار جنسية، أي غير أخلاقية، مُعيبة[3].

---

(1) *Ibid.*, p. 65.

(2) *Ibid.*, pp. 58 et 78.

(3) Hesnard, *op. cit.*, p. 38.

«يكفي مجرّد الاتصال لاستثارة القلق. لأنّ الاتصال هو في الوقت نفسه النمط التخطيطي، الترسيمي باللذات، للفعل الجنسي الأوّلاني (اللمس، المداعبات ـ العلاقة الجنسية)[1]. وبما أنّنا معتادون على كل التصنّعات التي يستعملها الأنا للدفاع عن نفسه، فإننا نعرف أن من الواجب تجنّب أخذ هذه الإنكارات بحرفيّتها. ألسنا أمام تحوّلية كاملة؟ في الصميم، هذا الخوف من الاغتصاب ألا يستدعي الاغتصاب باللذات؟ وكما هناك رؤوس كريهة، ألا يمكننا وصف نساء ذات ميول اغتصابية؟ في «إذا زعقّ، اتركه» (S'il braille, lâche-le)، وصف شستر هيمز هذه الآلية وصفاً جيداً. فالشقراء الضخمة تنتكس كلما اقترب الزنجي. مع أنها لا تخشى شيئاً، إذ إن المصنع يعجّ بالبيض... في الختام، يتامان معاً.

عندما كنا عسكريين، استطعنا أنْ نرى سلوك نساءٍ بيض، في ثلاثة أو أربعة بلدان أوروبية، إزاء سودٍ، خلال أمسيات راقصة. في معظم الوقت، كانت النساء يحاولن القيام بحركة هروب، تراجع، وكان الوجه ممتقعاً، مرعوباً بدون تصنع. مع ذلك، ربما لم يكن الزنوج اللذين كانوا يدعونهن، قادرين، لو أرادوا، على القيام بأي شيء ضدّهن. إن سلوك النسوة، المعنيات، يُفهم بوضوح تام على صعيد المخيال. ذاك أن المرأة الخوافية الزنجية ليست في الواقع سوى شريكة جنسية بغيّة، ـ مثلما يكون الخوافي الزنجي مِثْلياً مكبوتاً.

في الواقع، يجري كل شيء إزاء الزنجي، على الصعيد التناسلي. فمنذ عدّة سنوات، كنا نُسمع أصدقاءنا اللذين كنا نتناقش معهم، أن الأبيض يتصرّف عموماً، تجاه الأسود، مثلما يردُّ بِكُرٌ على ولادة

(1) *Ibid.*, p. 40.

أخ. منذ ذلك الحين، نعلم أن ريتشارد ستربا يفهمُ الأمرَ على هذا النحو، في أميركا. فعلى الصعيد الفنومنولوجي قد ينبغي أنْ يُدرس واقع مزدوج. ثمة خوف من اليهودي بسبب طاقته الامتلاكية. «إنهم» في كل مكان. تعجُّ بهم المصارفُ والبورصات والحكم. إنهم يهيمنون على كل شيء. عمّا قريب سيكون البلد لهم. إنهم يُقبلون في المباريات قبل الفرنسيّين «الحقيقيين». عمّا قريب، سيفرضون الشريعة علينا. مؤخراً، كان يقول لنا رفيق يحضّر مدرسة الإدارة: «عبثاً تقول، إنهم يتساندون ويتكافلون. مثلاً، عندما كان موخ (Moch) في السلطة، صار رهيباً عدد «البويان» الذين جرى تعيينهم». ولا يختلف الوضعُ في المجال الطبّي. فكل طالب يهودي يُقبل في مباراة، يكون «محمياً». _ أما الزنوج فهم لديهم القوّة الجنسية. تأمّلوا إذاً! مع الحرية التي يملكونها، في قلب الأدغال! يبدو أنهم يجامعون في كل مكان، في كل آن! إنهم نسليّون، تناسليون. لديهم كثير من الأطفال. لدرجة أنهم ما عادوا يعدّونهم. فلنكنْ على حَذر، لأنهم قد يغرقوننا في طوفان من الأولاد الخلاسيين.

من المؤكد، أن الأمور تسير بشكل سيء...

اليهود يحاصرون الحكمَ والإدارة.

نساؤنا يحاصرهنّ الزنوج.

لأنَّ للزنجي قوّةً جنسيةً ملحلة. إنّه التعبير الدقيق: لا بدّ أن تكون هذه القوّةُ ملحلة. فالمحلّلون النفسانيون الذين يتأملون في المسألة، سرعان ما يكتشفون جهازَ كل العُصاب. هنا، القلق الجنسي مهيمن. فكل النساء الخوافيات من الزنوج، اللاّتي عرفتهنّ، كانت لهنّ حياة جنسية لاسويّة. كان زوجهنّ يتركهنّ؛ كنَّ مترمّلات، وما كنَّ يتجاسرن على استبدال المرحوم؛ مطلّقات، ولكن يترددن أمام أي

تشمير وضعي جديد. كلهنّ كنّ ينسبن إلى الزنجي قدراتٍ لم يكن يملكها آخرون (زوج) (عشاق عابرون). ثم يدخل عامل الانحراف، كاستمرارية في البنية الطفلية: الله يعلم كيف يمارسون الحب! يجب أن يكون فظيعاً[1].

هناك تعبير جرى استعماله، مع طول الوقت، بمعنى الغُلمة: عضل أسود. كانت امرأة شابه تقول لنا: إن في ذلك ما يحرّك قلبكم. وكانت عاهرةٌ تقول لنا: في البداية، كان يمكن لفكرة مضاجعة زنجيّ أن تهيجني حتى النشوة. فكانت تسعى وراءهم، محاذرةً أن تطلب منهم مالاً. لكنها، تضيف «النّوم معهم لم يعد استثنائياً، خارقاً أكثر من النوم مع البيض. إذ كنتُ أبلغ النشوة قبل المجامعة. كنتُ أظنّ (أتخيّل) كلّ ما كان يمكنهم أن يفعلوا بي: وهذا ما كان رائعاً، ممتعاً».

على الصعيد التناسلي دوماً، الأبيض الذي يكره الأسودَ، ألا يخضع لشعور بالعجز أو بالدونيّة الجنسية؟ بما أن المثال هو رجولة، فحولة مطلقة، ألا توجد ظاهرة نقص، تضاؤل أمام الأسود، نظراً لأن الأسود يُدرك بوصفه رمزاً قضيبياً؟ إن شنق الزنجي، ألا يمكنه

(1) نجد في عمل ج. ماركوز الرأيَ القائل إن العصابَ الاجتماعي، أو إذا شئتم السلوك اللاسوي في مواجهة الآخر كائناً مَنْ كان، ينشئ العلاقات الوطيدة مع الوضع الفردي: تبيّن فرزُ الاستمارات أن الأفراد الأشد عداءً للسامية كانوا ينتمون إلى البنى العائلية الأكثر نزاعاً وتأزّماً. وكان عداؤهم للسامية استجابةً لحرماناتٍ عانوها في البيئة العائلية. ومما يبيّنُ جيداً أنَّ اليهود هم أغراض استبدال في اللاسامية، هو كون الأوضاع العائلية نفسها تولّد، وفقاً للظروف المحلية، كره السُّود، العداء للكاثوليكية أو اللاسامية. وعليه. يمكن القول، خلافاً للرأي الشائع، إن الموقف هو الذي يوجد مضموناً ما، وليس المضمون هو الذي يخلقُ موقفاً» (*Op. cit.*, p. 282).

أن يكون انتقاماً جنسياً؟ إننا نعرف كلَّ ما ينطوي عليه الأذى، التعذيب والضرب من مضمونٍ جنسي. فلنقرأ مجدّداً بضع صفحات من المركيز دِ ساد، وسنقتنع بسهولة. فهل تفوّق الزنجي حقيقي، واقعي؟ الجميع يعلمون أنه ليس صحيحاً. لكنَّ المهمّ ليس هنا. فقد قرّر تفكيرُ الخوافي ماقبل المنطقي أن الأمرَ كان كذلك[1]. ثمة امرأة أخرى كانت مُصابة بخواف، بكره الزنجي، منذ قراءة «سأمضي للبصق على قبوركم». حاولنا أن نبيّن لها لاعقلانيّة موقفها، لافتين انتباهها إلى أن الضحايا البيضاوات كنَّ مريضات مثل الزنجي. إلى ذلك، كنا قد أضفنا، أن الأمر لا يتعلق بمطالب سوداء، كما يوحي بذلك العنوان، ما دام بوريس ڤيان هو الكاتب. وكان علينا أن نلحظ عبثيّة جهودنا. فهذه المرأة الشابة لم تكن تريد أن تسمع شيئاً. وكل مَنْ قرأ هذا الكتاب سيفهم بيُسر ما هو الالتباس الذي يعبِّر عنه هذا الخواف. لقد عرفنا طالباً في الطب، أسودَ، لم يكنْ يتجاسر على أية ملامسة فَرْجية للمريضات اللاتي كنَّ يأتين للمعاينة في قسم الأمراض النسائية. ذات يوم اعترف لنا بأنه سمع هذا الرأي لمريضة: «يوجد زنجي هناك. لو لمسني، لضربته. معهم، لا شيء يضمن. لا بد أن تكون له يدان كبيرتان ومن ثمَّ فإنه فظ بكل تأكيد».

فإذا أردنا فهم وضع عرقي من زاوية التحليل النفسي، لا بوصفه وضعاً شمولياً، بل كما تستشعره الضمائرُ الخاصة، فلا مناص من إناطة أهمية كبيرة بالظواهر الجنسية. بالنسبة إلى اليهودي، يدور

---

(1) حتى نظلّ في أفق ش. أودييه، قد يكون من الأدقّ القول: «التفكير المنطقي»: «من الممكن اقتراح مصطلح «التفكير المنطقي» عندما يتعلق الأمر بنكوص، أي بمسارات خاصة بالراشدين».

(L'angoisse de la pensée magique, p. 95.)

التفكير حول المال ومشتقاته. وبالنسبة إلى الزنجي، يجري التفكير بالجنس. على الصعيد الملموس، يمكن أن نعقلنَ اللاسامية. فيما أن اليهود يستلحقون البلد، يكونون خطيرين. حديثاً، كان رفيقٌ يقول لنا، من دون أن يكون لاسامياً، إنه كان مضطراً للملاحظة أنَّ معظم اليهود الذين عرفهم إبّانَ الحرب، كانوا يتصرّفون تصرّفاً أزعرياً، بارزاً. حيثاً حاولنا إثبات أن وراء هذا الاستخلاص خلاصة تنصبّ على كره جوهر اليهودي أينما وُجد.

على الصعيد العيادي (السريري)، نستذكر قصة هذه المرأة الشابة التي كانت مُصابة بهذيان اللمس، إذ كانت لا تنقطع عن غسل يديها وذراعيها منذ اليوم الذي تعرّفت فيه على يهودي.

بعدما درس جان بول سارتر، بتوسع، مسألة اللاسامية، فلنحاول أن نرى حالَ خواف الزنجي. فهو الرُهاب يقع على المستوى الغريزي، البيولوجي. في الطرف الأقصى، سنقول إن الزنجي، بجسمه، يعيق إغلاق المخطط التصوّري للأبيض، طبعاً في اللحظة التي يظهرُ الأسود فيها، في العالم الظواهري للأبيض. لا مجال هنا لذكر الخلاصات التي توصلنا إليها حين نظرنا في تأثير ظهور جسم آخر في الجسد البشري. (لنفترض، مثلاً، مجموعة من أربعة صبيان في الخامسة عشرة، رياضيّين مُعلنَين إلى هذا الحد أو ذاك. في القفز العالي، يحرز أحدهم 1م و48 سم. فما إن يظهر خامس يقفز 1م و52 سم، حتى تتعرض الأجسامُ الأربعة لتفكك بنيوي). ما يهمّنا هو أن نبيّن أنَّ، مع الزنجي، يبدأ طورُ البيولوجي[1].

---

(1) بكل تأكيد قد تكون هناك فائدة، حين نستند إلى المفهوم اللاكاني الخاص بـ مرحلة المرآة، نتساءل: إلى أيّ حد لا تتعرّض صورة النظير، المؤسّسة لدى الأبيض

....

ـ الشاب في عمرٍ معلوم، لعدائية خيالية، لدى ظهور الأسود. عندما أدركنا هذا المسار الذي وصفه لاكان، لم يعد ثمة شك بأن الآخر الحقيقي للأبيض كان وسيبقى الأسود. وبالعكس. إنما بالنسبة إلى الأبيض، يجري إدراك الآخر على صعيد الصورة الجسمانية، بوصفه اللاأنا إطلاقاً، أي ما لا يمكن تحديده، ما لا يمكن تمثّله واستيعابه. وبالنسبة إلى الأسود، بيّنا أنّ الوقائع التاريخية والاقتصادية كانت تدخلُ في الحسبان. «إن اعتراف الشخص (الذات) بصورته في المرآة، يقول لاكان هو ظاهرة ذات دلالة مزدوجة، بالنسبة إلى تحليل هذه المرحلة: تظهرُ الظاهرةُ بعد ستة أشهر، وتكشف دراستها في هذه اللحظة، على نحو برهانيّ، النزعات التي تشكّل، حينئذٍ، حقيقة الذات؛ فالصورةُ الاتراخيّة تقدّم، بسبب هذه الأواصر، رمزاً جيداً لهذه الحقيقة: لقيمتها العاطفية، الوهميّة مثل الصورة، ولبنيتها بوصفها انعكاساً للشكل البشري». (*Encyclopédie française*, 8-40, 9 et 10).

سنرى أن هذا الاكتشاف أساسيّ: فكلما يدرك الشخصُ صورته وحيّاها، كان على التّوام يُحْيِي، بنوعٍ ما، «الوحدة الذهنية الملازمة، المحايثة له». في علم المرض الذهني، مثلاً، إذا تناولنا الهذيانات الهُلاسية أو التأويلية، سنلاحظ أنّ هناك احتراماً دائماً لصورة الذات هذه. بكلام آخر، ثمّة انسجام بنيوي معيّن، ثمة شمولية للفرد ولما يحوّلُ من بناءات، في كل مراحل السلوك الهذياني. وفضلاً عن إمكان عزو هذا الوفاء إلى المضامين العاطفية، يبقى من البيّن، مع ذلك، أنّ من اللاعلميّة تجاهله. فكلما كان هناك اقتناع هذياني، كان هناك إنتاج جديد للذات. فالآخر يتدخّل، يطرأ خصوصاً في مرحلة القلق والحذر، التي وصفها ديد (Dide) وغيرو (Guiraud). عندئذٍ، ليس مدهشاً أن نستكشف الأسود في صورة شهوانيّ أو سفّاح. لكنْ في مرحلة المنهجة، عندما يترسّخُ اليقين، لا يبقى مكانٌ للغريب. ناهيك بأننا لن نتردّد، في الطرف الأقصى، في القول إن موضوعة الزنجي في بعض الهذيانات (عندما لا يكونُ مركزيّاً) تصطفُّ إلى جانب ظواهر أخرى. مثل دُهان الحيوانات (Zoopsies). لقد وصف لرميت L'hermite الانبثاقَ من الصورة الجسمانية. وهذا ما يسمى في العيادة باسم (Héautoscopie). إن فجاءة ظهور هذه الظاهرة، يقولُ لرميت، هي في غاية الطرافة. فهي تحدث حتى لدى الأسوياء (غوته، تين، إلخ). نؤكد أن الهلوسة البرّانيّة هي على الدوام حيادية بالنسبة إلى الأنتيلي. بانتظام، طرحنا السؤال على أولئك الذين قالوا لنا إنهم لاحظوها عندهم: «ماذا كان لونكَ؟» ـ كنتُ بلا لونه. أكثر من ذلك، في الرؤى التنويميّة،

....

- وخصوصاً منذُ ما بات يدعى باسم «إنقاذ اللذات»، مع دوهاميل، يتكرّرُ المسارُ عينُه. فالذي يفعل ليس أنا كأسود يفكّر أو يصفّق له تحت الثياب.

من ناحية أخرى ننصح أولئك الذين تهمّهم هذه الخلاصات والاستنتاجات، بقراءة بعض المسابقات الفرنسية لأطفال أنتيليّين بين العاشرة والرابعة عشرة. لقد دُعُوا إلى الموضوع التالي: تخيّلوا أنفسكم تقومون برحلة «العطلات»، على غرار الصغار الباريسيين الحقيقيين، فوجدنا الموضوعات الآتية: «أحبُّ العطلات، لأنني سأتمكّن من الجري عبر الحقول، وأتنشّق هواءً نقيّاً وسأعود وأنا مورّد الخدّين». فنرى أننا لم نخطئ أبداً حين أشرنا إلى وجود تجاهل لدى الأنتيلي لصفته الزنجيّة. ربما كنا في الثالثة عشرة، عندما أُتيح لنا أن نرى سنغاليين، للمرّة الأولى. وكنا نعلم عنهم ما كان يرويه عجائز 1914: «يهجمون بالحربة، وعندما لا تسير الأمورُ، ينقضّون على فأس الأدغال، ويتلقّون تحت وابل من زخّات الرّشاشات... يقطعون «الرؤوس» ويتموّنون من الآذان». لقد كانوا يعبرون المارتينيك، وهم قادمون من غويانا. بظمأ، كنا نبحث في الشوارع عن بزّاتهم، التي كان يُحكى لنا عنها: شاشيّة وحزام أحمران. ذهب والدُنا إلى حدّ أنّه اتصل باثنين منهم، قادهما إلى البيت، حيث شكّلا أطايبَ العائلة. وفي المدرسة، تردّد الوضع نفسه: أستاذنا لمادة الرياضيات، وهو ملازم احتياط، وكان سنة 1914 يقودُ وحدةً من القنّاصة السنغاليّين، جعلنا نرتجف حتى روى لنا: «عندما يصلّون لا ينبغي إزعاجهم، فعندئذٍ لا يبقى ثمّة ملازم. فهم أسود في العراك؛ لكنهم يحترمون عاداتهم». وبعد، لا داعي للاندهاش من كون مايوت كابيسا قد رأت نفسها بيضاء وموردّة في أحلامها؛ سنقول إن الأمر سوّي.

ربما سيُعترض علينا بالقول: لئن كان هناك إرصانٌ لصورة، لخيلة النظير، بالنسبة إلى الأبيض. فمن المُفترض أن تحدث لدى الأنتيلي ظاهرةً مماثلة، نظراً لأنّ الإدراك البصري هو شبكة هذا الإرصان. لكن هذا قد يعني التناسي أنّ في الأنتيل، يقع الإدراك دائماً على صعيد المتخيَّل. فهو يدرك نظيرَه هناك بمفردات الأبيض. سيقال، مثلاً، عن فلان بأنه «شديد السّواد»؛ وليس في هذا القول ما يُدهش، حين نسمع أمّاً تقول لعائلتها: «فلانٌ... هو الأكثر سواداً بين أطفالي»، أي الأقلّ بياضاً... فلا نستطيع إلّا أن نردّد رأيَ زميلة أوروبية التي حادثناها في ذلك: على الصعيد الإنساني، إنّه تضليل حقيقي. لنقل مرّة أخرى، بالاستناد إلى جوهر الأبيض، يكون كلُّ أنتيليّ مدعواً لكي يدرك نظيرَه من أبناء جلدته. ففي.

قد لا يخطر، مثلاً، في بال أي لاساميّ أنْ يخصي اليهودي. بل يخطرُ له أنْ يقتله أو أن يعقّمه. أما الزنجيّ فهو مخصيّ. لقد أُبيد القضيبُ، رمزُ الفحولة، أي جرى إنكاره. فيُلحظ الفرقُ بين الموقفين. اليهودي مُصاب، مُستهدف في شخصيته الطائفية، في تاريخه، في عرقه، في العلاقات التي يقيمها مع أجداده وذرّيته؛ ففي اليهودي الذي يُعقَّم، يُقتل الأصلُ، الأرومة؛ فكلما يُنكَّل بيهودي، يجري من خلاله التنكيل بالعرق كلّه. لكنّ الزنجيّ يُستهدف في جسمانيّته. فهو كشخص ملموس يجري شنقه (تلنيشه). وهو خطير بوصفه كائناً راهناً، حاضراً. لقد جرى استبدال الخطر اليهودي بالخوف من قوة الزنجي الجنسية. كتب مانّوني، في بسيكولوجيا الاستعمار: «هناك ذريعة مستعملة في كل أرجاء العالم، من جانب المنصريين ضد أولئك الذين لا يشاطرونهم قناعاتهم، تستحقُّ الذِّكر، بسبب طابعها الكشّاف. «ما هذا؟ يقول المنصريون، لو كان لديكم

---

* الأنتيل، كما في فرنسا، تُصادَف الأسطورة عينها؛ يُقال في باريس: إنّه أسود، لكنّه ذكي جداً؛ وفي المارتينيك لا يُفصح عن ذلك بطريقة مختلفة. في أثناء الحرب، كان أساتذة غواطلوبيّون قد جاؤوا إلى فور ـ دوفرانس، لتصحيح مسابقات البكالوريا، وكنا بدافع حب الاستطلاع قد رحنا نرى ما يحدث. فمضينا حتى إلى الفندق حيث كان ينزل، م. ب.، أستاذُ الفلسفة، الذي كان مشهوراً بأنه مُفْرِط في سواده؛ وكما يُقال في المارتينيك، ليس بدون سُخرية، لقد كان «أزرق». وحين تكون عائلة معيّنة محظيّة جداً، يُقال: «إنهم سُودٌ جداً، لكنهم كلهم جيّدون». في الواقع، هناك أستاذ بيانو، من خريجي الكونسرفاتوار، أستاذ علوم طبيعية في ليسيه البنات، إلخ... وأما الأب، الذي كان يتمشى كل النهار حتى هبوط الليل على الشرفة، فلا يعود يُرى، كانت الكهرباء تنقطع، وكان على الأطفال أن يضحكوا، لكي يتمكّن المرء من إدراك وجودهم. يوم الاثنين، كان بعض الموظفين المارتينيكيين، النظيفين جداً في طقومهم ذات القماش الأبيض، يشبهون، حسب الرمزية المحلية، «ذبوعاً مجففاً في طاسة حليب».

بنت للزواج، هل يمكن أن تعطوها لزنجيّ؟» لقد رأيت أناساً لم يكونوا عنصريين إطلاقاً في الظاهر، منذهلين بهذا النوع من الذرائع، يفقدون كل إحساس انتقادي. ذاك أن ذريعةً، حجة كهذه، تلامس لديهم المشاعر الأكثر اضطراباً (المشاعر الرُهاقية Incestueux، تحديداً) التي تدفع إلى العنصرية بدافع الاستجابة الدفاعية»[1]. قبل أن نتابع، يبدو لنا مهمّاً أن نسجّل الملاحظة التالية: حين نسلّم بوجود نزعات لاواعية نحو الرُهاق (المُنْكر)، فلماذا تظهرُ هذه النزعات نحوَ الأسود بشكلٍ أخص؟ في المطلق بمَ يختلفُ نوع أسود عن نوع أبيض؟ في الحالتين، ألا تزدهر النزعاتُ اللاواعية؟ لم لا نفكّر، مثلاً، أن الأبَ ينتفض لأن الزنجيّ بنظره، سيُدخل ابنته في عالم جنسيّ، لا يملكُ مفتاحه، أسلحته، صفاته؟

يتطلّب كل كسب فكري نقصاً في الطاقة الجنسيّة. ويحتفظ الأبيضُ المتحضّر بالحنين إلى عصور استثنائية من الإباحة الجنسية، والمشاهد الخلاعيّة والاغتصابات غير المُعاقبة، والمُنْكرات غير المقموعة. بمعنىً ما، تلبّي هذه الهُوامات غريزة الحياة الفرويدية. فالأبيض إذْ يُسقط نواياه ومقاصدَه على الزنجيّ، يتصرّف «وكأنّ» الزنجي كان لديه هذه النّوايا فعلاً. وعندما يتعلّق الأمرُ باليهودي، تكون المسألة واضحة: يجري الحذرُ منه، لأنه يرغب في امتلاك الثروات أو التوطّن في المناصب القيادية. أما الزنجيّ فملتصقة به صورة التناسلي، أو على الأقل، يجري تثبيته فيها. ثمة مجالان: العقل والجنس هاكم صورةً تصلح، مفكّر رودان في حالة انتصاب لا يمكنُ

(1) O. Mannoni, *Op. cit.*, p. 109.

«التفوق»، متواضعين، في كل مكان. فالزنجي يمثل الخطرَ البيولوجي. اليهودي، الخطر الفكري.

إن الإصابة بخواف الزنجي، تعني الخوفَ من البيولوجي. لأن الزنجي ليس سوى كائن بيولوجي. إنهم أنعام. يعيشونَ عُراةً. والله وحدَه يعلم...! مانُوني كتبَ أيضاً: «إن هذه الحاجة إلى استكشاف الشكل الميثولوجي للشهوانيين، لدى القردة شبه البشريين، لدى كاليبان أو عند السُّود، وحتى عند اليهود، تلامسُ النفسَ البشرية في عمق[1] حيث تكونُ الفكرة ملتبسة، وتكون الإثارة الجنسية مرتبطة ارتباطاً عجيباً بالعدائية والعنف، وهما دافعان شديدا القوّة»[2]. يُدرج الكاتبُ، اليهوديَّ، في الشبكة. ونحن لا نرى في ذلك عقبةً. لكن الزنجي يكون، هنا، سيّداً. إنّه المتخصّص في المسألة: فمن يقُلْ اغتصاباً يقُلْ زنجياً.

خلال ثلاث أو أربع سنوات، استجوبنا حوالى 500 فرد من العرق الأبيض: من الفرنسيين، الألمان، الإنكليز، الطليان. وكنا نستفيد من نبرة ثقة معيّنة، من سَمَاحٍ ما؛ وفي كل حال، كنا نتوقّع من محاورينا ألّا يخشوا البتّة من الانفتاح علينا، أي أن يكونوا مُقتنعين بأنْ لا يخيّبوا توقّعنا. وإلّا، ففي خلال تداعيات حرة، سنضع كلمة زنجي بين عشرين كلمة أخرى. كان السدس من عشرة أجوبة، كالتالي:

---

(1) حين ننظر في الأجوبة التي يقدّمها حلم اليقظة، سنرى أن هذه الأشكال الميثولوجية، «الأنماط القديمة»، هي في الواقع صور عميقة جداً في النفس البشرية. فكلما نزل الفرد، يصادف زنجياً، سواء عيّنياً أم رمزياً.

(2) O. Mannoni, *Op. cit.*, p. 109.

زنجي = بيولوجي، جنس، قوي، رياضي، قادر، ملاكم، جو لويس، جس أوين، قنّاصة سنغاليّون، بَرّي، حيوان، شيطان، خطيئة.

أما كلمة قنّاص سنغالي فتُحيل إلى كلمات: مرعب، دموي، ضخم، قوي.

من المفيد أن نلحظ أن واحداً من خمسين، أجاب عن كلمة زنجي: نازي. S.S.؛ عندما نعلم القيمة الانفعالية لصورة الـ S.S.، نرى أن الفارق ضئيل بالنسبة إلى الأجوبة السابقة. ولنضفْ أنَّ بعض الأوروبيين قد ساعدونا وطرحوا السؤال على رفاق: فازدادت النسبة ازدياداً ملموساً. ينبغي أن نرى فيها حصيلة صفتنا الزنجيّة: لاشعورياً، كان هناك تحفُّظ ما.

يرمزُ الزنجي إلى البيولوجي. أولاً، لدى الزنوج يبدأ البلوغُ في سن التاسعة، ويصبح لديهم أطفال في العاشرة: إنهم حارّون، ودمهم قوي؛ إنهم أشدّاء. وكما قال لنا أبيض، مؤخّراً، وفي صوته شيء، من المرارة: «أنتمُ من الأمزجة القويّة» إنه عرْقٌ جميل، أنظروا القنّاصة... خلال الحرب، ألمْ تجرِ الاستعانةُ بشياطيننا السُّود؟... لكنْ لا بد أنْ يكونوا قُساةً... لا أراهم وهم يلمسون كتفيّ بأيديهم الضخمة. إنني أرتجفُ هلعاً. وإننا إذ نعلم تماماً أن من المناسب في بعض الحالات أنْ نقرأ بالمقلوب، إنما نتفهم هذه المرأة الشديدة الحساسية: في الصميم، ما تراه تماماً هو الزنجي الشديد الذي يعلب بشدة كتفيها الواهنين. يقول سارتر: عندما يُلفظ تعبير «يهودية شابة» يكون هناك عَبَقٌ خيالي للاغتصاب، للنَّهب... وبالعكس، يمكننا القولُ إن في تعبير «أسود جميل» تلميحاً «محتملاً» إلى ظواهر مماثلة. ولطالما دُهشت من السرعة التي يجري فيها الانتقالُ من «شاب جميل أسود» إلى «مهر شاب، فحل». في فيلم «Le deuil sied

«Electre»، يدور قسم كبير من الحَبكة حول المنافسة الجنسية. يتّهم اوران اخته فيتّي بأنها أعجبت بالمواطنين الأصليين البديعين، العُراة، في جزيرة الحب. ولم يغفرْ لها[1].

دقيقٌ هو تحليل الواقع، إذْ يمكن للباحث أن يعتمد موقفين من موضوعه: أما الاكتفاءُ بوصفه، على غرار علماءِ التشريح الذين يندهشون تماماً، عندما يُسألون، وسط توصيفهم لعظم القصبة، عن عدد ما لديهم من قُصيبات في السّاق الصُغرى. ذاك لأن الأمرَ لا يتعلّق أبداً بهم في بحوثهم، بل يتعلّق بآخرين؛ وكنا في بداية دراساتنا الطبيّة، بعد عدة جلسات تشريحية تثير الغثيان، نرجو رجلاً فظّاً أنْ يمدَّنا بوسيلةٍ لتجنّب تلك المنغّصات. فكان يجاوبنا بكل بساطة: «تصرّف، يا عزيزي، وكأنك تشرّح قطة، وعندها ستسير الأمور على خير ما يرام...» ـ أو يمكنُ للباحث، بعد وصف الواقع، أنْ يرمي إلى تغييره. مبدئياً، يبدو أن نيّة التوصيف تنطوي

(1) مع ذلك، فلنلاحظ «أنَّ الوضعَ ملتبس. إذ إنَّ أوران يغارُ أيضاً من خطيب أخته. إليكم كيف يبدو الحدثُ على صعيد التحليل النفسي: أوران هو عروبك، متعلّق بالأم وهو عاجز عن القيام بتوظيف غرضي، حقيقي، لغيره. أنظرْ مثلاً إلى سلوكه تجاه خطيبته المزعومة. أما فيتّي، المتعلّقة بالأب، فهي تبرهن بدورها لأوران على أنَّ أنه تخونه. لكنْ لا تتخذهن البتّة بذلك. فهي تتصرّف بوصفها مرجعية اتهاميّة (مسار اجتيافي). أمام وضوح الخيانة، أوران يقتل المنافس. ترةّ الأمُّ على ذلك بالانتحار. يتحوّل شبقُ أوران، الذي يحتاج إلى التعبير وفقاً للنمط عينه، وينزاح إلى فيتّي. وبالفعل، تحلُّ فيتّي، في سلوكها وحتى في ظهورها، محل الأم. بحيث إن اوديبَ رُهاباً يعيشه أوران، وهذا إخراج رائع للفيلم. كما يُفهم أنَّ أوران يزعزع جزَّ علاماته والهاماته، لدى إعلان زفاف أخته. لكنه في الصراع مع الخطيب، يضاعف الشعور «النَزوة» مع الزنجيّ، مع المواطنين الأصليّين الرائعين، يقع المأزم على المستوى التناسلي، البيولوجي.

حقاً على هاجس انتقادي، وبذلك، تنطوي على مطلب تجاوز في اتجاه حلٍّ ما. ولقد ابتدع الأدبُ الرسمي أو الفكاهي الكثيرَ من حكاياتِ الزنوج، حتى يجري إسكاتهم. لكن، من أجل جمعهم، لا يجري أي تقدم على صعيد المهمة الحقيقية، ألا وهي تبيان آلية توحيدهم. فالجوهري بالنسبة إلينا ليس تكديس الوقائع والسلوكات، بل استخراج معناها. على هذا الصعيد، يمكننا أن نستعين بياسبرز حين كتب: «إن الفهم المعمَّق لحالة واحدة، غالباً ما يُجيز لنا، فنومنولوجياً، تطبيقاً عاماً على حالات كثيرة. فما ندركه غالباً لمرّة واحدة، يتكرَّرُ على التوّ، وما يهمُّ في الفنومنولوجيا ليس درس حالات كثيرة، بل الفهم الحَدْسي والعميق لبعض الأحوال الخاصة»[1]. إن المسألة التي تثار هي الآتية: هل يستطيع الأبيض أن يتصرَّف تصرّفاً سليماً تجاه الأسود، والأسود هل يستطيع ذلكَ تجاه الأبيض؟ سؤال مسخ، قد يقول البعض. لكن حينما نقول إنَّ الثقافة الأوروبية تملك صورة متخيّلة عن الزنجي المسؤول عن كل النزاعات التي يمكنُ أن تنشأ، فإننا لا نتعدّى الواقع. في الفصل المخصَّص للغة، بيَّنا أنَّ الزنوج كانوا يعاودون إنتاج هذه الصورة المتخيّلة على الشاشة بكل صدقٍ، حتى إنَّ كتّاباً جديّين كانوا من صنّاعها. ومثال ذلك ما كتبه ميشال كورنو: «إن سيف الأسود هو سيف. عندما قتل امرأتكَ بسيفه، أحسّت أيضاً بشيء ما. إنّه إيحاء كاشف. ففي القاع الذي خلفوه، ضاعت جوهرتُكَ. ولكثرة التجليف ربما جعلتَ الغرفة مسبحاً، كما لو كنتَ تغنّي. ويكونُ وداعٌ... وقد يكفي أربعة سُودٍ،

---

(1) Karl Jaspers, *Psychopathologie générale*, tr. Kastler et Mendousse, p.49.

بأعضائهم المكشوفة، لإرضاء رغبات كاتدرائية بأكملها. وللخروج، ينبغي عليهم أن ينتظروا عودة الأمور إلى نصابها؛ وفي هذا المشهد المتشابك ليست المسألة مسألة بسيطة.

«بقي أمامهم الهواءُ الطلق، لكي يكونوا مرتاحين، بلا تعقيدات. لكن «مجابهة» شرسة تنتظرهمْ هناك: مجابهة النخيل، الجاكية (شجر الخبز)، والكثير من الأمزجة المتفاخرة التي قد لا ترتخي في سبيل مملكة، منتصبون مثلما هم إلى الأبد، وفي مستويات يصعب بلوغها على الرغم من كل شيء»[1].

عندما نقرأ هذا المقطع، عدَّة مرّات، ونسترخي، أي عندما نستسلم لحركة الصور، لا نعود نلمح الزنجيّ، بل نرى عضواً: لقد كُسِفَ الزنجي. فهو عضو. ونتخيّل بسهولة ما يمكن لأوصافٍ كهذه أن تثيره لدى شابة ليونيّة. أهو الرعب؟ أهي الرغبة؟ في كل حال، لا تثير اللامبالاة. والحال، ما هي الحقيقة؟ يقول الدكتور باليس إن الطول المتوسط للقضيب عند الأسود الأفريقي، نادراً ما يتجاوز 120 ملم. يشير تستو (Testut) في كتابه حول التشريح البشري، إلى الأرقام نفسها بالنسبة إلى الأوروبي. لكنَّ هذه الوقائع باللذات لا تُقنع أحداً. فالأبيضُ مقتنع بأنَّ الزنجي بهيم؛ وما يثيره، إن لم يكنْ طولُ القضيب، فالقوَّةُ الجنسية تثيره. أمام هذا «المختلف عنه» يحتاج إلى الدفاع عن نفسه. أي إلى تمييز الآخر. فالآخر سيكون حامل همومه ورغباته[2]. العاهرة التي ذكرناها سابقاً، روت لنا أن بحثها عن

(1) *Martinique*, Collection Métamorphoses, Gallimard, pp. 13-14.

(2) حاول بعضُ الكتّاب، وهم بذلك متقبّلون المفاهيم الشائعة (الاعتبارات، بالمعنى الاشتقاقي)، أنْ يبيّنوا لماذا يُدرِي الأبيضُ فهمَ حياة الأسود الجنسية. ومثال ذلك أننا نستطيع أن نقرأ، عند و بدرال، هذا المقطع الذي لا يترك جانباً، مع أنه يعبّر عن الحقيقة، الأسباب العميقة «للرأي» الأبيض: «لا يُعاني الطفلُ الأسود دهشةً

الزنوج كان يعود إلى اليوم الذي رُوي لها، فيه، الحديثُ التالي: ذات مساء، فيما كانت امرأة تضاجع زنجياً، فقدتْ صوابها. بقيت مجنونةً طيلة عامين؛ لكنَّها، حين شفيت، رفضت أن تضاجع شخصاً آخر. إنها لا تعرف ما الذي جنَّنَ تلك المرأة. لكنها، حاولت بصَلَفٍ إعادةَ إنتاج الوضع واستكشاف هذا السّر الذي يدخلُ في نطاق المجهول. لا بدّ من فهم ما كانت تبتغيه. إنه تطلّع. انحلال لوجودها على الصعيد الجنسي. كل محاولة كانت تقوم بها مع زنجي، كانت تعزّز حدودها. كان هذا الهذيان الانتعاظي لا يواتيها. كانت لا تستطيع أنْ تعيشه، فراحت تثأر لنفسها. مُستغرِقةً في التخيّل.

لا بدّ من ذكر واقعة، بهذا الصدد: بيضاء ضاجعت زنجيّاً، لا

- ولا عجباً من التجليات التكوينية، لأنهم يفهمونه ما يودّ أن يعرفه عنها. فمن الواضح جداً، وبدون المزيد من الاستنجاد بآراء التحليل النفسي، أنّ هذا الاختلاف لا بد أنْ تكون له تأثيراته في طريقة التفكير، وتالياً في طريقة التصرّف. قد جرى تقديم الفعل الجنسي، له، كأنّه الشيء الطبيعي جداً، وحتى الشيء الأكثر تشدداً، نظراً للهدف الذي ينشده. الإخصاب. فالأفريقي سيواصلُ، طيلة حياته، استذكارَ هذا المفهوم دائماً، ـ فيما الأوروبي سيحتفظ، طيلة حياته، وبلا وعي، بعقدة ذنب لن يتمكّن العقلُ ولا الاختبارُ، من محوها تماماً. وعليه، يكونُ الأفريقيُّ مستعداً لعدم اعتبار حياته الجنسية إلا بوصفها فرعاً من الحياة الفيزيولوجية، تماماً مثل الأكل والشرب والنّوم... ونتخيّل أنّ تصوّراً من هذا الطراز يكون حاصراً للنطاقات والتوريات التي تلوّثت فيها النفوسُ الأوروبية لكي تصالح بين نزعات واتجاهات وعي معذّب، عقل متقلّب وغريزة معوّقة. ومن هنا تباين ملموس، ليس من حيث الطبيعة ولا التكوّن، بل من حيث التصوّر؛ ومن هنا أيضاً، كونُ الغريزة التناسلية، المُفتقرة إلى الهالة التي تحيطها بها آثارُنا الأدبية، لا تشكّل البتّة في حياة الأفريقي العنصرَ المهيمن الذي تشكّله في حياتنا بالذات؛ وخلافاً لأقوال الكثيرين من المراقبين المستعجلين لتفسير ما رأوه بالوسيلة الوحيدة: تحليل الذات[1]. (*La Vie sexuelle en Afrique noire*, pp. 28-29).

(1) التشديد لنا.

تتقبل بسهولة عاشقاً أبيض. هذا على الأقل اعتقاد صادفناه لدى الرِّجال بنحوٍ خاص: «من يعرف ماذا «يعطونهن»؟ في الواقع، من يعرف؟ بالتأكيد، ليس هم الذين يعرفونه. حول هذا الموضوع، لا نستطيع إسدال ستار الصمت على ملاحظة إيتيامبل هذه: «الغيرة العرقيّة تحضُّ على جرائم العنصرية» فبالنسبة إلى الكثيرين من الرجال البيض، يُعتبر الأسود بالذات، هذا السيف الساحر الذي تتخيله نساؤهم دائماً، وهُنَّ مُثبّتات عليه إلى الأبد. لم تمكّني معلوماتي الإحصائية بمعطياتٍ موثوقة حول هذا الموضوع. مع ذلك، عرفت الزنوج. وهناك بيضاوات عرفنَ السّودَ أيضاً. وأخيراً، هناك زنجيّاتٌ عرفن بِيْضاً. ولقد حصلتُ منهم على اعترافاتٍ كافية، تجعلني آسفاً لكون السيد كورنو يبعثُ بموهبته خرافةً تقول إن الأبيض سيتمكن دائماً من إيجاد ذريعة خادعة: لا يمكنُ التصريح بها، مشبوهة، وتالياً فعّالة مرّتين»[1].

إنَّ جردَ الواقع مهمّة ضخمة. فنحن نجمع الوقائع، نعلّق عليها، لكننا نستشعر في كل سطر مكتوب، في كل جملة ملفوظة، شعوراً بعدم الاكتمال. متنَدِّداً بجان بول سارتر، كتب غابرييل داربوزييه: «إن هذا العنوان الذي يساوي بين الأنتيلي والغوياني والسنغالي والمالغاشي، إنما يخلقُ التباساً مؤسفاً. فهو بذلك، يثير المسألة الثقافية لبلدان ما وراء البحر، وهو يسلخها عن الواقع التاريخي والاجتماعي لكل بلد، ويفصلها عن المزايا القومية، والظروف المختلفة المفروضة على كل منها، من طرف الاستغلال والقمع

(1) «Sur la *Martinique*, de Michel Cournot», *Temps Modernes*, Février 1950.

الأمبرياليّين. وبالتالي، عندما كتب سارتر: «إن الأسود، لمجرّد تعميق ذاكرته كعبد سابق، يؤكّد أنّ الألم هو نصيب البشر، وأنه ألمٌ يستحقُّ العناء مع ذلك»، أكانَ يُدرك ماذا يمكن لهذا القول أنْ يعني بالنسبة إلى هوفا، مغربي، طارقي، فلاني أو بانتو من الكونغو أو من ساحل العاج؟»[1].

هذا الاعتراض مقبول. فهو يطالنا نحن أيضاً. ففي البداية، أردنا أن ننحصر فقط في الأنتيل، لكن الديالكتيك، بأي ثمن، كانت له الغلبة، فكنا مضطرين لكي نرى أنّ الأنتيلي هو في المقام الأول أسود. مع ذلك، لا يمكننا أنْ ننسى أن هناك سُوداً من الجنسيات البلجيكية، الفرنسية، الانكليزية؛ وهناك جمهوريات زنجية. فكيف ندّعي اكتناه جوهر عندما تحكُمنا وقائع كهذه؟ الحقيقة هي أنّ العرقَ الزنجي مُشتَّت، وأنّه لم يعد يملك أية وَحدة. فعندما غزت قوات الدوتشي [موسوليني] أثيوبيا، بدأت تظهر حركة تضامن لدى الملوّنين. ولكن ماذا لو أُرسلت من أميركا طائرةٌ أو طائرتان إلى المُعتدى عليه، فلم يتحرّك عملياً أيُّ أسود. فللزنجي وطن، وهو يحتلّ مكانه في اتحاد أو كومنولث. ولا بد أن يقع كلُّ وصفٍ على مستوى الظاهرة؛ لكننا هنا أيضاً نتحوّل إلى آفاق لا متناهية. ثمة التباس في الوضع العالمي للزنجي، الذي ينحلُّ مع ذلك في وجوده الملموس. بذلك فهو يلتقي بمعنى ما مع اليهودي رداً على العقبات السالفة أعلاه، سنستعين ببيّنةٍ: يبقى الزنجيُّ زنجياً أينما ذهب.

لقد تغلغل الأسودُ في الثقافة، ثقافة بعض البلدان. وكما بيّنا سابقاً، ربما لا يمكن تعليقُ أهمية كبيرة على طريقة اتصال الأطفال

---

(1) Gabriel d'Arbousier, «Une dangereuse mystification: La théorie de la négritude», *La Nouvelle Critique*, Juin 1949.

البيض مع واقع الزنجي. ففي أميركا، مثلاً، يعرفهم الأبيض الشاب، حتى وإن لم يسكنْ الجنوب حيثُ تتاح له الفرصة لرؤيتهم عينياً، يعرفهم من خلال أسطورة العم ريموس. ـ وفي فرنسا، يمكنُ ذكر كوخ العم توم. صبيّ ميس سالي ومارس جون، الصغير، يصغي بمزيج من الخوف والإعجاب لحكايات برير رابيّت. وبرنارد وولف جعل من هذه الازدواجية لدى الأبيض، الفكرة السائدة في البسيكولوجيا البيضاء الأميركية. حتى إنه يمضي، بالاستناد إلى سيرة جويل شاندلر هارّيس، إلى تبيان أنَّ الإعجابَ يتطابقُ مع تماهٍ ما للأبيض بالأسود. إننا نعلم ما هو القصد من وراء هذه الحكايات. يكاد الأخ لاپان [أرنب] يدخل في صراع مع كل حيوانات الخلق الأخرى، وبالطبع يكون غالباً دائماً. هذه الحكايات تنتمي إلى التراث الشفهي لزنوج المزارع. وكذلك جرى التعرّف بسهولة إلى الزنجي، في هيئة الأرنب المضحكة والمُريبة بشكل استثنائيّ. ولقد حاول البيضُ، دفاعاً عن مازوشيّتهم اللاواعية التي تريدهم أن يستمتعوا بالوجد أمام سيرورات الأرنب ـ الأسود ـ، أن ينتزعوا من هذه الحكايات مخزونها العدواني. وهكذا استطاعوا أن يقولوا لأنفسهم إن «الأسود يحرّك الحيوانات كنوع أدنى من الذكاء البشري، ذلك النوع الذي يستطيع الأسود نفسه أن يفهمه. وبالطبع يشعر الأسود أنه على صلة أوثق مع «الحيوانات الدُّنيا»، من صلته مع الإنسان الأبيض، الأرقى منه في كل الأصعدة. وقال آخرون، بكل بساطة، إن هذه الحكايات لم تكنْ ردوداً على الشرط المُناط بالسُّود في أميركا، بل كانت مخلّفات أفريقية لا غير. ـ يعطينا وولف مفتاح هذه التأويلات، يقول: «من الواضح تماماً أن الأخ لاپان هو حيوان، لأنَّ الأسود يجب أن يكون حيواناً؛ فلاپان هو غريب، لأنَّ الأسود

يجب أنْ يُلحظ كغريب حتى في الصبغيَّات، فمنذُ بداية العبودية كانت جُرميَّة الجنوبي، الديموقراطية والمسيحية، كمالك عبيد، تقوده إلى تحديد الأسود كبهيمة، أفريقي لا يُطاق ولا يتغيَّر، طبعه ثابت في البروتوبلاسما، عبر جينات «أفريقيّة». ولئن كان الأسود قد رأى نفسه محصوراً في المراتب البشرية الدنيا، فليسَ مردّ ذلك إلى أميركا، بل بسبب الدونيّة التكوينية لأجداده في «الأدغال». هكذا كان الجنوبي يرفض أن يرى في هذه الحكايات، العدوانية التي كان الأسود يضعها فيها. بل كان هاريّس الحكواتي، على ما يقول وولف، مريضاً نفسياً: «كان، بنحو خاص، جديراً بهذا العمل، لأنّه كان محشوّاً حتى الانتفاخ بهُجاسات عرقية مَرَضية، إضافة إلى تلك التي كانت تنخر الجنوبَ، وبدرجة أقل، كلّ أميركا البيضاء... في الحقيقة، كان الأسود يبدو، في نظر هاريّس وكذلك في نظر الكثيرين من الأميركيين البيض الآخرين، صورة سلبية من كل الزوايا، لأناه الذاتي القلِق: لا مبالٍ، قابل للتدجين، فصيح، مُسترخٍ عضلياً، بعيد دائماً عن الهم، أو سلبيّ، إستعراضي بلا حشمة، خالٍ من الإشفاق على نفسه في وضع عذابه المركّز، مُفرِط في الحيوية...» لكن هاريس يشعر دائماً أنّه معوَّق. كما أن وولف يرى فيه مُحبَطاً، ـ لكنْ ليس حسب الترسيمة الكلاسيكية: ففي جوهره تكمنُ استحالة الوجود بحسب النمط «الطبيعي» للأسود ـ فهو لا يُحْرَمُ من ذلك؛ فهذا مستحيل عليه. ليس ممنوعاً، بل غير قابل للتحقق. وطالما أنَّ الأبيض يشعر أن الأسودَ يُحبطه، فسوف يقوم هو أيضاً بإحباطه وحرمانه، حابساً إيّاه في ممنوعات من كل الأصناف. وهنا أيضاً، يكونُ الأبيضُ طريدةً لاوعيه. فلنصغِ مجدداً إلى وولف: «إنَّ حكايات ريموس هي نصب تذكاري كبير يمثل ازدواجية الجنوب. إذ كان

هارّيس، النموذج البدائي للجنوبي، يسعى وراء حبّ الأسود، وكان يدّعي أنه كان قد حصل عليها (ابتسامة ريموس)[1]. لكنّه كان يسعى، في الوقت نفسه، وراء كره الأسود (الأخ لاپان)، جاعلاً منه مسرّاته، وسط عربدةٍ مازوشيّة لا واعية، ـ ربما يعاقِبُ نفسَه لأنّه ليس هو الأسود، مُقولب الأسود، «الواهب» الكريم. ألا يمكن أن يكون الجنوبُ الأبيض، وربما القسم الأكبر من أميركا البيضاء، يتصرّف غالباً بالطريقة نفسها في علاقاته مع الأسود؟».

هناك بحثٌ عن الأسود؛ فهو مطلوب، لا يمكن الاستغناء عن الأسود، وهو منشود لكنّهم يريدونه مُتبّلاً بطريقة معيّنة. المؤسف أن الزنجي يخرّب النظام وينتهك العهود. فهل سينتفضُ الأبيض؟ كلا، سيتكيّف مع ذلك. يقول ولف: إنَّ هذه الواقعة تفسّر لماذا تكون أعمال كثيرة تتناول قضايا عرقية، من الأعمال الأكثر رواجاً[2]. «من المؤكد أنَّ أحداً غير مُكْرَه على استهلاك حكاياتِ سُودٍ يعاشرنَ بيضاوات (Deep are the roots, Strange fruit, Uncle Remus)، وحكايات بيضٍ يكتشفون أنهم سود (Kingsblood royal, Lost boundary, Uncle Remus) وحكايات بيض خنقهم سُود (Native son; If he hollers, let him go; Uncle Remus).... نستطيع أن نعرض ونستعرض على صعيد واسع ابتسامة الأسود العريضة في ثقافتنا الشعبية، بوصفها معطفاً لهذه المازوشيّة، المداعبة تُحلّي الهجوم. وكما يبيّن العم ريموس، تكون لعبة الأعراقُ هنا لاواعية، في

---

(1) إن شخص العم ريموس هو من إبداع هارّيس. وإن إدخال هذا العبد العجوز المتملّق والمكتئب، مع ابتسامته الدائمة، هو إحدى الصور النموذجية للأسود الأميركي.

(2) أنظر أيضاً الأفلام السوداء الكثيرة في السنوات العشر الأخيرة. مع ذلك، فالمُنتجون كلّهم بيض.

معظمها. فليس الأبيضُ أكثر وعياً لمازوشيته عندما يكون مبتهجاً بالمضمون البارع للابتسامة المُقَولبة، التي لا يحملها الأسودُ عن ساديّته، عندما يحوّل المُقولب إلى حرارة ثقافية. ربّما أقلّ»[1].

كما نرى، في أميركا يخترعُ الزنجي حكايات، يغدو فيها من المستحيل عليه أن يمارس عدوانيّته؛ فلا وعيُ الأبيض يسوّغ ويقوّم هذه العدائية موجّهاً إيّاها نحوه، مجدّداً بذلك انتاج الترسيم الكلاسيكي للمازوشيّة[2]،

نستطيع الآن أنْ ننصب مَعْلماً. فبالنسبة إلى أكثرية البيض، يمثل الأسودُ الغريزة الجنسية (غير المهذّبة). ويجسّد الزنجيّ القوّة التناسلية ما فوق الأخلاقيات والمحرّمات. وأما البيضاوات فهن يدركن، باستدلال حقيقي وبانتظام أنَّ الزنجيّ هو ذو الباب الخفيّ الذي يُفضي إلى مملكة الصخب والفجور، مملكة الأحاسيس الجنسية الهلاسية... وكنا قد بيّنا أنَّ الواقع يدحض كل هذه المزاعم، لكن هذا يقع على مستوى المُتخيَّل. وفي كل حال، على مستوى شبه المنطق (Paralogique). ذاك أن الأبيض الذي يعزو للأسود تأثيراً شرّيراً، إنما يشهد نكوصاً على الصعيد الفكري، طالما أننا بيّنا أنّه كان يدرك ذلك في عمر عقلي مقداره ثماني سنوات (القصص

---

(1) Bernard Wolfe, «L'Oncle Rémus et son lapin», *Temps Modernes*, N° 43, Mai 1949.

(2) من المألوف في أميركا أن يقولوا، عندما تجري المطالبة بتحرير السُّود، إنهم لا ينتظرون سوى هذه الفرصة للانقضاض على نسائنا. بما أنّ الأبيض يتصرّف تصرّفاً مُهيناً تجاه الأسود، فإنه يدرك أنه لو كان موضعَ الأسود لما أشفق أبداً على قاهره. كذلك أليسَ مدهشاً أن نراه يتماهى بالزنجي: أوركسترات بيضاء، مغنّو البلوز، الروحانيات، كتّاب بيض يكتبون روايات يصرخ فيها البطلُ الزنجي شكاواه، بيضٌ يتلطّخون بالأسود.

المصورة...). أليس هناكَ نكوص وتثبيت في آن، في مراحل ما قبل تناسليّة من التطور الجنسي؟ خصي ذاتي؟ (يُصوِّر الزنجي مع عضو مُرعب). إنها سلبيَّة تُفَسَّر بالاعتراف بتفوُّق الأسود، من ناحية الفحولة الجنسية؟ يتضح عدد الأسئلة التي قد يكون من المفيد طرحُها. مثلاً، هناك رجال يذهبون إلى «بيوت» لكي يجعلوا السُّودَ يجلدونهم؛ هناك مثليّون سالبون، ينشدون شركاءَ سُوداً.

ثمة حلّ آخر قد يكون التالي: .هناك أولاً عدائية سادية تجاه الأسود، ثم عقدة ذنب بسبب العقاب الذي تجعله الثقافةُ الديموقراطية للبلد المدروس، يضغط على السلوك. وعندئذٍ يتحمّل الأسودُ تلك العدائية، ومن هنا كانت المازوشيّة، لكن، سيُقال لنا، إن ترسيمتكم خاطئة: فلا نجد فيها عناصرَ المازوشية الكلاسيكية. في الواقع، قد لا يكون هذا الوضع كلاسيكياً. في كل حال، هذه هي الطريقة الوحيدة لتفسير سلوك الأبيض المازوشيّ.

فمن زاوية نظر كشفي، ومن دون المُصادرة على الواقع، نودُّ أن نقترح تفسيراً للهُوام: زنجي يغتصبني. منذ دراسات هيلين ديوتش[1] وماري بونابرت[2] اللتين استأنفتا، وبطريقةٍ ما، ذهبتا بأفكار فرويد حول الحياة الجنسية إلى منتهاها، ونحن نعرف أن المرأة، على التوالي، البظرية، البظريّة ـ الفَرْجيّة، ثم الفَرْجية الخالصة، ـ المحتفظة نسبياً بعقدة سَبقها بوصفه تشوّشاً سالباً، وبعدوانيّتها، بعدما تجاوزت عقدتها الأوديبيّة المزدوجة ـ، قد وصلت في آخر تطورها البيولوجي والبسيكولوجي، إلى ذروة دورها المتحقق في الاندماج

---

(1) *Psychology of Women.*
(2) *De la sexualité de la femme.*

العصبي ـ النفسي. مع ذلك، لا يمكن لنا السّكوت عن بعض الكبوات أو بعض الشيّات.

هناك عقدة أوديبية فعّالة تقابل المرحلة البظريّة، بالرغم من عدم وجود تعاقب، بل تعايش بين الناشط والسالب، كما ترى ماري بونابرت. إن نزع الطابع الجنسي عن العدوانية لدى البنت أقلّ نجاحاً نسبيا مما هي عليه لدى الولد[1]. فالبَظْر يُدرك كأنه قضيب مُقَصَّر؛ لكنّ البنت حين تتخطى الملموسَ، لا تأخذ إلّا بالنوعيّة. فهي تكته الواقع من نواحٍ نوعيّة. وعلى غرار الولد الصغير، ستتعايشُ فيها دوافع متجهة نحو الأم؛ إذ هي أيضاً تتمنى لو تبقر بطنَ الأم.

والحال، نتساءل عمّا إذا كان لا يوجد، إلى جانب التجسيد النهائي للأنوثة، بقايا من هذا الهُوام الطفلي. «ناهيكَ بأن نفوراً مفرطاً لدى امرأة، من ألعاب الرجل القاسية، يكون علامةً مشبوهة من علامات احتجاج ذكَريّ، وثنائية جنسية مُفرطة. إن امرأةً كهذه حظوظها عالية في أن تكون بظرية»[2]. إليكم ما نفكر به في هذا الخصوص. ففي البداية، ترى البنتُ الصغيرة أن الأبَ العدواني الشبقي يضرب طفلاً مناوئاً. في هذه المرحلة (من خمس إلى تسع سنوات)، يكون الأبُ، الذي يتقلد القطب الشبقي، رافضاً بنوع ما الاضطلاع بالعدوانية التي يتطلبها منه، لاوعيُ البنت الصغيرة. في هذه اللحظة، تطلب هذه العدوانية المنفلتة، من دون حامل، توظيفاً ما. وبما أن الطفل في هذا العمر يخترق الفولكلور والثقافة، في

---

(1) Marie Bonaparte, *«De la sexualité de la femme»*, Revue française de Psychanalyse, Avril-Juin, 1949.

(2) *Ibid.* p. 180.

الشكل المعلوم، فإن الزنجي يغدو الوديع المهيأ لهذه العدائية. وإذا توغلنا أكثرَ في المتاهة، سنلاحظ: عندما تعيش المرأة هُوامَ اغتصابها من جانب زنجي، فإن ذلك يكون، بنوع ما، تحقيقاً لحلم شخصي، لأمنية حميمة. وحين تتحقق ظاهرة الارتداد على الذات، فإن المرأة هي التي تغتصبُ نفسها. ونجد البرهان الأكيد على ذلك في أن من غير المستغرب أنْ تقول النساء للشريك في أثناء المجامعة: «عذّبني». وهنَّ لا يقمن بغير التعبير عن هذه الفكرة: عذّبني، كما لو كنت سأعذّب نفسي فيما لو كنت مكانك. إنَّ هوام الاغتصاب من طرف الزنجي هو فرع من فروع هذا التمثيل: «أتمنى أنْ يفرني الزنجي كما كنت أنا قد أبقر امرأة». حين تُقبل استنتاجاتُنا حول النفسية ــ الجنسية للمرأة البيضاء، يُمكنُ أن نُسأل عن الاستنتاجات التي يمكن أن نقدّمها بخصوص المرأة الملوّنة. إننا لا نعلم شيئاً عن ذلك. وإن كل ما يمكننا أن نقترحه، على الأقل، هو أن السنغالي ــ النموذجي، أو في كل حال، شخصاً أدنى (يعتبر هكذا) هو الذي يمثل المُعتدي في نظر الكثيرات من الأنتيليّات، اللاتي سندعوهنَّ شبه البيضاوات.

إن الزنجي هو التناسلي. هل القصة كلها تكمن هنا؟ لا، بكل أسف. فالزنجيُّ شيء آخر. هنا أيضاً، نصادف اليهودي. فالمسألة الجنسية تفصلنا، لكنْ بيننا نقطة مشتركة. فكلانا يمثل الشرّ. الأسود يمثله أكثر، لا لسبب إلا لأنه أسود. ألا يقال، في الرمزيّة، العدالة البيضاء، الحقيقة البيضاء، العذراء البيضاء؟ عرفنا أنتيلياً يتحدّثُ عن آخر، قائلاً: «جسمه أسود، لسانه أسود، فلا بد أن تكون نفسه سوداء أيضاً». هذا المنطق يجسّده الأبيض يومياً. فالأسود هو رمز الشر والبشاعة.

يصف السيد هنري باروك في كتابه الجديد موجز الطب النفسي[1]، ما يسميه العُصابات اللاسامية:

«لدى واحد من مرضانا، كانت فظاعة الهذيان ووقاحته تتخطى كل ما يمكن أنْ يتضمّنه اللسانُ الفرنسي، وكانت تقدّم بشكلها إشاراتٍ واضحةً وتلميحاتٍ لواطية[2]. كان الشخصُ يحوّل الخجل الحميم منها، بنقلها ولصقها باليهود جاعلاً منهم كبش محرقة، يحل عليهم الذبح. وكان هناك مريض آخر، مصاب بصرعة هذيانية، جرّاء أحداث 1940، يكشفُ عن هذيان مفاجىء لتأويل لاساميّ، بالغ الحتف، إلى حدّ أنه حين كان ذات يوم في فندق، وكان يشتبه بأن نزيلَ الغرفة المجاورة كان يهودياً، اندفع ليلاً إلى غرفته لصرعه...

مريض آخر، ذو تكوين جسدي منحرف المزاج، مُصاب بالتهاب مزمن في القولون، كان يشكو من صحة سيئة وكان في نهاية المطاف يعزوها إلى تسمُّم بفعل «حساء باكتيري» كان يظنُّ أن بعض الممرّضين في مؤسسة، قد جرَّعوه إيّاه، حين كان هناك من ذي قبل. - ممرّضون مناهضون للإكليروس وشيوعيون، على ما يقول، كانوا قد أرادوا أن يعاقبوه على آرائه وقناعاته الكاثوليكية. حين وصل إلى

(1) Masson, 1950, p. 371.

(2) لنذكر سريعاً أنّه لم يُتح لنا أنْ نلحظ الوجودَ الجليّ للواط في المارتينيك. يجب أنْ يُرى في ذلك نتيجة لغياب الأوديب في الأنتيل. والحال، فإن ترسيم المثلية معروف. مع ذلك، فلنتذكر وجود ما يسمّى هناك «رجال يلبسون كالسيدات» أو «Ma Commère». فهم يرتدون غالباً سترة وتنورة. لكنّا ما زلنا مقتنعين بأن حياتهم الجنسية سويّة. فهم يتناولون شرابَ البُنش، مثل أي عملاق، وهم غير منصرفين عن مفاتن النساء، - بائعات سمك، وخضار. في المقابل، وجدنا في أوروبا بعض الرفاق الذين صاروا لواطيين، سلبيين دوماً. لكن ذلك لم يكنْ مثليّة عُصابية، فقد كان ذلك مخرجاً، مثلما كان مخرجُ القوّاد بالنسبة إلى آخرين.

عيادتنا، بعدما نجا من «ملاك نقابي»، ظنَّ أنه بعد أن نجا من خطر سقط في آخر أعظم منه، ما دام قد وجد نفسه بين يدي يهودي. وهذا اليهودي لا يمكنه أن يكون، تعريفاً، سوى لص، غول، إنسان قادر على ارتكاب الجرائم كلها».

أمام هذا التصاعد للعدوانية، سيتعيّن على هذا اليهودي أن يأخذ موقفاً. هذه هي كل الأزدواجيّة التي يصفها سارتر. فبعض صفحات تأملات في المسألة اليهودية هي من أجمل الصفحات التي قرأناها يوماً. الأجمل، لأن المسألة التي تعرِب عنها تطالنا في الأحشاء[1].

يقع اليهودي، أكان أصيلاً أم لا، تحت طائلة وصمه بـ«القذر». فالحال على نحو يكون كل ما يقوم به مرشحاً للارتداد ضده مهما يفعل. لأن اليهودي بصورة طبيعية يختار نفسه، وقد يحدث له أنْ

---

(1) بنحو أخص، نفكّر بهذا المقطع: «إذاً، هذا هو حال هذا الرجل، المُحبط، المحكوم باختيار نفسه على قاعدة مسائل زائفة، في وضع زائف، مجرَّد من المعنى الميتافيزيقي بسبب العداوة المهدِّدة للمجتمع الذي يحيطه، والمُحال إلى عقلانية تنمّ عن الخيبة. فما حياته سوى هرب مديد من الآخرين ومن نفسه، فقد سُلِب منه حتى جسده الخاص، وشُطِرت حياتُه الوجدانية شطرين، وحكِم عليه بأن يواصل في عالم يرفضه، بحثه عن الحلم المستحيل بأخوة عالمية. غلطةُ مَنْ؟ إن عيوننا هي التي تُرسل له الصورة غير المقبولة التي يرغبُ في إخفائها. إنها كلماتنا كلها وحركاتنا كلها، لاساميّتنا؛ وكذلك كل ليبراليتنا المتعجرفة ـ التي سمّمته حتى نخاعه؛ فنحن الذين نرغمه على اختيار نفسه يهودياً، سواءٌ أكان يتهرّب من هويته أم كان يطالب بها، فنحن الذين حشرناه في إحراج اللاصدقيّة أو الصدقية... إن هذا النوع من الناس، الذي يشهد عن الإنسان أكثر من كل الآخرين، لأنه مولود من ردود ثانوية في داخل البشرية، ذلك الجوهر الإنساني المُضطهد، المجتث، المدعو أصلاً إلى اللاصدقيّة أو الاستشهاد. لا يوجد واحدٌ بيننا لا يكون، في هذا السياق، مذنباً كلياً، وحتى مجرماً؛ فالدم اليهودي الذي أراقه النازيون يرتد على ضمائرنا». (pp.177-178).

ينسى يهوديته أو أن يخفيها أو أن يتخفّى منها. فهو حينئذٍ يسلّم بصلاحية النظام الآريّ. هناك الخير والشرّ. الشر يهودي. كل ما هو يهودي بشع. فلا تعودوا يهوداً. أنا لم أعدْ يهودياً. فليسقطْ اليهود. ـ بالمناسبة، إنهم الأشدُّ عداوةً. مثل هذا المريض لدى باروك، المصاب بهذيان الاضطهاد الذي، حين لمحه ذات يوم حاملاً النجمةَ الصفراء، حَدَّجَهُ وهو يصرخ بازدراء: «آه! أنا سيّدي، أنا فرنسي». وفصل هذه المريضة: «التي تُعالج في عيادة زميلنا، الدكتور داداي، حين وُجدت في جناح حيث كانت إحدى بنات دينها عرضة لسخريات وتعليقات مزعجة من طرف مرضى آخرين. تولّت الدفاع عنها مريضةٌ غير يهودية. عندما أخِذت المريضةُ الأولى تعامل تلكِ التي تولّت الدفاع عن اليهود، بازدراءٍ قذفتها بكل الشتائم المعادية للسامية، طالبةً تخليصها من هذه اليهودية»[1].

لدينا هنا مثل رائع عن ظاهرة ارتجاعية. فاليهودي، حتى يردّ على اللاسامية، يجعل نفسه لاسامياً. وهذا ما بيّنه سارتر في كتابه وقف التنفيذ *(Le Sursis)*، حيث توصّل بيرنشاتز إلى معايشة إنكاره بكثافةٍ تُقارب الهذيان. سنرى أن الكلمة ليست شديدة. فالأميركيّون الذين يأتون إلى باريس، يندهشون من رؤيتهم فيها كثيراً من البيضاوات في صحبة سُود، حين كانت سيمون دِ بوفوار تتنزّه في نيويورك، مع ريتشارد رايت، قامت سيّدة عجوز بدعوتها إلى الالتزام بالنظام. كان سارتر يقول: هنا اليهودي، هناك الزنجيّ. ما يلزمُ هو كبشُ محرقة. لم يقلْ باروكُ شيئاً مغايراً: «لن يتمّ الخلاص من عِقد الكراهية، إنْ لم تعرف البشرية كيف تتخلى عن عقدة كبش المحرقة، الفداء».

مع الخطأ، الذنب، رفض الذنب هذا، جنون الهُذاء، يجدُ المرءُ

---

(1) Baruk, *op. cit.*, pp. 372-373.

نفسَه مجدداً في مجالٍ مِثليّ. صفوة القول إنّ ما وصفه آخرون في حال اليهود، ينطبق تماماً على الزنجي[1].

خير ـ شر، جميل ـ بشع، أبيض ـ أسود: تلكم هي الأزواجُ المميِّزة للظاهرة التي سندعوها «مانويّة هذيانية»[2]، مُسترجعين عبارةَ ديد وغيرو.

لا يُرى سوى نمط الزنجي، وتشبيه اللاساميّة بكره الزنوجة، هذه هي الأخطاء التي يبدو أن التحليل قد ارتكبها هنا. سألنا أحدُهم، ممن كنا نحدّثهم عن عملنا، عما كنّا نرتقب. منذ دراسة سارتر الحاسمة، ما الأدب؟ (مواقف II)، راح الأدبُ يلتزم أكثر فأكثر بمهمّته الوحيدة، الراهنة حقاً، ألا وهي نقل المجتمع إلى التفكّر والوساطة: هذا العمل يرمي إلى أن يكون مرآةً ذات بنية تحتية متصاعدة، حيث يمكنُ استكشاف الزنجي وهو في طريقه إلى التحرر من الانسلاب.

عندما لا يتوافر «الحدّ الأدنى الإنساني»، لا تعودُ ثمّة ثقافة. فقلّما يهمّني أن أعرف أن «المونتو هو قوّة» لدى البانتو[3]، ـ أو على الأقل، كان يمكن لهذا الأمر أن يهمّني، لو لم تكن بعض التفاصيل هي التي تزعجني. فماذا تعني التأملاتُ في الأونطولوجيا البانتو،

(1) على هذا النحو كتبت ماري بونابرت: «اللاساميّون يُسقطون على اليهودي، ينسبون إليه، كل غرائزهم العاطلة، اللاواعية تقريباً... هكذا، حين يُفرغون أوزارَهم على ظهره، إنما يغسلون أنفسهم ويظهرون في عيون ذاتهم ساطعين بالنقاوة تماماً. وهكذا يتعرّض اليهودي تماماً لكي يكون إسقاطاً، انعكاساً للشيطان... وفي اميركا، يتعرّض الزنوج أيضاً لوظيفة تثبيتيّة كهذه...» (*Mythes de guerre*, n.I, p.145).

(2) *Psychiatrie du médecin praticien*, Masson, 1922, p.164.

(3) R. P. Tempels, *La philosophie bantoue*.

عندما نقرأ في موضع آخر: «عندما أضرب 75 ألف عامل منجم أسود، سنة 1946، أرغمتهم شرطةُ الدولة بطلقات البنادق وضربات الحِراب، على استئناف العمل. سقط 25 قتيلاً وألوف الجرحى.

في تلك المرحلة، كان سموتز (Smuts) على رأس الحكومة ومندوباً إلى مؤتمر السلام. في المزارع البيضاء، كان العمّال السُّود يعيشون كالأقنان تقريباً. وكان يمكنهم اصطحاب عائلاتهم؛ لكنّ أيّاً منهم، لم يكن يستطيع مغادرة المزرعة من دون ترخيص سيّده. وإذا فعل، يجري إبلاغ الشرطة، فيُعاد بالقوّة ويجري جلدُه...

بموجب مرسوم الإدارة المحلية، يكون للحاكم العام، بوصفه قائداً أعلى، سلطات استبدادية على الأفارقة. فهو قادر، بإعلانٍ، على توقيف واعتقال كل أفريقيّ يُشتبه بأنه خطير على الأمن. ويمكنه أن يمنع في أي قطاع للسكان المحليين التجمّعات التي تضمُّ أكثر من عشرة أشخاص. لا توجد أية ضمانة لحرية الأشخاص الأفارقة. فهم معرَّضون، في كلّ آن، للتوقيفات الجماعية، من دون استنابة.

في جنوب أفريقيا، السكان غير البيض هم في مأزق. فكل أشكال العبودية الحديثة تمنعهم من التخلص من هذه الكارثة. فبالنسبة إلى الأفريقي، بنحو خاص، حطّم المجتمعُ الأبيضُ عالمه القديم، من دون أن يعطيه عالماً جديداً. فقد قوّضَ الأسس القبلية التقليدية لحياته، وسدَّ طريقَ المستقبل بعدما أغلقَ سبيلَ الماضي...

أراد الأبارتيد منعه (الزنجي) من المشاركة في التاريخ الحديث، كقوّة مستقلة وحرّة»[1].

---

(1) I.R. Skine, «Apartheid en Afrique du Sud», *Temps Modernes*, Juillet, 1950.

نعتذر عن هذا المُقتطف المطوّل؛ لكنّه يسمح بتوضيح بعض احتمالات الأخطاء التي يرتكبها السود. يلاحظ آليون ديوب، مثلاً، في تقديمه لفلسفة البانتو، أنّ الأونطولوجيا البانتو لا تعرف هذا البؤس الميتافيزيقي الأوروبي. إلّا أن العبرة التي يستخلصها من ذلك خطيرة: «السؤال المزدوج الذي يُثار هو أن نعرف إذا كان على العبقرية السوداء أنْ تعنى بما يشكّل أصالتها، قوّة النفس هذه، هذا الاحترام الفطري للإنسان وللمخلوق، هذا الفرح بالحياة، هذا السلام الذي لا يكون تشويهاً للإنسان مفروضاً ومعيوشاً على صعيد النظافة الأخلاقية، لكنّه يكون تناغماً طبيعياً مع جلال الحياة السعيدة... كما نتساءل عمّا يستطيع الأسود أنْ يقدّمه للعالم الحديث... ما نستطيع قوله هو أنَّ مفهوم الثقافة بالذات، بوصفها إرادة ثورية، مناقض لعبقريتنا تماماً مثلما هو مفهوم التقدّم. فالتقدّم لا يهجس به وعيُنا إلّا إذا كان لدينا بعض المآخذ ضد الحياة، باعتبارها معطىً طبيعياً». انتبهوا! ليس المقصود استكشاف الكائن في الفكر البانتو، عندما يكون وجود قوم البانتو، يقع، مرسوماً على صعيد اللاوجود، أي اللامحسوس[1]. بالطبع، لا تُدرك فلسفةُ البانتو، انطلاقاً من إرادة ثورية: لكن، بالضبط، على قدْر ما يكون المجتمع البانتو مُغلقاً، لا نجد فيه إحلال المستغِلّ محل العلاقات الأونطولوجية للقوى. والحال، نعرف أنَّ المجتمع البانتو لم يعد موجوداً، وأن التميز خالٍ تماماً من الوجودية (الأونطولوجية). كفى هذه الفضيحة.

فمنذ بعض الوقت، يدور الحديث كثيراً عن الزنجي. يحكى عنه

(1) Voir par exemple: *Pleure, ô pays bien-aimé*, de Alan Paton.

بإفراط. والزنجي يريدُ أن يُنسى، حتى يستجمع قواه، قواه الحقيقية، الأصلية.

ذات يوم، قال: «زنوجتي ليست برجاً...»

وجاءَ مَنْ يضفي عليه طابع الهلينية، الأورفيّة... هذا الزنجي الذي يبحث عن الكليّ. إنه يبحث عن الكليّ، الشموليّ! لكن في حزيران/حزيران 1950، كانت الفنادقُ الباريسية ترفضُ إسكان حجّاج سُود. لماذا؟ بكل بساطة لأن الزبائن الأنكلوسكسونيّين (وهم أغنياء ويكرهون الزنوج، كما يعلم كلُّ أحد) قد يرحلون.

الزنجي ينشد الكليّ؛ لكن، على الشاشة يبقى على جوهره الزنجي كما هو، يبقى على «طيبته» الزنجية:

«دائماً خادم
دائماً مجامل وضاحك
أنا لم أسرق أبداً، لم أكذب أبداً،
دائماً هناك موز طيب...»

الزنجي يَتَعولم؛ لكنْ في ليسيه سان لوي، في باريس، جرى التخلص من واحدٍ منهم: كانت له الوقاحة أن يقرأ إنجلس.

إنّ وراء ذلك مأساة، ويُخشى أن يغرقَ فيها المثقفونَ السُّود.

كيف؟ ما كدتُ أفتح عيني اللتين كانوا قد عصبوهما، حتى أرادوا إغراقي في الكليّ، الشموليّ؟ والآخرون؟ هؤلاء الذين «لا فم لهم» البتة، «ولا صوت لهم» قط... أنا محتاج إلى الذوبان في زنوجتي، إلى رؤية الرماد: التمييزات، أعمال القمع، الاغتصابات، العنصريّات، الحصارات والمقاطعات. كنا نحتاج إلى أن نلمس بالإصبع كل الجروح التي تشقّق البشرة السوداء.

نستبق رؤية آليون ديوب يتساءل عما ستكون عليه العبقرية السوداء

في الجوقة العالمية. والحال نقول إن ثقافة حقيقية لا يمكنها أنْ تولد في الأوضاع الراهنة. سيحكى عن عبقرية سوداء عندما سيستعيد الإنسانُ مكانته الحقيقية.

مجدّداً، نستعين بسيزير؛ ونتمنّى أن يستلهمه كثير من المثقّفين السُّود. بالنسبة إليّ، عليّ أنْ أكرّر أيضاً: «وبالأخص، جسدي، وكذلك نفسي، حاذروا من تشبيك الذرعان في موقف المتفرّج العقيم، لأن بحرَ آلام ليس خشبةَ مسرح، ولأن إنساناً يصرخ ليس دُبّاً يرقص...».

حين واصلتُ فرزَ الواقع، وبذلت جهدي لتحديد لحظة التبلّر الرّمزي، وجدتُني بشكل طبيعي أمام أبواب البسيكولوجيا اليونغيّة. فالحضارةُ الأوروبية تمتاز، وسط ما يدعوه يونغ اللاوعي الجمعي، بوجود نمط بدائي قديم: التعبير عن غرائز شريرة، عن الغموض الملازم لكل أنا، عن المتوحّش غير المتمدّن، عن الزنجي الذي يخبو في أعماق كل أبيض. ويقرّر يونغ أنه لاحظ لدى الشعوب غير المتمدنة، البنية النفسية ذاتها التي بصورة رسمه البياني. شخصياً، أرى أن يونغ قد أخطأ في ذلك. ناهيكَ بأن كل الشعوب التي عرفها ـ الهنود البويبلو في آريزونا أو زنوج كينيا في أفريقيا الغربية البريطانية ـ كانت لها صلاتٌ صَدْميّة، تقريباً، مع البيض. سبق أنْ قلنا إن الفتى الأنتيلي، في تضرّعاته وصلواته، ليس أسودَ أبداً؛ وحاولنا أن نبيّن ما تتطابق معه هذه الظاهرة. يعيّن يونغ مكان اللاوعي الجمعي في المادة الدماغية الموروثة. لكنَّ اللاوعي الجمعي، من دون احتياج إلى الاستعانة بالمورثات (الجينات)، هو بكل بساطة مجمل الابتسارات، المفاهيم الشائعة، الأساطير، المواقف الجماعية لجماعة معيّنة. فمن المتّفق عليه، مثلاً، أن اليهود الذين استوطنوا في إسرائيل

سيولدون، في أقل من مئة عام، لاوعياً جماعياً مختلفاً عن لاوعيهم الذي كان خاصاً بهم سنة 1954، في البلدان التي طُردوا منها.

على صعيد السّجال الفلسفي، قد تُثار هنا المسألة العتيقة للغريزة والعادة: الغريزة الفطرية (ومعروف ما يجب التفكير به حول هذه «الفِطرة»)، الثابتة، الخاصة؛ والعادة، المكتسبة. قد يتوجب على هذا الصعيد، بَذل بساطه، البرهان على أن يونغ يخلط الغريزة والعادة. عملياً، في رأيه، اللاوعي الجمعي متضافر مع البنية الدماغية، والأساطير والأنماط البدائية هي انطباعات دائمة للنّوع. ونأمل أنْ نكونَ قد بيَّنا أنَّ الأمرَ ليس كذلك، وأن اللاوعي الجمعي هو في الواقع ثقافي، أي مُكتسب. كما أنَّ شاباً ريفيّاً من الكاربات (Carpathes) سيرى في ظروف المنطقة الفيزيائية ـ الكيميائية، ظهورَ استسقاءٍ لحميّ لديه، فإن زنجيّاً مثل رينه ماران، عاش في فرنسا، تنفَّس، وبلع أساطير وابتسارات أوروبا العنصرية، وتمثّل اللاوعي الجمعي لأوروبا هذه لن يستطيع، لو ازدوج، إلّا أن يلحظ كرهَه للزنجي. لا بد من المضي بهدوء، فمن المأساة وجوب الاستعراض البطيء للآليّات التي تبرز في كليتها. ألا يمكنُ فهم هذا المطلب؟ في أوروبا، يمثِّل الشرُّ بالأسود. يجب المضي ببطء، نعرف ذلك، لكنه أمر صعب. فالجزّار، الجلّاد هو الإنسان الأسود، والشيطان أسود، ويحكى عن الدياجي، عندما يكون المرءُ وسخاً يكون أسود. ـ سواءٌ انطبق هذا على القذارة الجسدية أم على القذارة المعنوية، الأخلاقية. قد يُفاجأ المرءُ إذا كلَّف نفسه عناء جمع العدد الكبير جداً من الأقاويل التي تجعلُ من الأسود، الخطيئة. ففي أوروبا يمثّل الزنجي، سواءٌ عينياً أم رمزيّاً، الجانبَ السّيِّئ في الشخصيّة. طالما أنَّ هذا المطلب لن يفهم، فمن العبث الحديث عن «المسألة

السوداء». الأسود، الغامض، الظلّ، الدياجير، الليل، متاهات الأرض، أعماق المحيطات، تسويد سمعة فلان؛ ومن الجهة الثانية: نظرة البراءة الصافية، حمامة السلام البيضاء، النور الساطع، الفردوسيّ. طفل أشقر رائع، كم من السلام في هذا التعبير، كم من الغبطة وخصوصاً من الأمل! لا شيء يُقارن مع طفل أسود رائع: حرفياً، هذا شيء تماماً بذيء. مع ذلك لن أرجع إلى حكايا الملائكة السّود. في أوروبا، أي في كل البلدان المتحضّرة والمُحَضِّرة، يرمز الزنجيُّ إلى الخطيئة. النمط البدائي للقيم الدُّنيا يُمثِّل بالزنجي. وباللذات نستكشف التضادَّ نفسه في حلم اليقظة لدزوايّ (Desoille). فكيف نفسّر، مثلاً، أن يكونَ ملوَّناً بالأسود اللاوعيُ الممثّل للمزايا الدُّنيا والمُتَدنية. عند دزوايّ، حيث الوضع أوضح، بدون لعبة كلمات، المقصود دوماً الهبوط أو الصعود. عندما أهبطُ أرى كهوفاً، مغاور حيث يرقصُ متوحّشون. وبالأخص يتوجب عدم الانخداع، يجب ألّا ننخدع بذلك. مثلاً في إحدى جلسات حلم اليقظة الذي ينقله لنا دزوايّ، سنصادف غوليّين في كهف. لكنْ لا بد من القول إنَّ الغولي صافي النيّة. . . غوليّ في كهف، له نكهة عائليّة، ـ ربما نتيجة لـ «آبائنا الغوليون». . . أعتقد أنّ على المرء أن يرجع طفلاً لكي يفهم بعض الحقائق النفسية. في هذا المجال يونغ مجدِّد: يريد أنْ يذهب إلى عهد شباب العالم. لكنّه يخطىء خطأ مخصوصاً: فهو لا يذهب سوى إلى عهد شباب أوروبا.

لقد تبلور في أعمق أعماق اللاوعي الأوروبي هلالٌ أسودُ جداً، كالمحاق، حيث ترقدُ أشدُّ النزوات فساداً، وأقل الرغبات تصريحاً. وعلى غرار كل إنسان يصعد نحو البياض والنّور، أراد الأوروبي رفض غير المتحضّر هذا الذي يحاول الدفاع عن نفسه. عندما

اتصلت الحضارةُ الأوروبية بالعالم الأسود، بشعوب المتوحّشين هذه، كان الجميع متوافقين: هؤلاء الزنوج كانوا مبدأ الشر.

بصورة متواصلة، يشبّه يونغ الغريبَ بالظلمة، بالنزعة الشرّيرة: إنه على حقّ تماماً. فقد وصف التحليلُ النفسي الكلاسيكي هذه الآلية الإسقاطية، أو إذا شئتم، التحوليّة. على قدر ما أكتشفُ في نفسي شيئاً ما مُهيناً، مُسيئاً، لا يبقى أمامي سوى حل وحيد: التخلّص من نفسي، عزو الأبوّة إلى آخر. هكذا أضع حداً لدورة توتّرية قد تعرّض توازني للخطر. في حلم اليقظة، يجب الانتباه منذ الجلسات الأولى، ليس جيّداً أنْ يبدأ الهبوط بسرعة شديدة. فلا بد أن تكون أجهزة الإعلاء معروفة لدى الشخص قبل أي اتصال باللاوعي. فإذا ظهر زنجيّ، في الجلسة الأولى، فلا بد من التخلّص منه على الفور؛ لهذا، اقترحوا على الشخص الذي تعالجون أو تدرسون سُلّماً، حَبْلاً، أو ادعوهُ إلى التعلّق بمروحة طوّافة. حتماً، يبقى الزنجيُّ جاهلاً كل شيئ من الدنيا. للزنجي وظيفةٌ في أوروبا: وظيفة تمثيل المشاعر الدُّنيا، الميول الشرّيرة، الجانب المُظلم من النفس. ففي اللاوعي الجمعي للإنسان الغربي، يرمز الزنجي، أو إذا شئتم اللون الأسود، إلى الشر، الخطيئة، البؤس، الموت، الحرب، المجاعة. كل الطيور الكاسرة سوداء. في المارتينيك، وهي بلد أوروبي بلاوعيها الجمعي، يُقال عندما يزوركم زنجي «من الأعيان»: «أي شؤم يحمل؟».

ليس اللاوعي الجمعي مرتبطاً بوراثة دماغية: إنه حصيلةُ ما سأسميه الفرض الثقافي العفوي. لا شيء مستغرباً، إذاً، أنْ يُحيى أنتيليٌّ، خاضعٌ لطريقة حلم اليقظة، الهوامات نفسها التي يحياها أوروبيّ. ذاك أن لاوعي الأنتيلي والأوروبي، الجمعي، هو واحد.

لئن أدركنا ما تقدَّم، قد يكون في إمكاننا إعلان الاستنتاج التالي: من الطبيعي أن يكون لدى الأنتيلي خواف الزنجي. فقد اتّخذ الأنتيلي لنفسه، عبر اللاوعي الجمعي، كلّ أنماط الأوروبي البدائية. وتكاد تكون الروح المحركة للزنجي الأنتيلي امرأةً بيضاء دائماً. كما أنَّ الرُّوح المحرك لدى الأنتيليين الروح المحركة للزنجي دائماً الرجل الأبيض. وإنْ كان آناتول فرانس، بلزاك، بازان أو فلان من «روائيّينا»، لم يأتوا على ذِكْر هذه المرأة السوداء البخارية، على الرغم من وجودها، ولا على ذكر أبولون الداكن، ذي العينين البرّاقتين... فإني أشعرُ بأني مُخْتَان، ما دمت قد تحدَّثتُ عن أبولونا لا مفرّ: أنا أبيض، والحال، فإني لاشعورياً أحاذرُ ممّا هو أسودُ فيَّ، أي من كليَّة وجودي.

أنا زنجي ـ لكنّي بالطبع لا أدريه، ما دمتُ أنا عليه. في البيت، أمي تغني لي، بالفرنسيَّة، أغاني عاطفية فرنسية، لا تتناولُ الزُّنج البتة. عندما أتمرَّد، عندما أحدث جلبةً كبرى، يُقال لي «لا تكنْ زنجياً».

في وقت لاحق، قرأنا كتباً بيضاء واستوعبنا الابتسارات، شيئاً فشيئاً، والأساطير والفولكلور، الواردة إلينا من أوروبا. لكننا لن نتقبّل كل شيء، إذ لم تكنْ بعضُ الابتسارات تنطبقُ على الأنتيليين. فاللاسامية، مثلاً، غير موجودة، لأنه لا يوجد يهود، أو يوجد منهم نَفَرٌ قليلٌ جداً. من دون الاستعانة بمفهوم التطهر الجماعي، قد يكون سهلاً عليَّ أنْ أبيّن أنَّ الزنجي يختارُ نفسه، بصورة عفوية، غَرَضاً قابلاً لحمل الخطيئة الأصلية. لأجل هذا الدور، الأبيضُ يختارُ الأسود، والأسودُ الذي يكون أبيضَ يختار أيضاً الأسود. إن الأسود الأنتيلي هو عبد هذا الفرْض الثقافي. فبعدما كان عبداً للأبيض، راح

يستعبدُ نفسَه بنفسه. وإن الزنجي هو، بكل معنى الكلمة، ضحية الحضارة البيضاء. لا شيء يدهش ألّا تكونَ المخلوقاتُ الفنيّة للشعراء الأنتيليّين لا تحملُ طابعاً خاصّاً: إنهم بيض. للرجوع إلى علم النفس المَرَضي، لنقلْ إنَّ الزنجي يعيش ازدواجية عُصابية للغاية. في سن العشرين، أي في الوقت الذي يكون فيه اللاوعي الجمعي ضائعاً نسبياً، أو على الأقل يكون من الممكن دفعه إلى مستوى الوعي، يرى الأنتيلي أنّه يعيش في الضّلال. لماذا هذا؟ بكل بساطة لأن الأنتيلي ـ وهذا مهمّ جداً ـ قد عرفَ نفسَه كزنجي؛ لكنَّه أدرك، بانزلاق أخلاقيّ، (عبر اللاوعي الجمعي) أنّه كان زنجيّاً على قدر ما كان شيئاً، ضعيفاً، ماكراً، غريزياً؛ كل ما يتعارض مع هذه الآداب للوجود الزنجي، يكون أبيضَ. هنا يجب أن يُرى أهل الخراف الزنجي لدى الأنتيلي. ففي اللاوعي الجمعي، الأسود = البشع، الخطيئة، الدياجي، غير الأخلاقي. بكلام آخر: زنجيّ هو الذي يكون غيرَ أخلاقيّ. فإذا تصرَّفت في حياتي كإنسان أخلاقيّ، لا أكون زنجيّاً البتّة. من هنا في المارتينيك عادةُ القول عن أبيض سيِّئ أنَّ نفسه زنجيّة. فاللون لا شيء، حتى إني لا أراه، فأنا لا أعرف سوى شيء واحد، هو نقاء ضميري وبياض نفسي. «أنا أبيض مثل الثلج»، كان الآخر يقول.

يُمارس الفرضُ الثقافي بسهولة في المارتينيك. فالانزلاق الخُلُقي لا يواجه عقبة. لكنَّ الأبيضَ الحقيقي ينتظرني. في أول مناسبة سيقول لي لا يكفي أن تكون النيّة بيضاء، بل يجب تجسيد الكليّة البيضاء. في هذه اللحظة بالذات سأعي الخيانة. ـ لنختمْ. الأنتيليّ أبيضَ باللاوعي الجمعي، بجزءٍ كبير من اللاشعور الشخصي، وتقريباً بكلية مسار فرادته. أسودُ هو لون جلده، غير المذكور لدى يونغ، كل الملابسات تصدر عن هذا اللّبْس.

عندما كان سيزير في فرنسا، وهو يحضّر إجازته في الآداب، «استعاد جبنّه». كان يعرف أنّ ذلك كان جُبناً، لكنه لم يستطع أبداً أنْ يقول لماذا. كان يشعر أن ذلك مستحيل، غبيّ، حتى إني سأقول غير صحيّ، لكن في أيٍ من كتاباته لا نجد آليّات هذا الجُبن. لقد كان المطلوبُ إبادةَ الوضع الحاضر ومحاولة اكتناه الواقع بنفسية طفل. لقد كان زنجيّ الترامواي مضحكاً وبشعاً. من المؤكد أنّ سيزير قد تبسّم. إذْ لا يوجد شيء مشترك بينه وبين هذا الزنجي الحقيقي. في حلقة للبيض في فرنسا، جرى تقديم أسود جميل. لو كانت هذه حلقةً مُثقفين، كونوا على ثقة أنّ الأسود سيحاول أنْ يفرضَ نفسه. يطلبُ ألا يُنتبه إلى جلده، بل إلى قوّته الفكرية. كثيرون هم، في المارتينيك، أولئك الذين يجتهدون، في العشرين أو الثلاثين، لتعميق معرفتهم بمونتسكيو أو كلوديل، فقط لأجل الاستشهاد بهما. لأنهم من خلال معرفة أولئك الكتّاب، كانوا يرمون إلى تناسي سوادهم.

ينطوي الوعي الأخلاقي على نوع من الانقسام، على قطيعة في الوجدان، مع قسم واضح يتعارض مع القسم الغامض. ولكي يكون ثمة أخلاق، لا بد أن يتلاشى من الوعي، الأسودُ، الغامضُ، الزنجيُّ. إذاً، في كل لحظة هناك زنجيّ يُعارك صورته.

وبالمثل، إذا تواضعنا مع السيد هينار (Hesnard) حول تصوّره العلمي للحياة الأخلاقيّة، وإذا كان العالمُ المريضُ يُفهم انطلاقاً من الخطأ، الذَّنْب، فإن فرداً سويّاً سيكون ذلك الذي سيُفرِّغ من هذا الذَّنْب، والذي سيتمكن في كل حال من عدم حمل وزره. بشكل مباشر أكثر، على كل فرد أن يقذف مراتبه السفلية، نزواته، ويحملها إلى قدوة. إن هذه القدوة سيئة ستكونُ متمثلة بالثقافة التي ينتمي إليها

(لقد رأينا أن هذه القدوة كانت الزنجيّ). هذا الذَّنب الجمعي جرى تحميله لما اتفق على تسميته كبش المحرقة. والحال فإن كبش المحرقة بالنسبة إلى المجتمع الأبيض ـ القائم على أساطير: التقدم، الحضارة، الليبرالية، التربية، النور، الرّهافة ـ سيكون تحديداً هو القوّة التي تُعارض توسّع هذه الأساطير وانتصارها. هذه القوّة الوحشية، الاعتراضيّة، يقوم الزنجيّ بتربيتها!

في المجتمع الأنتيلي، حيث الأساطير هي نفسها أساطير المجتمع في ديجون أو نيس، فإنّ الفتى الأسود إذْ يتماهى بالمحضِّر، سيجعل من الزنجيّ كبش محرقة حياته الأخلاقيّة.

في سنّ الرابعة عشرة فهمتُ قيمةَ ما أدعوهُ، الآنَ، الغرضَ الثقافي. كان لدي رفيق، تُوفي منذ ذلك الحين، كان أبوه، الإيطالي، قد تزوّج مارتينيكيّة. كان هذا الرجل مُقيماً في فور دِ فرانس منذ أكثر من عشرين سنة. كان يُعتبر بمثابة أنتيلي، لكن، في الخفاء، كانوا يتذكّرون أصله. والحال، في فرنسا، لا قيمةَ عسكرياً للإيطالي؛ فرنسي واحد يساوي عشرة إيطاليّين؛ فالإيطاليّون ليسوا شجعاناً... كان رفيقي قد وُلد في المارتينيك، ولم يكنْ يعاشر إلّا مارتينيكيّين. ذات يوم، حين زعزع مونتغموري الجيشَ الإيطالي في بنغازي، رغبت في لحظ تقدّم الحلفاء على الخارطة. أمام الكسب الميداني الهائل، صرختُ متحمّساً: «ماذا تأخذون!...» رفيقي الذي لم يكن قادراً على تجاهل أصل أبيه، تضايقَ جداً. وأنا تضايقتُ أيضاً. لقد كنا، كلانا، ضحيّة للغَرْض الثقافي. أنا مقتنع أنَّ ذلك الذي سيفهم هذه الظاهرة وكل عواقبها سيعلم تماماً الاتجاهَ الذي سيبحث فيه عن الحل. اسمعوا المتمرِّد:

«يصعد... يصعد من أعماق الأرض... الموج الأسود يصعد... من أمواج الهدير... من مستنقعات الروائح الحيوانية...

من العاصفة التي تزبد فوق أقدام عارية... وعلى الدوام يزخر بآخرين ينزلون دروب الجبال الصغيرة، يتسلقون منحدرَ الوديان، بمثابة سيول فاحشة ومتوحشة ترفد أنهاراً سديمية، بحاراً آسنة، محيطات متشنجة، في جوٍ من الضحك الجمري الذي تثيره السواطير والخمر الردي»...».

هل فهمنا؟ لقد هبط سيزير. قبِلَ أن يرى ما يجري في القاع، والآن يمكنه أنْ يصعد فهو ناضج للفجر. لكنه لا يتركُ الأسود في الأسفل. يحمله على كتفيه ويرفعه إلى الغيوم. كان قد سبق له أن نبَّهنا إلى ذلك في دفتر العودة الى مسقط الرأس. لقد اختار النفسية الصعودية، كما يقول باشلار[1]:

.....

«ولأجل هذا، الرُّب ذي الأسنان البيضاء،
الرجال ذوي العنق الواهي
تلقَّ واستدركْ الصمتَ المثلث الأضلاع، المشؤوم
وأنا لي رقصاتي
رقصاتي كزنجي شرير
لي أنا رقصاتي
رقصة كسر ـ الطوق
رقصة القفز من السجن
رقصة الزنجي ـ الجميل ـ الطيِّب ـ الشرعي
لي رقصاتي، ولتقفزْ الشمسُ على راحة يديّ
لكنَّ الشمسَ الناقصة ما عادت تكفيني
أيتها الريح النقّي حول نموّي الجديد

(1) G. Bachelard, *L'air et les songes.*

حطّي على أناملي المدوزنة
سأعطيكِ ضميري وإيقاعه اللحمي
سأعطيكِ النيران حيث يتوقّد ضعفي
سأعطيك «الشاين ـ غانغ» (Chain-Gang)
سأعطيك المستنقع.
سأعطيك السلاح في التجوال المثلث الأضلاع
فيا ريحُ انهشي
سأعطيكِ كلماتي الغشيمة
انهشي وتكوّري
عانقيني وأنتِ تكوّرين برعشة شاسعة
عانقيني حتى صميم خوفنا
عانقينا، عانقينا نحن
لكنْ بما أنكِ قد عضضتنا أيضاً
حتى دم دمنا عضضتنا
عانقينا، فنقاوتي لا ترتبط بغير نقاوتكِ
عندها عانقينا.
مثل حقلِ أردانٍ رقيقة
في المساء
يعانق نقاواتنا المتعدّدة الألوان
واربطي، اربطيني بلا ندم
اربطيني بذرعانك الهائلة، اربطيني بالطين المشعّ
اربطي شعاعي الأسود بصرّةِ العالم باللثات
اربطي، اربطيني بالأخوّة الحادة
ثم، وأنتِ تخنقينني بوهق نجومكِ
اصعدي، أيتها اليمامة

ارتفعي
ارتفعي
ارتفعي
فأنا أتبعكِ، أيتها المطبوعةُ في قرنيّتي
قرنية أجدادي البيضاء
ارتفعي يا لحاسةَ السماء
والثقب الأسود الكبير حيث أريد أنْ أغرق
القمر الآخر
هناك أريد أن أصطاد الآن
اللغةَ الشرّيرة
لغة الليل في زجاجيته الجامدة!»[1]

إننا ندرك لماذا يرى سارتر في الموقف الماركسي للشعراء السُّود، النهاية المنطقية للزنوجة. إليكم ما يجري عملياً. بما أني أدركت أنَّ الزنجي هو رمز الخطيئة، رحتُ أكره الزنجي. لكنّي لاحظت أنّي زنجي. للانفلات من هذا المأزم، هناك حلاَّن، إما أن أطلب من الآخرين ألّا ينتبهوا إلى جلدي؛ وإما، بالعكس، أريدُ أن يروه. عندئذٍ سأحاول تقويم ما هو رديء ـ ما دمت قد سلمت، بصورة عفوية، أنّ الأسود هو لون الشر. لوضع حدٍّ لهذا الموقف العُصابي، حيث أكون مُكرهاً على اختيار حلّ سيِّئ، مأزميّ، محشوّ باستيهامات، تنازعي، لا إنساني، أخيراً ـ لا يكون أمامي سوى حلّ واحد: القفز فوق هذه الدراما العبثية التي أقامها حولي الآخرون،

(1) G. Bachelard, *L'air et les songes.*

واستبعاد هذين الحدّين اللذين لا يمكن قبولهما على السّواء، والنزوع نحو الكلي، الشامل، من خلال أنسنة خاصة. عندما يغوص الزنجي، بتعبير آخر عندما يهبط، يحدث شيء ما خارق.

اسمعوا سيزير أيضاً:
«شُو شُو
قوّتهم راسخة جداً
هذا أمرٌ مسلَّمٌ به
أمرٌ مطلوب
يداي تسبحان في خُلَجاتٍ مضاءة
في مزارع الأرز
ولديَّ يقطينةُ نجومي الضخمة
لكنّي ضعيف. أوه أنا ضعيف.
ساعدوني.
وها أنذا أجدني على حدّ التحوّل
غارقاً أعمى
خائفاً من نفسي، مرتعباً من ذاتي
من الآلهة... أنتم لستم آلهة.
أنا حرّ».

«الثائر. ـ منذ عشرين عاماً، تعاهدت مع هذا الليل، الليل الذي أشعر به وهو يتسلّلُ نحوي بلطافة...»[1].

Et les chiens se taisaient, Tragédie (*Les armes miraculeuses*, pp. 144 et 122). (1)

حين استعادَ سيزير ذلك الليل، أي معنى هويته، لاحظ بادىء الأمر ما يلي:

«عبثاً نرسم بالأبيض ساق الشجرة، فمن تحتها تصرخ قوّةُ القشرة...».

ثم بعدما اكتشف الأبيض في داخله، قتله:

«إننا نخلع الأبواب، كانت غرفة السيد مفتوحة على مصراعيها. كانت غرفة السيد مُضاءة جداً، وهناك كان السيد هادئاً جداً... وتوقّف رجالنا... لقد كان السيّد... دخلت. فقال لي وهو هادىء جداً: أهذا أنتَ... كنتُ أنا. حقاً كنتُ أنا، قلتُ له، أنا العبد الطيّب، العبد المخلص، العبد العبد، وفجأةً صارت عيناهُ مثل لقتين صغيرتين خائفتين في أيام المطر... ضربتُ، سالَ الدم: إنها المعمادة الوحيدة التي أتذكّرها اليوم»[1].

«بثورة داخلية مفاجئة ومباركة، كان يبجّل بشاعاته المُغرِقة»[2].

ماذا يُضاف بعد؟ فبعدما بلغ الزنجيُ حدودَ الدّمار الذاتي، سيقفزُ في «الثقب الأسود»، بدقةٍ متناهية أو بثورانية، حيث ستنطلقُ «من قـوةٍ كهذه، الصرخةُ الزنجية الكبرى التي ستزعزع أساساتِ العالم».

إن الأوروبي يدري ولا يدري. على الصعيد الارتكاسي، الزنجي هو زنجي؛ لكن في اللاوعي تترسخ ثابتة صورة الزنجي ـ الهمجي، بمكنتي أن أضرب ليس عشرة أمثال، بل الألوف. يقول جورج مونان في مجلة «حضور أفريقي»: «أُتيحت لي الفرصة لكي أكتشف السود ليس من خلال ليفي ـ برول (Lévy-Bruhl) في كتابه العقلية البدائية،

(1) p. 136.

(2) p. 65.

ولا من خلال محاضرات علم الاجتماع؛ بل من خلال سبيل آخر غير القراءات ـ وأنا سعيد بذلك على مدى الأيام...»[1].

مونان، الذي لا يمكن اعتباره فرنسياً متوسطاً، يُضيف ـ وهو بذلك يقفز في رأينا ورجلاه مُكبّلتان: «ربما ربحتُ من ذلك، في الوقت الذي لم يكن فيه العقل مستنيراً، أنْ أتعلّم أنّ السود هم بشرٌ مثلنا.. وأنا الأبيض. ربما كسبتُ من ذلك إمكانية أن أكون طبيعياً؛ إلى الأبد، مع أسود ـ وألّا أكون أبداً في مواجهته، بغباوة وصفاقة، في ذلك الوضع لباحثٍ إثنوغرافي غالباً ما يبقى أسلوبنا الذي لا يُطاق، أسلوب، إعادتهم إلى موضعهم...».

في العدد نفسه من مجلة (حضور أفريقي) كتبَ إميل درمنغيم، الذي لا يمكنُ الاشتباه في خوافه الزنجي: «كانت إحدى ذكريات طفولتي زيارة للمعرض العالمي سنة 1900، كان شاغلي الرئيسي هناك أنْ أرى زنجياً. وبالطبع كان خيالي مُثاراً بقراءات: قبطان في الخامسة عشرة، مغامرات روبير، رحلات ليفينغستون».

يقول لنا إميل درمنغيم إنّ ذلك كان يجسّد لديه حبَّ الغرابة. ولو كنتُ مستعداً، ويدايَ ضائعتان في يديه، لتصديق درمنغيم الذي كتب المقال، فسوف أطلب منه الإذنَ بالشكّ بدرمنغيم معرض 1900.

سألوم نفسي إذا استرجعت الموضوعات التي تُثار منذ خمسين عاماً، فالكتابةُ عن إمكانات صداقة سوداء هي مشروع كريم؛ إنما المؤسف هو أن المُصابين بخواف الزنوج وسواهم من الأمراء المماثلين، لا مجال للكرم معهم. عندما نقرأ: «الزنجي هو متوحّش،

(1) Premières réponses à l'enquête sur le «Mythe du nègre», *Présence Africaine*, N°2.

ولقيادة المتوحّشين لا توجد سوى طريقة وحيدة: الرّفس على المؤخّرة»، نفكّر من على طاولة عملنا، أنه «يجب أن تزول كل هذه الحماقات». لكنّ الجميع متفقون على ذلك. كتبَ جاك هوليت في (حضور أفريقي) العدد 5: «فضلاً عن ذلك، هناك على ما يبدو، أمران يسهمان في هذا الابتعاد للزنجيّ من عالم الآخر، بدون أي جامع مشترك معي: لونُ جلده وعراؤه، لأني كنتُ أتخيَّلُ الزنجي عارياً. ـ صحيح أنّ عناصرَ سطحية، نافلة (لا نزال غير قادرين على القول إلى أي حدّ لا تزال تساور أفكارنا الجديدة، تصوّراتنا المنقّحة) تمكنت أحياناً من تغليف هذا الكائن البعيد، الأسود والعاري، غير الموجود تقريباً؛ مثل الأسود الطيب ذو الشاشية والضحكة العريضة الفرنانديلية، رمز لوجبة شوكولاته، وكذلك مثل السنغالي الشجاع «عبد التعليمات»، دونكيخوت بلا عظمة، «الطفل الطيب البطل» لكل ما يعود إلى «الملحمة الكولونيالية»: وأخيراً، مثل الأسود «الإنسان الواجب هديه»، «الابن الخاضع» للمبشّر ذي اللحية».

يقول لنا جاك هوليت، في بقية رسالته، إنه رداً على ذلك جعل الزنجيّ رمزاً للبراءة. ويقدّم لنا سبب ذلك؛ لكننا مضطرون للظن بأنه لم يكنْ قد بلغ بعد الثامنةَ من عمره، لأنّه يحدّثنا عن «الإحساس بالذنب حيال الحياة الجنسيّة» وعن «الأنانة». إلى ذلك، أنا مقتنع بأن هذه «البراءة للراشد البالغ» قد تركها جاك هوليت بعيداً، خلفه بعيداً.

لا شك أن الشهادة الأهم هي شهادة ميشال سلومون. إنّه تفوح منه رائحة العنصري، مهما نفى ذلك من نفسه. فهو يهودي، وله «تجربة ألفيّة مع اللاسامية»، وهو مع ذلك عنصري. إسمعوه: «لكن الإنكار، نظراً لجلده وشعره، لهذه الهالة الحسيّة المتولدة منه

(الزنجي)، بأنّه لا يوجد فطريّاً انزعاجٌ ما، جاذب أو نابذ، معناه رفض البيِّنات باسم احتشام متطرف عبثي لم يحلّ شيئاً أبداً...». بعيد ذلك، سيذهب إلى حدّ تحدثنا عن «حيوية الأسود الزاخرة».

تفيدنا دراسة السيد سلومون أنّه طبيب. ولربّما كان عليه توخّي الحذر من هذه المنظورات الأدبية، غير العلمية. الياباني والصيني هما أكثر توالداً بعشر مرّات من الأسود: فهل هما، لهذا السبب، مستغرقان في الحسّية؟ وبعد، سيد سلومون، سأصارحكم بالقول: لم أستمعْ أبداً إنساناً يقول عن إنسان آخر «كم هو حسّاس!» إلّا وأصابني الغثيان. فأنا لا أدري ما هي حساسية إنسانٍ ما. تصوّروا امرأةً تقولُ عن أخرى: «إنها محبوبة جداً، هذه الدمية...». سيد سلومون، الزنجي لا يولد هالة حسية من جلده، ولا من شعره. إنما فُرضت عليكم منذ نهارات مديدة وليالٍ طويلة، صورةُ الزنجي - البيولوجي - الجنسي - الحسّي التناسلي، ولم تعرفوا كيف تتخلّصون منها. فالعين ليست مرآةً وحسب، بل هي مرآة مُقوِّمة. على العين أن تسمح لنا بتصحيح الأخطاء الثقافية. أنا لا أقول العيون، بل أقول العين، ومن المعلوم إلى ماذا تُحيل العينُ هذه؛ ليس إلى الفُرجة المُتكلِّسة، بل إلى هذه البارقة النضاحة جداً التي تنبجس من أحمر ڤان غوغ، التي تنزلق من كونسرتو تشايكوفسكي، التي تتشبّث يائسةً بقبضة شيلر أنشودة للفرح (Ode à la joie)، والتي تحملها صرخة سيزير المدوّية المتموجة.

إن المشكلة السوداء لا تنحلُّ في مسألة السُّود الذين يعيشون بين البيض، بل في مسألة السُّود المستَغَلين، المُستعبَدين، المُحتَقَرين من قبل مجتمع رأسمالي، كولونيالي، أبيض بالمصادفة. تتساءلون، سيّد سالومون، ماذا يمكنكم أن تفعلوا «لو كان لديكم 800,000 زنجي

في فرنسا»؛ لأن هناك مشكلة بالنسبة إليكم، مشكلة صعود السُّود، مشكلة الخطر الأسود. فالمارتينيكي هو فرنسي، يريد أن يبقى في قلب الاتحاد الفرنسي، وهو لا يطلب سوى شيء واحد أن يتيح له الحمقى والمُستغِلّون إمكانية العيش إنسانياً. إني أراني ضائعاً حقاً، تحملني الموجة البيضاء التي قد يشكلها رجالٌ مثل سارتر وآراغون، وأنا لن أطلب سوى ذلك. سيد سالومون، تقولون لا يكسب المرءُ شيئاً إذا كان مُتصنِّع الحياء، ونحن من رأيكم. لكنّي لا أشعر بأني أتخلّى عن شخصيتي حين أتزوّج أيّة أوروبية؛ وإني أؤكد لكم بأني لا أقومُ بـ «صفقة مغبونين». فإذا جرى شمُّ أطفالي، وفحص هلاليّاتِ أظافرهم، فذلك بكل بساطة لأن المجتمع لم يتغيَّر، ولأنه حافظ، كما تقولون حقاً، على ميثولوجيته بكاملها، من جانبنا، نرفضُ اعتبار المسألة من زاوية: إما وإما...

فما هي حكاية شعب أسود، جنسية زنجية هذه؟ أنا فرنسي، أنا معني بالثقافة الفرنسية، بالحضارة الفرنسية، بالشعب الفرنسي. نحن نرفض اعتبارنا «على حدة»، فنحن في صميم الدراما الفرنسية. عندما اجتاح فرنسا رجالٌ، ليسوا سيئين في الأساس، بل هم مضلّلون، وغايتهم إذلالها واستعبادنا، دلتني مهنتي كفرنسي أن موضعي ليس على حدة، بل في قلب المشكلة. أنا معني شخصياً بالمصير الفرنسي، بالقيم الفرنسية، بالأمة الفرنسية. ماذا تعني لي أمبراطورية سوداء؟

حقاً أراد جورج مونان، درمنغيم، هوليت، سالومون أن يجيبوا عن استطلاع حول تكوين أسطورة الزنجي. وأقنعنا الجميعُ بشيء واحد، هو أن اكتناهاً صحيحاً لواقع الزنجي كان يجب أن يحدث على حساب التبلر الثقافي.

مؤخراً كنتُ أقرأ في جريدة للأطفال، هذه العبارة، المزدانة بصورةٍ يقوم فيها فتى كشفيّ أسود بتعريف ثلاثة أو أربعة كشّافين بيض على قرية زنجية: «هاكم الحلّة التي كان أجدادي يطبخون فيها أجدادكم». يجري حقاً التسليم بأنه لم يعد هناك زنوج يأكلون لحماً بشرياً، لكنْ يجري التذكير بذلك... وإني أرى، بكل صراحة، أن الكاتب قدَّم خدمةً للزنوج، دون أن يدري. لان الفتى الأبيض الذي سيقرأها، لن يتمثَّل الزنجي وهو يأكل الأبيض، بل كما أكله. وهذا تقدّم لا ريب فيه.

قبل ختام هذا الفصل، نتمنّى نقل مشاهدة ندين بها للطبيب الرئيس في القسم النسائي في مشفى سانت ـ إيلي للطب النفسي. هذه المشاهدة تُضيء وجهة النظر التي ندافع هنا عنها. فهي تبيّن أن أسطورة الزنجي، في أقصى حدودها، فكرة الزنجي، تُفضي إلى تعين إنسلاب حقيقي.

الآنسة ب. كان عمرها 19 سنة عندما دخلت إلى القسم في شهر آذار/مارس 19... الشهادة مكتوبة على الشكل الآتي: «أنا الموقع أدناه، الدكتور ب... طبيب سابق داخل مشافي باريس، أشهدُ أني عاينتُ الآنسة ب... المُصابة باضطرابات عصبية، قوامها نوبات انفعال، اضطراب حركي، تشنّجات عضلية في الوجه، تشنّجات إرادية، لكنها لا تستطيع منعها. هذه الاضطرابات تضطردُ وتمنعها من أنْ تعيش حياة اجتماعية سويّة. من الضروري وضعها تحت المراقبة في مؤسسة خاضعة لقانون 1838 بموجب الوضع الطوعي».

شهادة الأربع وعشرين ساعة التي وضعها الطبيب ـ الرئيس: «مُصابة بعُصاب تشنّجات عضلية في الوجه، حاصل منذ سن العاشرة ومتفاقم مع البلوغ والأعمال الأولى خارج البيت. انهيار عابر مع

قلق، مصحوب بتزايد في الأعراض. بدانة. تطلب العناية والعلاج. تجد نفسها مرتاحة مع آخرين. مريضة تحتاج إلى رعاية مفتوحة. يجب أن تبقى تحت العناية».

في السوابق الشخصية لا نستكشف أي مسار مَرَضيّ. لا نجد سوى بلوغ في سنّ السادسة عشرة. الفحص الجسدي لا يكشف شيئاً، سوى بدانة، سوى ارتشاح بسيط في الأغشية، يجعلنا نفكّر في قصور الغدد الصمّاء. دورات الحيض منتظمة.

تسمح مقابلةٌ بتوضيح النقاط الآتية:

«بوجه خاص عندما أعمل تظهر التشنجات العضلية في الوجه» (كانت المريضة موضوعة في مؤسسة للرعاية، وتالياً كانت تعيش خارج الوسط القرابي).

تشنج في العينين، الجبهة؛ لهاث، عواء. تنام جيداً جداً بلا كوابيس، تأكل جيداً. لا تكون معصّبة أيام الدورات الشهرية. في سريرها، عدّة عرّات في الوجه قبل النوم.

رأي المُراقبة: هذا يحدث خصوصاً عندما تكون وحدَها. هذا لا يُلحظ تماماً عندما تكونُ مع الآخرين أو في حالة محاورة، التشنج يتوقّف على ما تفعل. تبدأ بضرب قدميها، وتتطوّر وهي ترفع رجليها، ساقيها، ذراعيها، كتفيها بشكل متوازٍ.

تختلف الأصوات. لم نتمكن أبداً من فهم ما كانت تقوله. ثم ينتهي ذلك بصرخات قوية جداً، غير مبيّنة. فما أن نناديها، تتوقّف.

يبدأ الطبيب ـ الرئيس بجلسات حلم اليقظة. بما أنَّ مقابلة تمهيدية أظهرت وجود هلوسات على شكل دوائر مرعبة، يُطلب من المريضة أن تذكر تلك الدوائر.

إليكم خلاصة تقرير الجلسة الأولى:

«دوائر عميقة، مُتَراكزة، تزداد وتنقص على إيقاع تام ـ تام زنجي. هذا التام ـ تام يذكّرها بخطر فقدان أهلها، خصوصاً أمها.

عندها طلبت منها أن تضع علامة صليب فوق هذه الدوائر، فلم تمّحِ، طلبت منها أن تأخذ ممسحة وأن تمحوها، فاختفت.

تنعطف من جانب التام ـ تام. إنها محاطة برجال ونساء نصف عُراة. يرقصون على نحو مخيف. قلتُ لها: لا تخافي من الدخول في هذه الرقصة. ففعلت. على الفور، تغيّرت هيئة الراقصين. إنه لقاء متألق. الرجال والنساء يلبسون ملابس زاهية ويرقصون رقصة فالس على أنغام معزوفة نجمة الثلوج.

«قلتُ لها: اقتربي من الدوائر: لم تعد تراها. قلتُ لها: اذكريها! ها هي، لكنها متكسّرة. قلت لها ادخلي من الفُتحة. فقالت عفوياً، لم أعد مُحاطة تماماً، سأستطيع الخروج مجدّداً. تنكسر الدائرة إلى اثنتين، ثم إلى أشلاء. لم يبق سوى قطعتين، تختفيان. عدّة مرّات في الحنجرة والعينين، وهي تتحدّث.

«تؤدي عدّة جلسات إلى تسكين الألم الناجم عن الحركية».

إليكم خلاصة جلسة أخرى:

«طلبت منها أن تتذكر الدوائر. إنها لا تراها. ثم ها هي. إنها مكسّرة. تدخل فيها. تنكسر، تتكوّن، ثم تهبط بهدوء في الفراغ، الواحدة تلو الأخرى. أطلب منها أن تصغي للتام ـ تام. لا تسمعه. أناديها. تسمعه من الجهة اليسرى.

«أقترح عليها ملاكاً من شأنه أن يرافقها إلى التام ـ تام: تريد أن تذهب إليه بمفردها. غير أنّ شخصاً ما يهبط من السماء. إنه ملاك. متبسّم: يأخذها إلى مقربة من التام ـ تام. ليس هناك سوى رجال سُود يرقصون حول نار كبيرة، ويبدو أنهم شرسون. يسألها الملاك

عما سيفعلون: سيحرقونَ أبيض. تبحث عنه من كل الجهات. لا تراه.

«آه! أراه. إنه أبيض في الخمسين من عمره. إنه نصفُ عار.

«الملاك يتحادث مع الرئيس الأسود (لأنها خائفة). يقول الرئيس الأسود إن هذا الرجل الأبيض ليس من المنطقة، وإنهم سيقومون بإحراقه أيضاً. لكنه لم يرتكب شراً.

«يُطلقون سراحه ويعاودونَ الرقصَ بفرح. ترفضُ الانضمام إلى الرقص.

«أرسلها للتفاوض مع الرئيس (الزعيم). هذا يرقص وحدَه. لقد إختفى الأبيض. تريد اللحاب ولا يبدو عليها الإصرار لمعرفة السُّود. تريد الرحيل مع ملاكها إلى مكانٍ ما تكونُ حقاً في بيتها، مع أمها، مع أخوتها وأخواتها».

حين اختفت نوبات التشنّج، توقّف العلاج. بعد عدّة أيام، تُعاد رؤية المريضة، التي انتكست مجدَّداً. خلاصة الجلسة:

«الدوائر المقتربة دوماً. تأخذ عصاً. تتكسَّر الدوائر وتتناثر. إنّها العصا السحرية. تحوّل هذه الأجزاء الحديدية إلى مادة لمّاعة جميلة جداً.

«تتجه نحو موقدة: إنها نار السُّود الذين يرقصون. تريد أن تعرف الزعيم. تمشي نحوه.

«الزنجي الذي توقّفَ عن الرقص، يستأنف الرقصة، لكنْ على إيقاع آخر، ترقص حول النار وهي تمدُّ يدَها.

«من الواضح أن الجلسات حسّنت حالة المريضة. كتبت للويها، تلقّت زيارات، ذهبت إلى حفلات سينما المؤسسة. شاركت في ألعاب المجموعة. مريضة تعزف فالساً على بيانو الجناح، تدعو رفيقة لها وترقص. رفيقاتها يحترمنها ويقدّرنها».

نقتطفُ هذا المقطع من جلسة أخرى:

«تعاود التفكير بالدوائر. إنها متكسرة في غرفة واحدة، لكن قطعة تنقصها على اليمين. القطع الصغيرة كاملة. تتمنّى أن تكسر القطع الصغرى. تأخذها بيديها، تقلقها؛ تتكسّر. مع ذلك، تبقى قطعة صغيرة. تمرّ من خلالها. تجد نفسها من الجهة الأخرى في الظلام. لا تخاف. تنادي شخصاً ما، يأتي ملاكها الحارس من الأعلى، لطيفاً، باسماً، يقودها إلى النهار، إلى اليمين».

في الحالة الراهنة، يقدّم حلمُ اليقظة نتائج قيّمة. لكنْ منذ أن تجد المريضة نفسها وحيدة، كانت علامات التشنج تظهر مجدّداً.

لا نريد أن نتناول البنية التحتية لهذا العُصاب النفسي. إذ كان استجواب الطبيب ـ الرئيس قد أظهر خوفاً من زنوج مُتخيَّلين ـ خوفاً معيوشاً في الثانية عشرة.

أجرينا عدّة مقابلات مع المريضة.

عندما كانت في العاشرة أو الثانية عشرة، كان أبوها وهو من «قدامى الكولونيالية»، يحبّ أن يشاهد برامج موسيقى زنجية. فكان التام ـ تام يتردّد في البيت كل الأماسي، عندما كانت في السرير.

من جهة ثانية، كما أسلفنا، في هذا العمر ظهر الزنوج ـ المتوحشون ـ آكلو اللحم البشري.

الترابط سهل التحديد.

إلى ذلك، كان أخوتها وأخواتها، الذين اكتشفوا نقطة ضعفها، يتسلّون في تخويفها.

في سريرها، والتام ـ تام في أذنيها، كانت ترى زنوجاً بالفعل. فكانت تتخفّى تحت الأغطية وهي مرتعبة.

ثم كانت تظهر دوائر أصغر فأصغر، وتصدُّ الزنوجَ لا شعورياً.

وعليه، نستكشف الدوائر بوصفها آلية دفاعية ضد الهلوسات.

اليوم تظهر الدوائر من دون الأسود ـ فآلية الدفاع تفرض نفسها بغض النظر عن سببيّتها.

لقد رأينا الأم. أكّدت أقوال ابنتها. كانت انفعالية جداً، وفي الثانية عشرة، غالباً ما كانت ترتجف في سريرها. وجودنا في القسم لم يؤدِ إلى أي تبدّل منظور في الحالة العقلية.

اليوم، من دون الأسود، تثير الدوائر وحدَها الظواهر الحركية: صرخات، تشنجات عضلية في الوجه، حركات مضطربة.

حتى لو خصصنا قسماً للتكوين، من الواضح أن هذا الانسلاب هو حصيلة خوفٍ من الزنجيّ، خوف شجّعته ظروف محدّدة. فعلى الرغم من التحسّن الملموس للمريضة، هناك شكّ بأنْ نتمكن، عمّا قريب، من أن تستأنف حياة اجتماعية.

الفصل السابع

الزنجيّ والاعتراف به

أ. الزنجيّ وآدلر

«مهما تكن الزاوية التي نتناول منها تحليل الأحوال النفسانية المريضة، لن نتوانى عن أن نجد أنفسنا أمام الظاهرة التالية: وهي أن كل لوحة العُصاب، وكذلك كل أعراضه، تبدو متأثرةً بهدفٍ أخير، وحتى تبدو كأنها اسقاطات للهدف هذا. كذلك، يمكنُ أنْ تُعزى إلى هذا الهدف الأخير، قيمة سبب تكويني، قيمة مبدأ توجيهي، ترتيبي، تنسيقي. حاولوا أنْ تفهموا «معنى» واتجاه الظواهر المرضية، بصرف النظر عن هذا الهدف الأخير، وسوف تجدون أنفسكم على التوّ أمام كثرة سليمية من النزعات، من النزوات، من مكامن الوهن والتشوّهات، كثرة موضوعة لإحباط البعض وإثارة الرغبة لدى الآخرين لاختراق الدياجي بأي ثمن، تحت طائلة العودة منها صِفْر اليدين أو بغنيمة بخسة. وبالعكس، إذا سلّمنا بفرضيّة الهدف الأخير، أو غائيّة سببيّة، متخفية وراء الظواهر، يُرى على التوّ تبدّد الدياجير، ونقرأ في نفسية المريض مثلما نقرأ في كتاب مفتوح»[1].

(1) Alfred Adler, *Le tempérament nerveux*. p. 12.

عموماً، انطلاقاً من مواقف نظرية مماثلة تُبنى التضليلاتُ الأشدُّ إدهاشاً في عصرنا. والحال، فلنطبّقْ البسيكولوجيا الطبائعية على الأنتيليّين.

الزنوج هم للمقارنة. حقيقة أولى. فهم للمقارنة، أي أنهم يهتمون، كل لحظة، بتقويم ـ ذاتي وبمثال الأنا. فهم كلما اتصلوا بآخر، تثار مسألة القيمة، الاستحقاق. ليس للأنتيليين من قيمة خاصة؛ فهم دائماً مدينون لظهور الآخر. على الدوام تدور المسألة حول الأقل ذكاءً مني، الأكثر سواداً مني، الأقل خيراً وجمالاً مني. فكلٌّ تموضع للذات، كُل ترسيخ للذات يقيم علاقات استتباع مع انهيار الآخر. فأنا أقيم رجولتي، ذُكورتي على أنقاض المُحيط.

أقدّم للمارتينيكي الذي يقرأني، التجربة الآتية. تحدد شوارع فور ـ دِ فرانس الأكثر «مقارنة». شارع شولشر، شارع ڤيكتور هوغو... وليس بالطبع شارع فرانسوا ـ آراغو. برأيي أنَّ المارتينيكي الذي يقبل القيام بهذه التجربة سيكون قادراً تماماً في الوضع الذي لن ينكسف فيه من رؤية نفسه مُعرّىً. إنّ آنتيليّاً يلتقي رفيقاً بعد خمس أو ست سنوات، إنّما يقاربه بعدائيّة. ذاك أن كليهما كان لهما موقف محدَّد عبر الزّمان. فالدونيّة تظنُّ أنها تقوّم ذاتها... ويصرُّ الأعلى على الهرميَّة التراتبية.

«لم تتغيّر... ما زلت كما كنت».

إلّا أنّي عرفتُ منهم أطباء وجراحي أسنان ما برحوا يتقاذفون إلى رؤوسهم أخطاء قيمية تعودُ إلى 15 سنة. إنها أكثر من الأخطاء التصورية، «شائعات» تُطلق عند ظهور الخطر. لقد جرى تجويدها مرّة واحدة وإلى الأبد: لا يمكن القيام بأي شيء آخر. فالأنتيلي يمتازُ

برغبة الهيمنة على الآخر. خط توجّهه يمرُّ عبر الآخر. والموضوع الدائم هو الذات، الشخص، وليس هناك أي اهتمام بالقابل، بالموضوع. أحاول أنْ أقرأ في عيني الآخر الإعجابَ، ولو أن الآخر، لسوء الحظ، أرسل إليَّ صورةً سيئة، فإنني أبخسُ هذه المرآة: من المؤكد أن هذا الآخر أحمق. فأنا لا أسعى لكي أكون عارياً في مواجهة القابل (الموضوع). القابل هو أداة. ينبغي أن يسمح لي بتحقيق أمني الذاتي. فأنا أعتبر نفسي كاملاً (رغبة الكمال، الامتلاء) ولا أتقبّل أي انشطار. يدخلُ الآخر الى المسرح لكي يؤثثه. أما البطل فهو أنا، صفّقوا أو انتقدوا، ماذا يهمني، فأنا هو المركز. إذا رغبَ الآخر في أن يقلقني برغبته التقويمية (بوهمه)، فإنني أنبذه، من دون شكل آخر للمحاكمة. فهو ما عاد موجوداً. لا تحدّثوني أكثر عن هذا الأنموذج. لا أريد معاناة صدمة القابل (الموضوع). فالاتصال بالقابل مأزمي، تنازعي. أنا نرسيس وأريد أن أقرأ في عينَي الآخر صورةً أنا، تُرضيني. كما يوجد في المارتينيك، في حلقة معيّنة (بيئة)، «الأصلع»، ساحة «الأصلع»، واللامبالون (اللذين ينتظرون) والمُهانون. هؤلاء، يُقتلون بلا رحمة. يمكنُ توقّع الجو الذي يسود في الغابة هذه. لا وسيلة للخروج منها.

أنا، لا شيء سواي.

المارتينيكيّون متعطشون للأمن. يريدون أنْ يؤخذ بوهمهم. يريدون أن يُعترف لهم برغبة رجولتهم. يريدون أنْ يظهروا. كلّ واحد منهم يشكّل ذرّة معزولة، قاحلة، قاطعة، ذات أرصفة محدَّدة جداً، لكل واحد منهم وجوده. كل منهم يريد أن يكون، أن يظهر. كل فعل للأنتيلي يمرُّ بالآخر. لا لأنَّ الآخر يبقى الهدف الأخير لفعله في أفق

الإيلاف الإنساني الذي وصفه آدلر[1]، بل بكل بساطة لأن الآخر هو الذي يوطّده في حاجته التقويمية.

الآن بعدما استعدنا خط آدلر للتوجه الأنتيلي، بقي علينا البحثُ عن أصله.

هنا تظهرُ المصاعب. الواقع أنَّ آدلر أنشأ بسيكولوجيا فردية. والحال، رأينا منذ قليل أن شعور النقص هو شعور أنتيلي. فليس أيُّ أنتيلي هو الذي يمثّل البنية العصبية، بل كلُّ الأنتيليّين. إن المجتمع الأنتيلي هو مجتمع عصبي، مجتمع «مقارنة». نحن إذاً مُحالون من الفرد إلى البنية الاجتماعية، فإذا كان ثمة عيب، فإنه لا يكمنُ في «نفس» الفرد، بل يكمن حقاً في نفسية البيئة.

المارتينيكي عَصَبيّ، وهو ليس منفرداً في ذلك. فإذا طبّقنا بصرامةٍ نتائجَ مدرسة آدلر، قد نقول إنَّ الزنجي يحاول الاحتجاج على النقص، الدونية التي يشعر بها تاريخيّاً. وعلى مرّ الزمان، كان مثل الزنجي ناقصاً، مرؤوساً، فيحاول الرّد على ذلك بعقدة تفوُّق. وهذا ما يُستفاد حقاً من كتاب براشفلد (Brach feld). فهو حين يتحدّث عن الشعور العرقي بالنقص، يُورد مسرحية إسبانية لأندريه دكلارامونت، El valiente negro de Flandres. يمكن أن نرى من خلالها أن النقص الزنجي لا يعود إلى هذا القرن، طالما أن دكلارامونت كان معاصراً لـ لوبي دِ فيغا.

«كان يفتقر فقط إلى اللون

حتى يكون حقيقياً....

ويعبِّر الزنجي جوان دمريدا عن نفسه، كما يلي:

(1) Alfred Adler, Connaissance de l'homme.

«أية إهانة أن يكون المرء أسودَ
في هذا العالم!
أليس السُّود
بشراً؟
ألهذا لهم نفسٌ أرذل، أدنى،
أبشع؟
ولهذا تُضفى عليهم ألقاب
أنهضُ مُثقلاً بإهانة
لوني
وأؤكد للعالم شجاعتي
هل هناك ما هو أسوأ من أن يكون المرء أسود؟».

المسكين جوان لم يعد يعرف لأي قدّيس يعترف. عادةً، الأسود هو عبد. لا شيء كهذا في موقعه:

«لأني لستُ عبداً
على الرغم من كوني أسود».

غير أنه يودّ الخلاص من هذا السّواد. فهو ذو موقف أخلاقي في الحياة. من حيث التقويم، هو أبيض:

«أنا أكثرُ بياضاً من الثلج».
لأنّ على الصعيد الرمزي، في آخر المطاف:
«ما معنى أن يكونَ أسود، إذاً؟
هل الوجود هو من هذا اللون؟
سأشكو من هذه الإهانة للقدر،

للزمان، للسماء
ولكل هؤلاء الذين جعلوني أسودا
آه يا لعنة اللون!».

منحبساً، يدرك جوان أنَّ النيّة لا يمكنها إنقاذه. فظهوره يلغّم كل أفعاله وينفيها:

«ماذا تهمُّ النفوسُ؟
أنا مجنون.
ماذا أفعل سوى أن أكون يائساً؟
أيتها السماء، أي شيء مرعب
هو أن يكون المرء أسود».

في ذروة الألم، لا يبقى للزنجي المسكين سوى حلّ: تقديم الأدلّة للآخرين، وخصوصاً لنفسه، على بياضه:

«لئن كنت لا أستطيع أن أغيِّر لوني،
فإني أنشدُ المغامرة»[1].

كما نرى، يجب فهم جوان دمريدا في أفق التعويض الإضافي. في أميركا، طبّق دمان وإستمان طريقة آدلر بنحو مفرط قليلاً. فكل الأحداث التي ذكرتها واقعية؛ لكن، أينبغي القول، إنها لا تقيم مع بسيكولوجيا آدلر سوى علاقات برّانية. فالمارتينيكي لا يُقارن بالأبيض، المعتبر بمنزلة الأب، الزعيم، الرّب؛ بل يُقارن بنظيره، تحت إشراف الأبيض. يمكن ترسيم مقارنة آدلرية على النحو الآتي:

---

(1) ترجمة شخصية (للمؤلف).

«أنا أعظم من الآخر»

في المقابل، تظهر المقارنة الأنتيلية على النحو الآتي:

أبيض
____

أنا مختلف عن الآخر

تنطوي المقارنة الأدلرية على حدّين: فهي موضع استقطاب الأنا.

تكلل المقارنة الأدلرية بطرف ثالث: إذْ لا يكون الوهم الموجِّهُ شخصيّاً فيها، بل اجتماعي.

المارتينيكي مصلوب. فالمحيطُ الذي صنعه (لكنّه لم يصنعه هو) زعزعه بقوّة؛ فهذا المحيط الثقافي، إنما يتغلغل بدمه وطباعه. والحال فإنَّ دم الزنجي هو سماد له قيمته لدى العارفين...

أدلرياً، بعدما لاحظتُ أنَّ رفيقي يحقّق، في حلمه، رغبة تبييض نفسه، أي أنْ يكون فحلاً، سأكشف له إذاً أنَّ عُصابه، اضطرابَه النفساني، إنكسار أناهُ، تصدر كلها عن هذا الوهم الموجِّه، وسأقول له: «السيد مانّوني أجادَ وصف هذه الظاهرة لدى المالغاشي. ألا ترى، ربما ينبغي، على ما أظنُّ «أن تتقبّل البقاءَ في الموضع الذي جُعل لك».

لكنْ، لا! لن أقول شيئاً من هذا! بل سأقول له: إن المسؤولَ عن تضليلك هو المحيط، المجتمع. وبعد، سيأتي الباقي لوحده، والكل يعلم ما هو المقصود.

نهاية العالم. قسماً.

أحياناً أتساءل عمّا إذا كان مفتّشو التعليم ورؤساء الأجهزة، يعون دورَهم في المستعمرات. خلال عشرين عاماً، تحمسوا في برامجهم لجعل الزنجي أبيضَ. في النهاية، يهملونه ويقولون له: لا شك أن لديك عقدة تبعية إزاء الأبيض.

ب. الزنجي وهيغل

> يكون وعي الذات بذاته ولذاته، كلّما، ولأنّه بذاته ولذاته في سبيل الوعي ذاتي آخر؛ أي أنّه لا يكونُ إلّا بوصفه كائناً معترفاً به[1].

لا يكونُ المرء إنساناً إلّا بقدر ما يرغبُ في فرض نفسه على إنسانٍ آخر، لكي يجعله يعترف به. وما دام فعلياً لا يحظى باعتراف الآخر، فإن هذا الآخر يظلُّ موضوعةَ فعله. فقيمتُه وحقيقته الإنسانيّتان تتوقّفان على هذا الآخر، على اعتراف هذا الآخر به. إن معنى حياته يتكثّفُ في هذا الآخر.

ليس هناك صراع مكشوف، مفتوح، بين الأبيض والأسود.

ذات يوم اعترفَ السيّدُ الأبيض، بدون صراع، بالزنجي العبد.

لكنَّ العبد العتيق يريدُ أنْ يُعترفَ به.

في أساس الديالكتيك الهيغلي هناك تبادلية مطلقة لا بد من إبرازها.

بوصفي متخطياً لوجودي المباشر هنا، أحقّق وجودَ الآخر كحقيقة طبيعية وأكثر من طبيعية. فإذا أغلقت الدّورة، وإذا جعلتُ الحركة غير قابلة للتحقق في اتجاهين، فإني أبقي الآخرَ داخل الذّات. في أقصى الحالات، أنتزع منه حتى هذا الوجود ـ لذاته.

إن الوسيلة الوحيدة لكسر هذه الحلقة الجهنّمية التي ترجعني إلى ذاتي، هي أن أحقّق للآخر، من طريق التوسّط والاعتراف، حقيقتَه الإنسانية، المختلفة عن حقيقته الطبيعيّة. والحال، على الآخر القيام

---

(1) Hegel, *Phénoménologie de l'Esprit*, trad. Hyppolite, p. 155.

بعملية مماثلة. ربما تكون العملية الأحادية الجانب نافلةً لأن ما يجب حدوثه يمكن أن يحدث فقط من خلال عملية الاثنين...!؛ فهما يتعارفان، وكأنهما يعترفان ببعضهما على التوالي»[1].

إنَّ الوعي الذاتي هو، في مباشرته، وجود لذاته بسيط. للحصول على اليقين الذاتي، لا بد من استدماج مفهوم الاعتراف. وبالمِثل، ينتظرُ الآخرُ اعترافنا به، حتى يتفتّح في الوعي الذاتي الشامل، الكلي. فكل وعي ذاتي يبحث عن المُطلقية. يريد أنْ يُعترفَ به كقيمة أوليّة مُستخرّجة من الحياة، كتحويل لليقين الذاتي إلى حقيقة موضوعية.

إنّ الوعي الذاتي، حين يُصادف ممانعةَ الآخر، يقوم بتجربة الرغبة، وهي أول مرحلة على الطريق الذي يقود إلى كرامة الرّوح. فهو يرضى أن يخاطر بحياته، وتالياً يهدِّدُ الآخر في حضوره الجسماني. «فالمرءُ، فقط حين يُجازف بحياته، يحتفظ بحريته، ويبيّن أنَّ جوهرَ الوعي الذاتي ليس الوجود، ليس النمط المباشر الذي ينبثق منه وعيُ الذات بادىء ذي بدء، وليس استغراقاً في توسعة الحياة»[2].

هكذا، فإن الحقيقة الإنسانية بذاتها ـ لذاتها لا تتمكَّن من الاكتمال إلّا في الصراع وبما ينطوي عليه من مُجازفة. هذه المجازفةُ تعني أنْ أتجاوزَ الحياةَ نحو خير أسمى، ألا وهو تحويل اليقين الذاتي الذي أملكه عن قيمتي، إلى حقيقة موضوعيّة، مقبولة عالمياً.

أطلبُ أنْ يُصار اعتباري انطلاقاً من رغبتي. فأنا لستُ هنا ـ الآنَ

---

(1) *Ibid.*, p. 157.

(2) *Ibid.*, p. 159.

وحسب، منحبساً في الشيئيّة. بل أنا لمكانٍ آخر ولأمرٍ آخر. أُنادي بأن يُؤخذ في الحسبان نشاطي السالب، بصفتي أنشدُ أمراً آخرَ غيرَ الحياة؛ بصفتي أناضل لأجل ميلاد عالمٍ إنسانيّ، أي عالم اعترافات متبادلة.

فذاك الذي يتردَّد في الاعتراف بي، إنما يعارضني. وفي صراع شديد، أتقبّل الاهتزاز بزلزلة الموت بالانحلال الذي لا رجوع منه، لكن أيضاً إمكان المستحيل[1].

إلّا أنّ الآخر يستطيع الاعتراف بي من دون صراع:

«إن الفرد الذي لم يعرّض حياته للخطر، يمكنُ الاعتراف به حقاً كـ شخص، لكنّه لم يبلغْ حقيقة الاعتراف هذا بوعي ذاتي مستقل»[2].

---

(1) عندما باشرنا هذا العمل أردنا تخصيص دراسة لكيان الزنجي، وجوده ـ لأجل ـ الموت. وكنا نراها ضرورية، لأن هناك مَنْ يواصل التكرار: الزنجي لا ينتحر.

السيد آشيل لم يتردّد في الدفاع عن ذلك في مؤتمر، وريتشارد رايت قوّل أبيض، في إحدى قصصه: «لو كنتُ زنجياً لانتحرت...» قاصداً بذلك أنّ زنجياً فقط يستطيع أن يتقبّل معاملة كهذه من دون أن يشعر بنداء الانتحار.

وبعد، خصّص السيد ديشي أطروحته لمسألة الانتحار. بيّن أنّ أعمال جانش التي تضع النمط المنفكّك (عيون زرقاء، وجلد أبيض) في مواجهة النمط المتلمج (عيون سمراء، وجلد أسمر)، وهي على الأقل أعمال خادعة، مشبوهة.

كان يرى دوركهم أن اليهود لا ينتحرون. واليوم جاء دور الزنوج. والحال، «يستقبلُ مشفى ديترويت من بين المنتحرين، 16,6% من الزنوج، فيما نسبة هؤلاء السكان ليست سوى 7,6%. وكان هناك في سينسيناتي أكثر من ضعف الانتحارات لدى البيض، وهذه مزايدة ناجمة عن النسبة المذهلة للزنجيّات: 358 زنجية مقابل 76 زنجياً».

(Gabriel Deshaies, *Psychologie du suicide*, p. 23).

(2) Hegel, op. cit., *p. 159*.

تاريخياً، قام السيّد بعتقِ العبد، الغارق في تفاهةِ العبوديّة. فهو لم يخضْ النضالَ على سبيل الحرية.

من موقع العبودية. فاجأ الزنجيُّ الجميعَ بدخوله إلى السُّدى الأعلى حيث كان يجتمع الأسيادُ. على غرار هؤلاء الخدم الذين يسمح لهم بالرقص في الصالون، مرّةً كل عام، كان الزنجيُّ يبحثُ عن حامل. لم يصبح الزنجيُّ سيّداً. فعندما لا يعود ثمّة عبيد، لا يكونُ هناك أسياد.

الزنجيُّ هو عبد سُمِحَ له بتبنّي موقف سيّد.

الأبيض هو سيّد سمح لعبيده بأن يأكلوا على مائدته.

ذات يوم، قال سيّد أبيض طيب ونافذ، لصحبه:

«كونوا لطفاء مع الزنوج...».

يومئذٍ، قرّر السّادةُ البيضانُ، وهم يعترضونَ، لأن الأمرَ كان شديداً عليهم، أنْ يرفعوا بشراً ـ آلاتٍ ـ بهائم إلى السُّدى الأعلى للبشر.

لم يعدْ يجوز لأية أرض فرنسية أنْ تحمل عبيداً.

من الخارج طاولَ الانقلابُ، الأسودَ. لقد جرى تفعيلُ الأسود جاءتْ إليه قيمٌ لم تتولّدْ عن فعله، قيمٌ لم تنجمْ عن الصعود الانقباضي لدمه، راقصة حوله رقصتها الدائرية الملونة. الانقلابُ لم يميّز الزنجي. فقد انتقل من نمط حياتي إلى آخر؛ لكن ليس من حياة إلى أخرى. فمثلما يقع لمريض أن ينتكس، بعد تحسّن حاله وإعلامه أنّه سيخرج من المصحة بعد أيام قليلة، يحدثُ أن يحدِّد خبرُ تحرير العبيد السُّود، أمراضاً نفسية ووفياتٍ مفاجئة.

في حياةٍ ما، لا يتلقّى المرءُ هذا الخبرَ نفسَه مرتين. فقد اكتفى الأسود بشُكرانِ الأبيض، والدليل الأقوى على هذه الواقعة نجده في

العدد الكبير لتماثيل موزَّعة في فرنسا وفي المستعمرات، تمثّل فرنسا البيضاء وهي تعانق الشعرَ الأجعدَ لهذا الزنجي الشجاع الذي كُسِرتْ قيودُه حديثاً.

«أشكرْ السيِّدَ»، تقولُ الأمُّ لولدها... لكنّا نعرف أن الصبي الصغير يحلم غالباً بأنْ يتفوَّه بكلمةٍ ما، أخرى - أكثر إرناناً...

والأبيض، بصفته سيِّداً[1]، قالَ للزنجيّ: «من الآن فصاعداً، أنتَ حرّ».

لكنَّ الزنجيّ يجهلُ ثمنَ الحرية، لأنّه لم يقاتلْ لأجلها. فمن وقت إلى آخر، يقاتل في سبيل الحرية والعدالة، إلّا أن المقصود دوماً حريّة بيضاء وعدالة بيضاء، أي قِيم فرزَها السّادات. فالعبدُ السابق، الذي لا يكتشفُ في ذاكرته لا الصراع لأجل الحرية ولا قلق الحرية الذي تحدَّث عنه كيركجارد، يقف وحلقُه جافّ أمام هذا الأبيض الذي يلعب ويغني فوق حَبْل الوجود المشدود.

عندما يحدثُ للزنجي أن ينظرَ إلى الأبيض بقسوة، يقولُ الأبيضُ له: «أخي، لا فرقَ بيننا». مع ذلك يعلمُ الزنجيُّ أنَّ ثمّة فارقاً. إنّه

(1) نأمل أنْ نكون قد بيّنا أنَّ السيّد هنا يختلفُ جوهرياً عن ذلك الذي وصفه هيغل. هناك تبادلية عند هيغل، وهنا يهزأ السيد من وعي العبد. فهو لا يطالب باعتراف العبد، بل بعمله.
كما أن العبد هنا لا يمكن تشبيهه إطلاقاً بذلك الذي، أضاع نفسه في الشيء، فوجد في العمل مصدر تحرّره.
الزنجي يريد أن يكون مثل السيّد.
كما أنه أقل استقلالاً من العبد الهيغلي.
عند هيغل، يرتدُّ العبدُ عن السيّد ويتقلب نحو الشيء.
هنا يتقلبُ العبد نحو السيّد ويترك الشيء.

يتمنّاه. يتمنّى أن يقول الأبيضُ له فجأة: «زنجي قذِر...» عندها ربما تكونُ له هذه الفرصة الوحيدة ـ فرصة أن «يبيِّن لهم...».

لكن في الأغلب لا يكون ثمّة شيء، لا شيء سوى اللامبالاة، أو الفُضول الأبوي.

يطلبُ العبدُ السابقُ أنْ تُرفض إنسانيّته، يتمنّى صراعاً، عراكاً. لكن بعد فوات الأوان: فالزنجي الفرنسي محكوم عليه بأن يعضّ نفسه أو غيره. نقولُ الفرنسيّ، لأنَّ السُّودَ الأميركيين يعيشون مأساةً أخرى. في أميركا، يُصارع الزنجي ويكون مغلوباً. شيئاً فشيئاً، هناك قوانين تختفي من الدستور. هناك مراسيم تحظر بعض التمييزات. ونحن واثقون أنَّ الأمر لا يتعلق، عندئذٍ، بهبات.

هناك معركة، هناك هزائم، هِدَن، انتصارات.

لقد صوّتت «الأصوات السوداء البالغة 12 مليوناً» ضد ستار السماء. والسّتارة سقطتْ مثل بَلافون مثقوب، هذه الآلة الموسيقية الأفريقية المبقورة، من طرفيها، والتواجد لا تزال تماماً في موضعها، وهي تنهش بطن محظوراتها.

في ميدان القتال، المحدود من زواياه الأربع، بعشرينات من الزنوج المعلّقين من بيضاتهم، ينتصبُ رويداً رويداً، نُصُبٌ واحدٌ بأنْ يكون جليلاً.

وفي قمّة هذا النُّصب، ألمح منذ الآن أبيضَ وأسود يتصافحان.

ألوضع لا يُطاق بالنسبة إلى الأسود الفرنسي. فهو غير واثق أبداً من أنَّ الأبيضَ يعتبرُه بمثابة وعي ـ لذاته ـ بذاته، سينكبُّ بلا انقطاع على إبداء المقاومة، المعارضة، الرفض.

هوذا ما يُستفادُ من بعض مقاطع الكتاب الذي خصّصه مُونييه

لـ أفريقيا[1] فالشبّانُ السُّود الذين عرفهم هنالك، كانوا يرغبون في الحفاظ على غيريّتهم. غيريّة قطع، صراع، كفاح.

فالأنا يقدّم نفسه وهو يعترض، كان فيخته يقول. نعم ولا.

في مقدّمتنا، قلنا إن الإنسان كان نعم. لن نكف عن ترداده.

نعم للحياة. نعم للحب. نعم للكرم.

لكنَّ الإنسان هو أيضاً: لا. لا لاحتقار الإنسان. لا لإذلال الإنسان. لاستغلال الإنسان. لقتل أجمل ما هو إنساني في الإنسان: الحريّة.

ليس سلوكُ الإنسان انعكاسياً، وحسب. ففي كل ارتكاس، هناك على الدوام حَنَقٌ ما. وكان نيتشه قد أشارَ إلى ذلك في إرادة القوّة.

إن جلبَ الإنسان إلى الفعالية، مع الحفاظ الكامل على احترام القيم الأساسيّة التي تؤسس عالماً إنسانياً، هو المهمة الطارئة الأولى، المهمة الملحّة، لذلك يستعدّ للعمل، بعد تروّ وتأمل.

---

(1) Emmanuel Mounier, *L'éveil de l'Afrique noire*. Édition du Seuil, 1948.

على سبيل الختام

لا يمكنُ للثورة الاجتماعية أنْ تستمدّ شاعريتها من الماضي، بل فقط من المُستقبل. فهي لا تستطيع أن تبدأ مع ذاتها قبل أنْ تتجرَّد من كل الشعوذات المتعلّقة بالماضي. كانت الثوراتُ السابقةُ تسترجع ذكرياتِ التاريخ العالمي حتى تتخدَّر من حيث مضمونه الخاص. على ثوراتِ القرن التاسع عشر، لكي تبلغ مضمونها الخاص بها، أن تتركَ الأموات يدفنونَ الأموات. هناك، كان التعبير يتجاوزُ المضمون؛ هنا، المضمون يتجاوز التعبير. (كارل ماركس، 18 برومير).

منذ الآن، ألمح وجه جميع هؤلاء الذين سيطلبون مني أنْ أوضح هذه النقطة أو تلك، وأنْ أدين هذا المسلك أو ذاك.

من الواضح، وأنا لن أتوانى عن تكرار ذلك، أن المجهود التحريري لدكتور في الطب من أصل غواطوبي، يُتاح فهمُه انطلاقاً من دوافع مختلفة جوهرياً عن جهد الزنجيّ العامل في بناء مرفأ أبيدجان. بالنسبة إلى الأول، يكاد الانسلابُ أن يكون ذا طبيعة فكرية. فهو كما يتصوَّر الثقافة الأوروبية، بوصفها وسيلةً للتخلّص من

عرقه، يقدِّم نفسه كمُستلب. وبالنسبة إلى الثاني، فإنه يرى نفسه من حيث هو ضحية لنظامٍ قائم على استغلال عرقٍ ما من طرف عرقٍ آخر، وعلى احتقار إنسانيّةٍ ما من جانب شكل حضاريّ يعدُّ نفسه متفوّقاً.

لن ندفع العفوية إلى حدّ الاعتقاد بأن الدعوات إلى العقل أو إلى احترام الإنسان، يمكنها تغيير الواقع. بالنسبة إلى الزنجي الذي يشتغل في مزارع القصب في روبير[1] (Robert)، لا يوجد سوى حلٍّ وحيد: الصّراع. وهذا الصراع، سيباشرُه وسيقودُه ليس بعد تحليل ماركسيّ أو مثاليّ، بل، بكل بساطة، لن يستطيع أنْ يتصوَّر وجودَه إلّا من زاوية أنواع كفاحٍ يخوضه ضد الاستغلال، البؤس والجوع.

قد لا يخطر في بالنا أن نطلب من هؤلاء الزنوج أنْ يصحّحوا التصوّر الذي يكوّنونه عن التاريخ. ناهيكَ بأننا مقتنعون أنهم يدخلون، من دون علم، في نظراتنا وآرائنا، وهم متعوّدون على التحدّث والتفكير في حدود الحاضر. فبعض الرفاق العمّال الذين أُتيحت لي فرصة لقائهم في باريس، لم يثيروا أبداً مسألةَ اكتشاف ماضٍ زنجيّ. كانوا يعرفون أنهم كانوا سُوداً، لكنهم كانوا يقولون لي إن هذا لا يدّل شيئاً من لا شيء.

كانوا في هذا محقّين للغاية.

حول هذا الموضوع، سأصوغُ ملاحظةً تمكّنتُ من استكشافها لدى كتّاب كثيرين: إن الانسلاب (الاغتراب) الفكري هو من اختراع المجتمع البورجوازي. وأسمّي مجتمعاً بورجوازياً كلَّ مجتمع يتجمّد في أشكالٍ معيّنة، مانعاً كلَّ تطور، كل مسيرة، كلّ تقدم، كل

---

(1) ولاية مارتينيكية.

اكتشاف. أسمّي مجتمعاً بورجوازياً، مجتمعاً منغلقاً حيث لا يطيبُ العيش، حيث يكونُ الهواء فاسداً، ويكون الناس والأفكار في حالة انحلال. وأرى أنّ إنساناً يقفُ ضد هذا الموت، يكونُ ثورياً بمعنىً ما.

إن اكتشافَ وجود حضارة زنجيّة في القرن التاسع عشر لا يمنحني براءة إنسانية. فسواء شئنا أم أبينا، لا يمكن للماضي، في أي حال، أن يوجهني في الحاضر.

إن الوضع الذي درسته، كما لوحظ ذلك، ليس كلاسيكيّاً. وكانت الموضوعية العلمية محظورةً عليَّ، لأنَّ المُسْتَلَب، العُصابي، كان أخي، كانت أختي، كان أبي. فحاولت بثباتٍ أنْ أبيّن للأسود أنه كان يتطبّع بمعنى ما؛ وللأبيض أنه كان مضلَّلاً ومُضلِّلاً في آن.

في بعض اللحظات، يكونُ الأسود منحبساً في جسمه. والحال «بالنسبة إلى كائن اكتسبَ وعيَ ذاته وجسده، توصَّل إلى ديالكتيك الذات والموضوع، لا يعود الجسمُ سببَ بنية الوعي، بل يغدو موضوعاً للوعي»[1].

إن الأسود هو عبد الماضي، وإنْ كان صادقاً. لكنني إنسان، وبهذا المعنى تكونُ حرب البلوبونيز حربي أنا أيضاً، مثل اكتشاف البوصلة. في مواجهة الأبيض، للأسود ماضٍ يستحقُّ التقدير، وله ثأر ينبغي أخذُه؛ وفي مواجهة الأسود، يشعر الأبيض المعاصر بضرورة استذكار مرحلة أكل اللحم البشري. منذ عدة سنوات، طلب مني

---

(1) Merleau-Ponty, *Phénoménologie de la perception*, p. 277.

موريس مرلو ـ بونتي: ظواهرية الإدراك، تعريب فؤاد شاهين، منشورات معهد الإنماء العربي، بيروت 1990. (م. م.).

الاتحاد الليوني لطلبة فرنسا ما وراء البحار، أنْ أردَّ على مقالةٍ كانت تجعل، حرفياً، من موسيقى الجاز انبثاقاً لأكل اللحم البشري في العالم الحديث. وبما أني كنت أعرف إلى أين أسير، رفضتُ مقدّمات المُحاوِر وطلبت من الدافع عن النّقاء الأوروبي أن يُقلع عن تشنّج لا علاقة له بالثقافة. فبعض الناس يريدون أن ينفخوا العالم بوجودهم. وكان فيلسوف ألماني قد وصف هذا المسار باسم باتولوجيا الحرية. بالمناسبة، لم يكن من واجبي اتّخاذ موقف مع الموسيقى السوداء ضد الموسيقى البيضاء، بل كان عليَّ أن أساعد أخي للإقلاع عن موقفٍ لا خيرَ فيه ولا بَرَكة.

إن المسألة المصوَّرة هنا تقع في الزّمانية. ولسوف ينعتق من الانسلاب، الزنوج والبيضُ الذين سيرفضون الانجرار وراء الانحباس في برج الماضي الجوهراني. زدْ على ذلك أنه بالنسبة إلى الكثيرين من الزنوج الآخرين، سيولدُ التحريرُ من رفض اعتبار الراهن وكأنه نهائي.

أنا إنسان، وعليَّ استرجاع كل ماضي العالم. فأنا لست مسؤولاً فقط عن انتفاضة سان دومينغ.

كلّما غلَّبَ إنسان كرامة الرّوح، كلما قال إنسان، لا لمحاولة استعباد نظيره، أشعر أنّي متضامن مع فعله.

لا ينبغي لي، بأية طريقة، أنْ أستخرج من ماضي الشعوب الملوّنة، توجُّهي الأصلي.

بأية حالة، لا يحق لي أن أنكبَّ على إحياء حضارة زنجيّة، مُغفلة، بلا وجه حق. فأنا لا أجعل من نفسي إنسانَ أي ماضٍ. لا أريد أنْ أتغنَّى بالماضي على حساب حاضري ومستقبلي.

لم يتنفض الهندي ـ الصيني لأنه اكتشف ثقافةً خاصة به. بل لأنه «بكل بساطة»، وعلى غير مستوى، باتَ من المستحيل عليه أنْ يتنفّس.

عندما نستذكر حكايات العرفاء المحترفين الذين وصفوا، سنة 1938، بلد الدراهم ومراكب الجرّ، والصبيان والنسوان الرخيصة الثمن، فإننا نفهم تماماً العنفَ الذي حارب به رجال الفيتنام.

عاد من الهند الصينيّة رفيقٌ، كنتُ إلى جانبه خلال الحرب الأخيرة. فأطلعني على أمور كثيرة. أطلعني مثلاً على صفاءِ الشبان الفيتناميين في السادسة عشرة أو في السابعة عشرة، وهم يتساقطون أمام كتيبة الإعدام. قال لي، ذات يوم كنا مرغمين على إطلاق النّار ونحن في وضع القنّاص الجاثي على ركبتيه: كان الجنود يرتجفون أمام هؤلاء الشبّان «المتعصبين». في الختام، أضاف: «إن الحرب التي خضناها معاً، لم تكن سوى لعبة، بالمقارنة مع ما حدثَ هناك».

هذه الأمور لا يمكنُ فهمُها حين تُرى من أوروبا. يتحدّث البعضُ عن موقف آسيوي مزعوم أمام الموت. لكنَّ الفلاسفة منَ المراتب السفلية هؤلاء لا يُقنعونَ أحداً. فهذا الصفاء الآسيوي، كانَ «زعران» فركور و «إرهابيّو» المقاومة، قد عبروا عنه، لحسابهم، ليس من أمدٍ بعيدٍ جداً.

إنَّ الفيتناميّين الذين يموتون أمام كتيبة الإعدام، لا يأملون أنْ تسمح تضحيتهم بظهور جديد لماضٍ ما. فهم ارتضوا الموتَ باسم الحاضر والمستقبل.

ولو طُرحت عليّ، في لحظةٍ ما، مسألة التضامن الفعلي مع ماضٍ محدَّد، فإنني أتضامنُ على قدْر ما أكون ملتزماً تجاه نفسي وتجاه

قريبي للمحاربة بكل وجودي، بكل قوّتي حتى لا يبقى على الأرض شعوبٌ مُستعبدة.

فيما يُملي سلوكي عليّ ليس العالمُ الأسود. فجلدي الأسود ليس مستودعَ قيم خاصّة. منذ أمد بعيد، كانت السماء المُنجمة التي جعلت كانط مبهوراً، وقد كشفتْ لنا أسرارَها. والقانونُ الأخلاقي يشكُّ بذاته.

بصفتي إنساناً، ألتزم بمجابهة خطر الزّوال، حتى تسلّط حقيقتان أو ثلاث حقائق نورَها الجوهري على العالم.

بيَّن سارتر أن الماضي، في خطِّ موقفٍ غير صحيح، يستحوذ على عقول الناس بالجملة؛ وعندما وهو قويُّ البنية يُعلِم الفردَ. إنّه الماضي المتحوّل إلى قيمة. لكنني أستطيع أيضاً استرجاع ماضيَّ، تقويمه أو إدانته بخياراتي المتعاقبة.

يريد الأسود أنْ يكون مثلَ الأبيض. بالنسبة إلى الأسود لا يوجد سوى مصير واحد. وهو مصير أبيض. لقد مرَّ على ذلك زمن طويل، وكان الأسود يسلِّم بتفوّق الأبيض بلا جدال، وكانت كل جهوده تنزع إلى تجسيد وجود أبيض، تحقيق حياة بيضاء.

والحال، أليسَ لديَّ، على هذه الأرض، شيء آخر أقوم به، سوى الثأر لسودِ القرن السابع عشر؟

أليسَ عليَّ، فوق هذه الأرض التي تحاول المكرَ والخداع، أنْ أطرحَ مسألة الحقيقة السوداء؟

هل من واجبي إذاً الانحباسُ في تسويغ زاوية من زوايا الوجه؟

أنا الإنسانُ الملوَّنُ لا يحقُّ لي البحث عمَّا يجعل عِرقي أعلى أو أدنى من عِرق آخر.

لا يحق لي، أنا الإنسان الملوَّن، أنْ أتمنَّى تبلُّر شعورٍ بالذنب، تجاه ماضي عِرقي، لدى الأبيض.

لا يحقُّ لي، أنا الإنسان الملوّن، الاهتمام بالوسائل التي قد تسمح لي بدوس كبرياء السيّد القديم.

ليس لي حقّ ولا واجب المطالبة بالتعويض على أجدادي المُستخدَمين، المدجّنين.

ليس هناك رسالة زنجية؛ وليس هناك وِزْر أبيض.

ذات يوم، أكتشفني في عالمٍ حيثُ الأشياء تؤذي؛ عالم أُطالبُ فيه بأن أقاتل؛ عالم تدور فيه المسألةُ دوماً حول الزوال أو النصر.

أنا الإنسان، أكتشف نفسي في عالم حيث الكلماتُ تتزركشُ بالصَّمْت؛ في عالم، حيث الآخرُ يتصلَّبُ، يتشدّد بلا حدود.

لا، لا يحقُّ لي أن آتي وأن ألمّ كرهي للأبيض. لا يحقّ لي أنْ أهمسَ عرفاني بجميل الأبيض.

هناك حياتي المشدودة بوهق الوجود. هناك حريتي التي تُرجعني إلى نفسي. لا، لا يحقّ لي أن أكونَ أسود.

لا يجبُ عليّ أن أكونَ هذا أو ذاك...

فإذا رفضَ الأبيضُ إنسانيّتي، فسوف أبيّن له، وأنا أضغطُ بكل وزني الإنساني على حياته، أنّي لست على شاكلة الصورة الواردة في الإعلان التجاري «الموز الطيب» (Ya bon Banamice)، التي ما برح يتخيّلها.

ذات يوم أكتشفُني في العالم وأعترف لنفسي بحق أوحد: حقّ مطالبة الآخر بسلوكٍ إنسانيّ.

بواجب أوحد: واجب عدم إنكار حريتي من خلال خياراتي.

أنا لا أريد أنْ أكون ضحية مكر عالم أسود.

ولا ينبغي تكريسُ حياتي لتقديم جردة حساب بالقيم الزنجيّة.

لا يوجد عالم أبيض، لا توجد أخلاقية بيضاء، كما لا يوجد ذكاء أبيض.

من طرفي العالم، هناك بشر يبحثون.

أنا لست حبيسَ التاريخ. ولا يجبُ عليَّ أنْ أبحثَ عن معنى مصيري وقدري.

عليَّ أن أتذكَّر، في كل آنٍ، أن القفزة الحقيقية تكمنُ في إدخال الإبداع إلى العالم.

فأنا أبدع بلا حدود، في العالم الذي أسير فيه.

أنا متضامن مع الوجود على قدْرِ ما أتخطّاه.

وسنرى، من خلال مسألة خاصة، كيف تتجلّى مسألةُ الفعل. فهل سأمضي لتكديس الأسلحة، وأنا موضوعٌ في هذا العالم، موجودٌ في مكان، «راسٍ» كما أراد باسكال؟

هل سأطلبُ من الإنسان الأبيض الحالي أنْ يكون مسؤولاً عن زنوج القرن السابع عشر؟

هل سأحاول بكل الوسائل توليدَ الذَّنب في النفوس؟

الوجع المعنوي أمام كثافة الماضي؟ أنا زنجي، وأطنان السلاسل وزوابع السياط وأنهار البصاق تجري فوق كتفيّ.

لكن لا يحقُّ لي أنْ أرسو. لا يحقّ لي القبول بأدنى جزء كيانيٍّ في حياتي. لا يحقُّ لي أن أترك جبريّات الماضي تُوقعني في شِراكها.

فأنا لستُ عبد العبودية التي أفقدتْ آبائي إنسانيَّتهم.

بالنسبة إلى الكثيرين من المثقفين الملوّنين، ترتدي الثقافةُ الأوروبيّة رداءً خارجياً. إلى ذلك، يستطيعُ الأسود أن يشعر، على صعيد الأواصر الإنسانية، أنه غريب عن العالم الغربي. بما أنَّه لا يريد أن

يتزيّا بزيّ القريب الفقير، زيّ الابن المُتبنّى، الدَّعي، فهل سيحاول أن يكتشف، بعصبيّة، حضارة زنجيّة؟

فلنَفهمْ بنحو خاص. فنحن مقتنعون أنّ ثمة مصلحة كبرى وراء الاتصال بأدب زنجي أو عمارة زنجيّة من القرن الثالث قبل المسيح. قد نكونُ سعداء بأن نعرف أنَّ هناكَ مطابقةً بين أيّ فيلسوف زنجي وأفلاطون. لكنّا لا نرى إطلاقاً ماذا يمكنُ لهذه الواقعة أنْ تغيِّر من وضع الصبيان الصغار، في الثامنة، الذين يشتغلون في حقول القصب، في المارتينيك أو الغواطلوب.

لا يجوزُ السعي لتثبيت الإنسان، ما دام مصيرُه أن يُطلقَ سراحه.

إنّ كثافة التاريخ لا تحدِّد أيّاً من أفعالي.

فأنا أساسُ ذاتي.

وحين أتخطّى المُعطى التاريخي، الأداتي، أستدخِلُ دورةَ حريتي.

إن تعاسة الإنسان الملوّن تكمنُ في أنه كان مُستعبَداً.

وإن تعاسة الأبيض ولاإنسانيّته تكمنان في أنه قتلَ الإنسانَ في مكانٍ ما.

وهما تكمنان، اليومَ أيضاً، في التنظيم العقلاني لتصفية الإنسانية هذه. لكن أنا، الإنسانُ الملوَّن، على قدْر ما يغدو ممكناً وجودي المُطلق، لا يحقّ لي الانحباس في عالم إصلاحات وتعويضات استرجاعية، ذات مفعول رجعي.

فأنا الإنسان الملوَّن لا أنشدُ سوى شيء واحد:

ألّا تسيطر الأداةُ أبداً على الإنسان.

أنْ يتوقَّف إلى الأبد استعبادُ الإنسانِ للإنسان.

أي استعبادي أنا من قِبل آخر. وأن يُسمح لي باكتشاف الإنسان، وأن أُريده أينما كان.

ليس الأسود موجوداً، ولا الأبيض.

فكلاهما، عليهما الابتعاد عن السبل غير الإنسانية التي كانت سبل أجدادهما على التوالي، حتى ينشأ تواصل صحيح. فقبل السير في السبيل الإيجابي، أمام الحرية سبيل النضال لإزالة الانسلاب. كل إنسان يكون في بداية حياته، مزدحماً على الدوام، يكون غارقاً في النّرجس، في الإمكان. تماسُكُ الإنسان يكمنُ في أنّه كان طفلاً.

إنّ البشرَ يمكنهم خلق ظروف حياة مثالية لعالم إنساني، ببذل الجهد لاسترجاع الذات وللفرز، وبتوتّر حريتهم توتّراً مستديماً، متواصلاً.

فوقية؟ دونيّة؟

لماذا لا يُحاوَل، بكل بساطة، لمسُ الآخر، الشعورُ، الإحساسُ بالآخر، وكشفُه لي؟

والحال، ليست حرّيتي متاحةً لي، لبناء عالم الأنتَ؟

في نهاية هذا الكتاب، نتمنّى الشعور، مثلنا، بالبعد المفتوح لكل وعي.

دعوتي الأخيرة:

يا جسدي، اجعلني دائماً إنساناً يسأل!

تم الطبع بتاريخ سبتمبر 2004

بشرة سوداء، أقنعة بيضاء

بعد زوال الاستعمار، يحتفظ هذا البحث في فهم علاقة الأسود والأبيض بكل قيمته الاستشراقية: ذلك أن العنصرية على الرغم من الفظاعات التي ملأت بها العالم، تبقى مسألة مطروحة في المستقبل أيضاً.

تمت معالجتها هنا وجرى التعدي لها مواجهة بكل زخر علوم الإنسان وبحماس الرجل الذي سيكون رائد فكر بالنسبة إلى كثيرين من مثقفي العالم الثالث.

فرانز فانون

ولد فرانز فانون عام 1925 في فور د فرانس. طرد من الجزائر حين كان رئيس مستشفى الأمراض العقلية في البليدة (الجزائر) واستقر في تونس حيث استمر في علاقته بزعماء الحكومة الجزائرية المؤقتة. توفي في نيويورك عام 1961 بعد أن نشر كتابين آخرين مخصصين للثورة الجزائرية وإزالة الاستعمار.

ISBN 9947-21-143-6
Dépôt-Légal:1872-2004